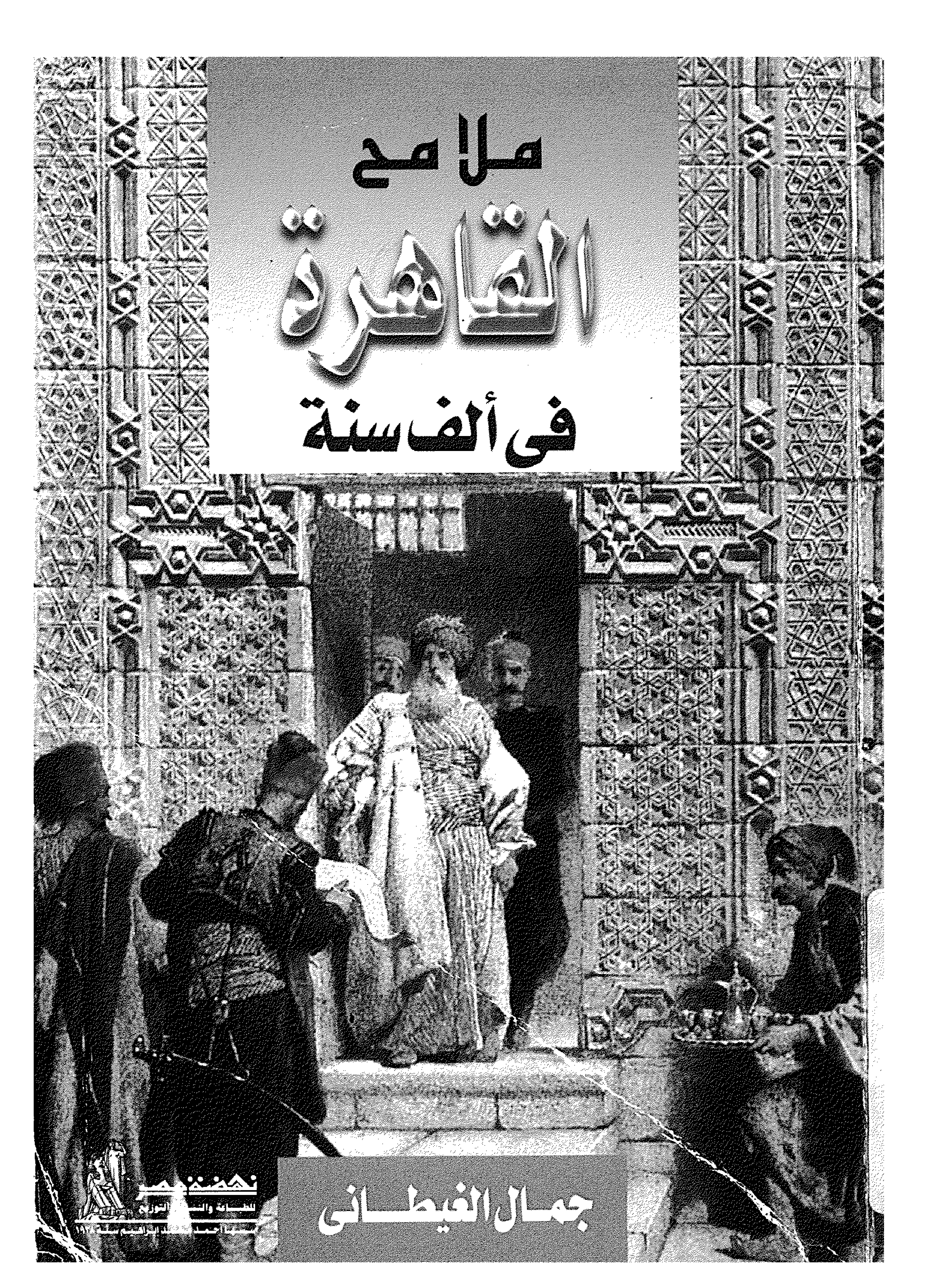
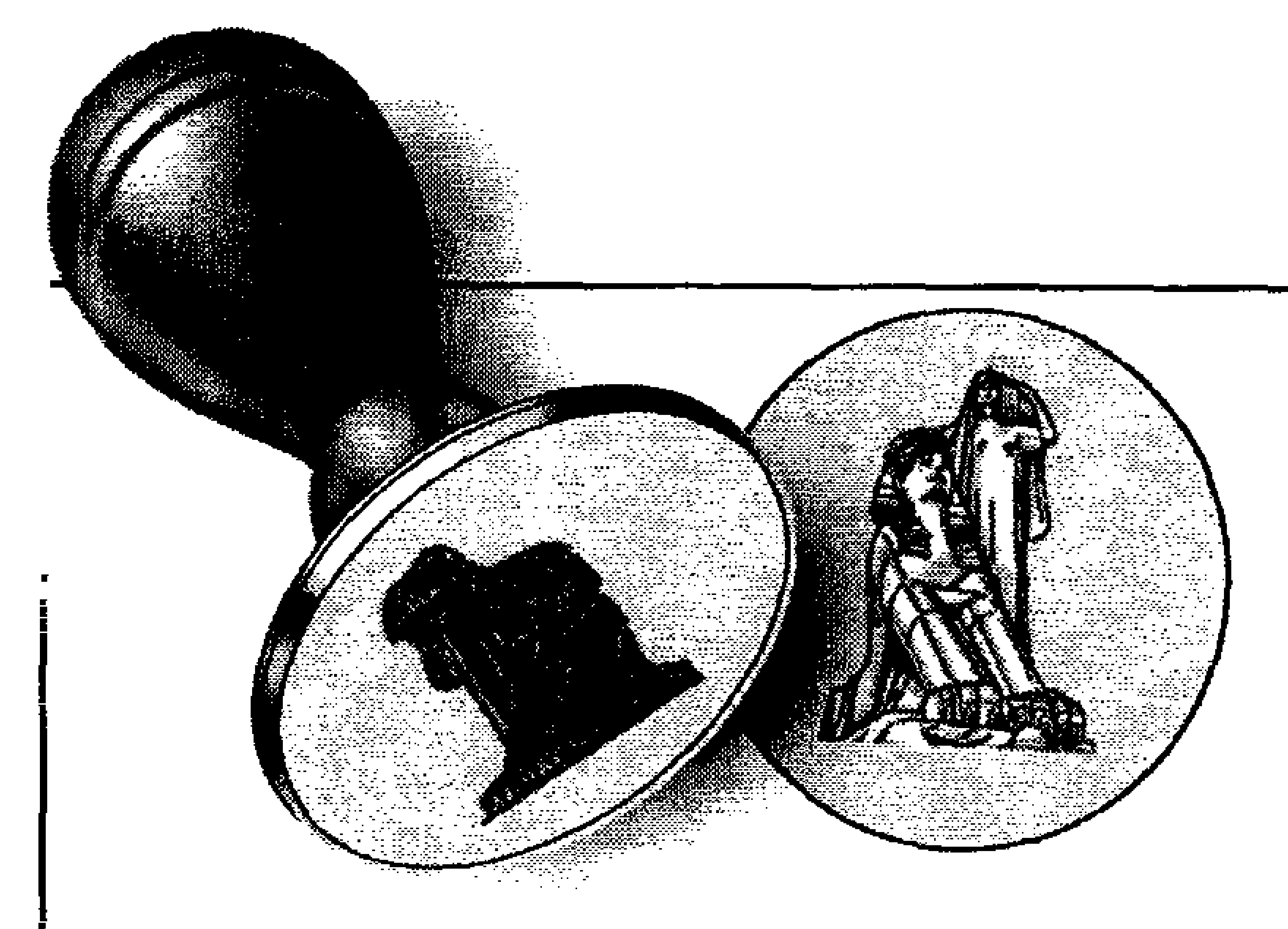

ملامح
القاهرة
فى ألف سنة
جمال الغيطانى
نهضة مصر

ملامح القاهرة في ألف سنة

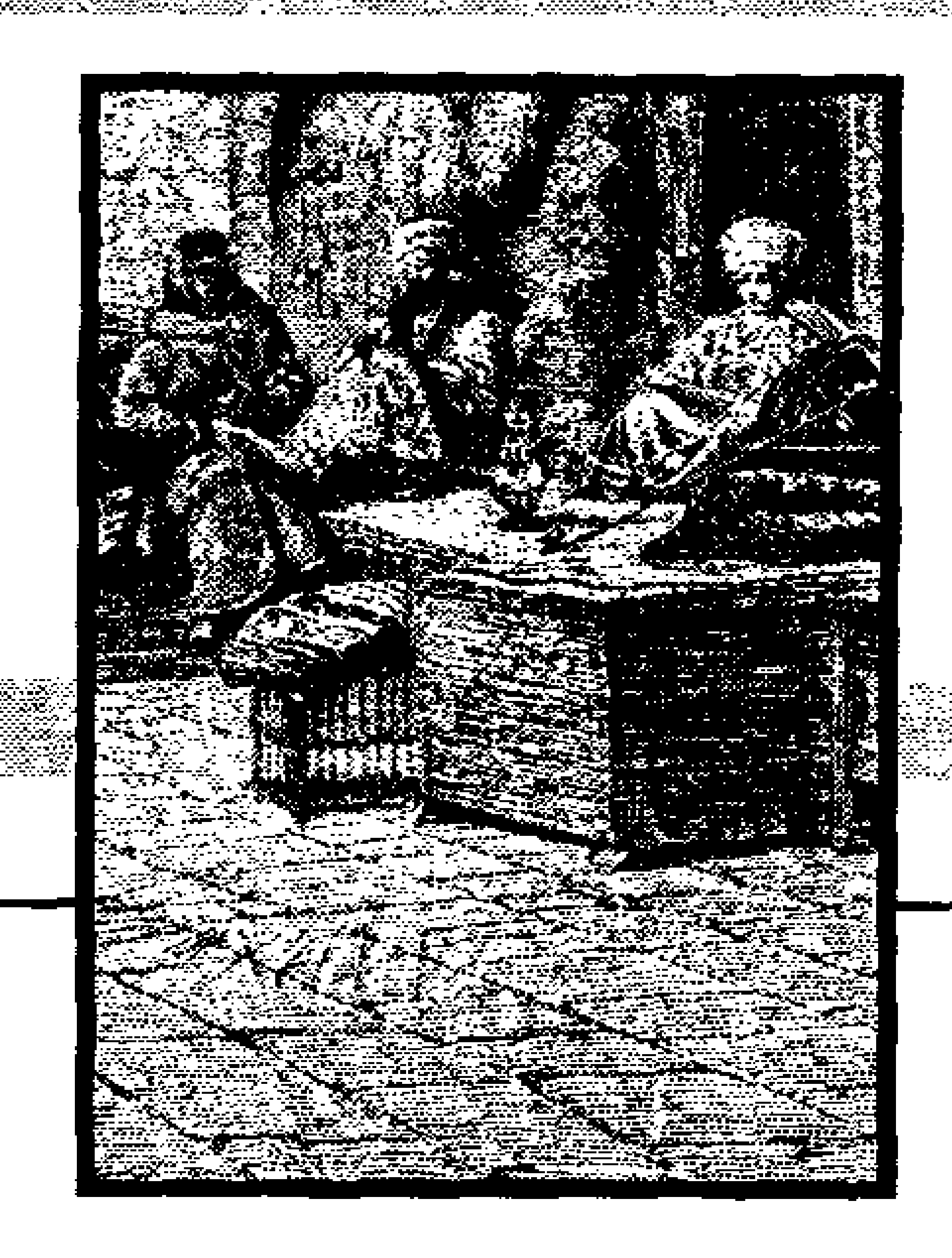


اسم الكتاب:	ملامح القاهرة فى ١٠٠٠ سنة .
اسم المؤلف:	جمال الغيطانى .
إشراف عام:	داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر:	طبعة أولى مارس ١٩٩٧م . طبعة ثانية فبراير ٢٠٠١م . منقحة ومزيدة
رقم الإيداع:	٣٢٩٥ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى:	I . S . B . N. 977 - 14 -1507-7
الناشر:	**نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .**
المركز الرئيسى:	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . **ت:** ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط) **فاكس:** ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع:	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة **ت:** ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ **فاكس:** ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ **ص.ب:** ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر:	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة **ت:** ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ **فاكس:** ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ **ص.ب:** ٢٠ إمبابة .

ملامح القاهرة فى ألف سنة







مقاهـى القاهـرة

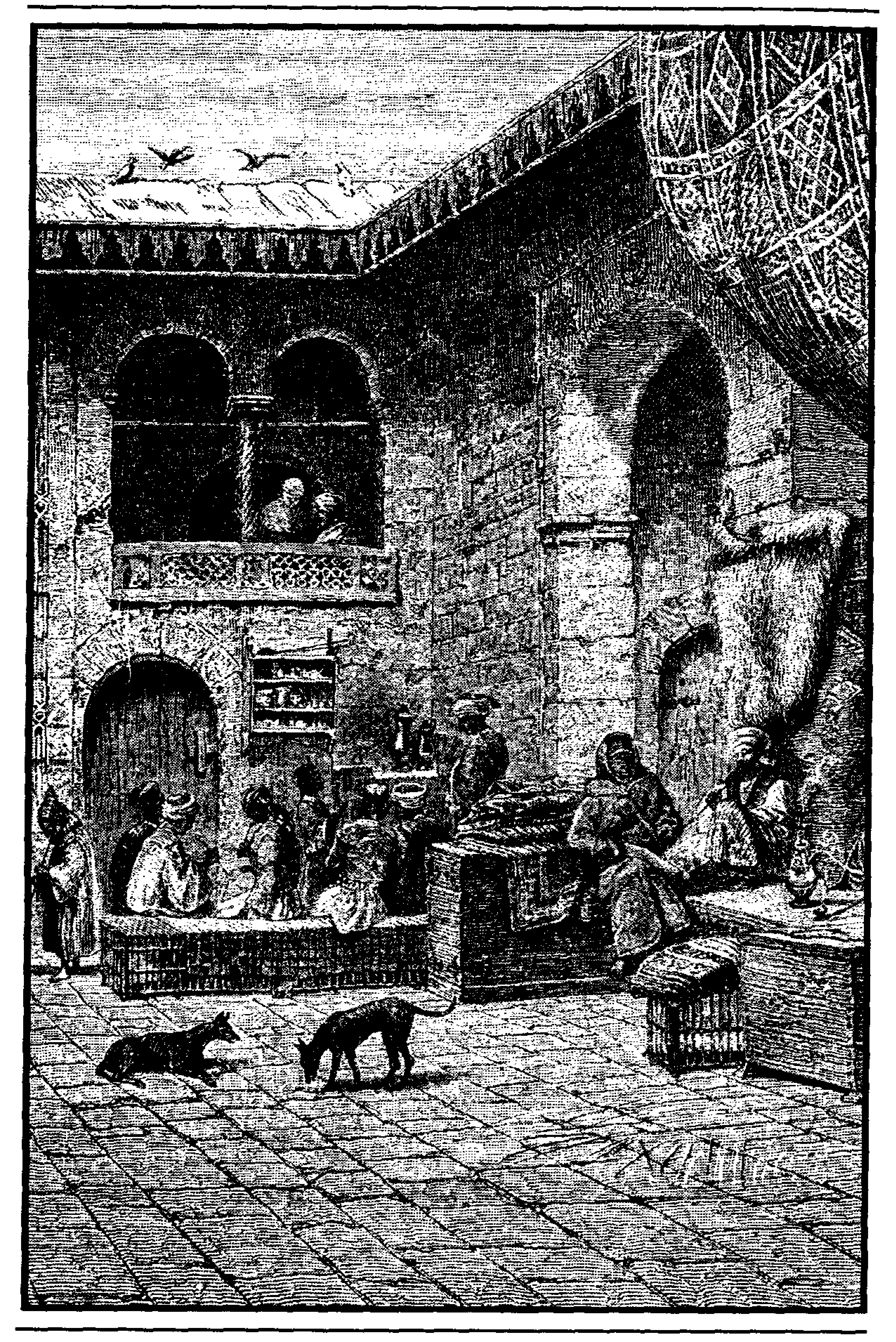
« . . . مقاهى القاهرة ، عالم فريد ، متشابك العناصر ، يحوى الملامح الإنسانية العامة ، وله أيضا سماته الخاصة جدا . فى مقاهى القاهرة يجلس الناس حول المناضد متواجهين ، يتبادلون النجوى ، والأحاديث والأشواق الإنسانية ، والمصالح المادية ، وقضاء الحاجات ، وعقد الصفقات ، وثمة من تلفه الوحدة ، يجلس محملقاً فى الفراغ ، وقد يحاول قهر وحدته بحديثه إلى جار لايعرفه ، وربما بدأت بينهما علاقة قوية قد تستمر عمرا ، وربما لم تعش أكثر من حدود اللقاء . . .» .

إلى أى عمق تاريخى ينأى عمر المقهى القاهرى؟ لايوجد مرجع تاريخى يحدد هذا ، ولم تخصص دراسة لرصد تضاريسٍ هذا العالم المتكامل ، ولكن الذى لاشك فيه أن المقهى كان جزءاً من الحياة القاهرية . منذ أن اتسعت القاهرة ولم تعد الحياة قاصرة فيها على الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم ، ولاشك أن المقهى كان موجوداً بشكل مختلف عما نعرفه الآن ، فالقهوة التى استمد منها المكان اسمه لم تدخل مصر إلا فى القرن السادس عشر الميلادى ، قيل أن أول من

اهتدى إليها هو أبو بكر بن عبد الله المعروف بالعيدروس ، كان يمر فى سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته ، فوجد فيه تجفيفاً للدماغ واجتلابا للسهر ، وتنشيطا للعبادة ، فاتخذه طعاما ، وشرابا ، وأرشد أتباعه إليه ، ثم وصل أبو بكر إلى مصر سنة ٩٠٥هـ ، وهكذا أدخل الصوفية شراب القهوة إلى مصر ، واختلف الناس حول هذا المشروب الجديد ، هل هو حرام أم حلال؟

حرم البعض القهوة لما رأوه فيها من الضرر ، وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة وفى سنة ١٠٣٧هـ زار القاهرة الرحالة المغربى أبوبكر العياشى ووصف مجالس شرب القهوة فى البيوت ، وفى الأماكن المخصصة لها .

فى مطلع القرن العاشر الهجرى حسمت مشكلة تحريم القهوة أو تحليلها ، وانتشرت فى القاهرة الأماكن التى تقدمها ، وأطلق عليها اسم المقاهى ، ويبدو لنا أن هذه الأماكن كانت موجودة من قبل ذلك بمئات السنين ، ولكن لم يطلق عليها اسم المقاهى لأن القهوة نفسها لم تكن دخلت إلى مصر ، كانت هذه الأماكن معدة لتناول المشروبات الأخرى كالحلبة ، والكركديه ، والقرفة ، والزنجبيل ، ولم يكن الدخان معروفاً أيضاً حتى القرن الحادى عشر الهجرى ويحدد الإسحاقى المؤرخ المعاصر ظهور الدخان فى سنة ١٠١٢هـ ، غير أن مشكلة الدخان كانت أكثر تعقيدا ، لقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه ، وكثيراً ماكان يطارد مدخنوه تماماً كما يطارد مدخنو الحشيش فى أيامنا هذه ويذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١١٥٦ ، أن الوالى العثمانى أصدر أوامره بمنع تعاطى الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين ، وأبواب البيوت ، ونزل معه الأغا ، ونادى بذلك ، وشدد بالإنكار والنكال بمن يفعل ذلك ، وكان كلما رأى شخصاً بيده آلة الدخان يعاقبه ، وربما أطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بما فيه من نار .



القرن التاسع عشر

ربما كـان أدق وصف وصل إلينا عن المقـاهى المصـرية ، مـاكـتـبـه المستـشـرق الإنجليـزى إدوارد وليم لين ، فى كـتـابه «المصريون المحدثون» ، يقول « لين» الذى زار القاهرة وعاش بها فى مطلع القرن التاسع عشر :«إن القاهرة بهـا أكـثـر من ألف مـقـهى ، والمقهى غرفـة صـغـيرة ذات واجـهـة خشبية على شكل عقود ، ويقوم على طول الواجهة ، ماعدا المدخل ، مصطبة من الحجر أو الآجر تفرش بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثة وعرضها كذلك تقريبا ، وفى داخل المقهى مقاعد متشابهة على جانبين أو ثلاثة ، ويرتاد المقهى أفراد الطبقة السفلى والتجار وتزدحم بهم عصرا ومساء ، وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ، ويحمل كل منهم شبكه الخاص وتبغه ، ويقدم «القهوجى» القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد ، أو عشرة فضة للبكرج الصغير الذى يسع ثلاثة فناجين أو أربعة ، ويحتفظ القهوجى أيضاً بعدد من آلات التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزة ، وتستعمل هذه الأخيرة فى تدخين التمباك والحشيش الذى يباع فى بعض المقاهى ، ويتردد الموسيقيون ، والمحدثون على بعض المقاهى ، فى الأعياد الدينية خاصة . .» .

وفى كتاب وصف مصر الذى أعدته الحملة الفرنسية جزء عن المقاهى فى زمن الحملة :«تضم مدينة القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق ، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة . وليست لهذه المبانى أية علاقة بالمبانى التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا إلا من حيث استهلاك البن على الرغم من أن هذا المشروب يعد ويشرب بطريقة مختلفة ، فليس فى هذه المبانى أثاثات على الإطلاق وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية ، فقط ثمة منصات «دكك » خشبية تشكل نوعاً من المقاعد

الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، أو أبسطة خشنة الذوق فى المقاهى الأكثر فخامة بالإضافة إلى بنك خشبى عادى بالغ البساطة .

ويبدو من وصف المقاهى هنا أنها تشبه إلى حد كبير بعض المقاهى الصغيرة التى لاتزال قائمة فى قرى الصعيد الجنوبى ، لم يكن نظام الجلوس إلى مناضد وفوق كراسى متبعاً ، ويبدو أن هذا النظام لم ينتشر إلا بعد إنشاء البارات المخصصة لتقديم الخمور ، ولكن لم ينتقل نظام الجلوس من المصطبة إلى استخدام المقاعد والمناضد مباشرة إنما مر بفترة كانت تستخدم فيها الدكك الخشبية العريضة ، ولايزال مقهى الفيشاوى القديم وبعض مقاهى القاهرة الفاطمية تحتفظ بدكك خشبية عريضة تتسع الواحدة منها لجلوس خمسة أو ستة أشخاص متجاورين ، ولاتزال إحدى الدكك الخشبية فى مقهى الفيشاوى تحمل تاريخ صناعتها فى سنة ١٩١٠ أى فى بداية هذا القرن ، ويكاد المقهى القاهرى يشبه فى ذلك الحين ، المقهى البغدادى الآن ، والذى يستخدم للجلوس فيها الدكك الخشبية ، غير أن الأدوات التى كانت مستخدمة فى مقاهى القاهرة عند بداية القرن التاسع عشر ، لم تتغير كثيرا حتى الآن .

أدوات المقهى

فى أى مقهى قاهرى يطالعنا رف عريض فوق «النصبة» أى المكان الذى يتم فيه إعداد المشروبات ، هذا الرف يحمل عدداً من النرجيلات ، وهى آلة التدخين ، وشكل النرجيلة لم يتغير كثيرا عما كان عليه منذ مائتى عام فى بداية القرن التاسع عشر ، كانت النرجيلة تتكون من عدة أجزاء ، أولها الجوزة الهندية (وقد حل مكانها الآن البرطمان الزجاجى) ويوضع فيها الماء ، ثم القلب النحاسى الذى يحمل الحجر المصنوع من الفخار ، ويوضع فوقه الدخان ، وفوقه جمرات الفحم ، وتتصل أنبوبة التدخين بقلب النرجيلة (الآن يسمى الأنبوب «اللى») ويوضع فى

مقدمته فم من الكهرمان ، لقد كانت صناعة النرجيلة فى بداية القرن التاسع عشر دقيقة ، ويوجد نماذج عديدة فى دكاكين التحف القديمة بخان الخليلى الآن ، كل منها كالتحفة الفنية ، بعضها صنع من الفضة ، والنحاس ، والزجاج الثمين ، ويوجد حاليا قسم بأكمله من شارع المعز لدين الله فى القاهرة يضم عددا من المتاجر تختص بأدوات المقاهى ولوازمها .

وفى بداية القرن التاسع عشر كانت القهوة تقدم فى «بكرج» موضوع على جمر فى وعاء من الفضة أو النحاس يسمى «عازقى» ويعلق هذا الوعاء فى ثلاثة سلاسل ويقدم الخادم القهوة ممسكاً أسفل الطرف بين الإبهام والسبابة ، وعندما يتناول الفنجان والطرف يستعمل كلتا يديه واضعًا شماله تحت يمينه ، وتستعمل مجمرة تسمى «منقدا» من النحاس المبيض بالقصدير ، ويحرق فيها البخور أحياناً ، وكانت القهوة يضاف إليها أحياناً الحبهان ، أو المصطكا ، أما الأغنياء فكانوا يضيفون إليها العنبر ، أما الآن ، فالقهوة تقدم فى كنكة من نحاس ثم تصب فى فناجين خزفية صغيرة ، وفى معظم المقاهى تقدم القهوة مجردة ، بدون إضافة أى شىء إليها ، ولكن هناك تاجر واحد للبن فى القاهرة الآن يقوم بخلط البن بالحبهان ومواد أخرى تضفى عليها مذاقا خاصا لطيفا ، ويعتبر هذه التركيبة من الأسرار ، ودكانه يقع فى إحدى حوارى الغورية بالقاهرة القديمة .

ومن أهم المشروبات فى المقاهى الآن «الشاى» ، وهو مشروب حديث ، لم يدخل مصر إلا فى القرن التاسع عشر ، وأثناء الجلوس بأى مقهى قاهرى ، تصل إلى الأسماع نداءات يطلقها الجرسون مناديا العامل الذى يقف وراء المنصة ، يبلغه بطلبات الزبائن ، ولكل مشروب اسم معين ، والشاى له أكثر من اسم :

- شاى بنور : أى شاى عادى فى كوب زجاجى .

- شاى ميزة : أى شاى مخلوط باللبن

- شاى بوستة : أى شاى غير مخلوط بالسكر ، إنما السكر فى إناء صغير مجاور له .

- شاى كشرى : أى توضع أوراق الشاى الجافة فى مياه مغلية مع السكر .

أما القهوة فيكتفى للنداء بالآتى :

- واحد سادة : أى بدون سكر .

- واحد مضبوط : أى متوسط المذاق .

- واحد زيادة : أى السكر أكثر قليلا .

كما تسمى القرفة «فانيليا» . والنرجيلة الصغيرة «حمًى» ، والنرجيلة التى تحمل كمية أكبر من الدخان الخالص «عجمى» ، أما الدخان المخلوط بالعسل «المعسل» فينادون عليه قائلين «واحد بورى» ، أو «المصرى » وبالفعل فهو شكل مصرى خالص من التدخين ، وإن كان يشبه دخان «الجراك» المعروف فى الهند وبعض بلدان الجزيرة العربية ، غير أن الجراك عبارة عن فواكه عطنة مخلوطة ببعض الزيوت ، أما المعسل ، فهو دخان «تمباك» مخلوط بالعسل الأسود .

أبو زيد.. والظاهر

حتى انتشار المذياع فى مصر ، كانت المقاهى أماكن مخصصة لرواية قصص السير الشعبية والملاحم ، وكان أصحاب المقاهى يستقدمون رواة القصص ، وبعضهم يعرف باسم «الهلالية» لتخصصهم فى سيرة أبو زيد الهلالى ، والبعض الآخر يعرف باسم «الظاهرية» نسبة إلى الظاهر بيبرس ، وقد ظهرت قصة الظاهر بيبرس فى القرن السادس عشر الميلادى ، وهى قصة طويلة تمتاز بخيال خصب ، ووقائع طريفة ، فضلاً

عن أنها تصور حياة المجتمع المصرى بدقة ، وظهرت قصص أخرى هى سيرة الأميرة ذات الهمة ، و«الدرة الملكة فى فتح مكة المبجلة» ، و«غزوة الإمام على مع اللعين الهضام ابن الحجاف» ، و«فتوح اليمن المعروفة برأس الغول» .

ونلاحظ أن قصة الظاهر بيبرس قد انتشرت وذاعت بعد الغزو العثمانى لمصر عام ١٥١٧ ، ويبدو أنها كانت كرد فعل على الهزيمة ، والجراح التى لحقت بالناس ، ونفس الظاهرة نلاحظها بالنسبة للملحمة «أبو زيد الهلالى» التى انتشرت بعد هزيمة الثورة العرابية ، والاحتلال الإنجليزى لمصر ، إنه رد فعل الشعب تجاه حدث أليم ، وشكل لحماية الذات بواسطة الفن .

كانت هناك قصص أخرى تروى بالمقاهى ، مثل قصة سيف ابن ذى يزن ، وألف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة العبسى ، وكان المنشدون يتخذون آلات الطرب كالربابة والعود ، وقد قضى الراديو على هذه الطائفة قضاء مبرما .

يمكن القول :إن العصر الذهبى لمقاهى القاهرة كان فى النصف الأول من هذا القرن ، خاصة فى العشرينات ، والثلاثينات ، وكانت القاهرة الجميلة ، الهادئة وقتئذ ، تزخر بالعديد من المقاهى ، منها مقهى نوبار والذى توجد مكانه الآن مقهى المالية ، وكان مجمعاً للفنانين ، وكان عبده الحامولى يقضى أمسياته فيه ، ومعه بعض أصحابه ، ومنهم باسيلى بك عريان الذى أفلس بعد أن أنفق نصف مليون من الجنيهات ، وأحيانا كان يضيق بزبائن المقهى فيطلب من صاحبه أن يخليه من الزبائن له ولأصدقائه فقط ، على أن يعوضه الخسارة .

وفى ميدان الأوبرا ، كان يوجد مقهى السنترال ، وموضعه الآن جزء من ملهى صفية حلمى فى ميدان الأوبرا ، وهذا الملهى يضم أيضا مقهى من طابقين حتى الآن ، ويعرف باسم كازينو الأوبرا ، وكانت تعقد به

ندوات أدبية لنجيب محفوظ كل يوم جمعة ، وعندما التقيت به لأول مرة كان ذلك فى ندوة الأوبرا الشهيرة هذه .

أما مقهى متاتيا فمكانه فى ميدان العتبة الخضراء ، وكان يؤمه جمال الدين الأفغانى ، والإمام محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى المحامى المشهور ، ثم ارتاده عباس العقاد ، وإبراهيم المازنى ، والشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة عكاظ التى تصدر فى القاهرة ، وفى ركن المقهى مطعم صغير للفول والطعمية كان رواد المقهى يجدون فيه حاجتهم من الطعام .

وعلى مقربة من الموسكى ، قهوة القزاز ، ومكانها الآن بعض المبانى القائمة عند الجانب الأيمن من الشارع بالقرب من العتبة ، وعامة زبائنها من أهل الريف ، الذين يجلسون فيها ويتأملون النساء القاهريات المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء ، أثناء اتجاههن لشراء حوائجهن من أكبر شوارع القاهرة التجارية فى ذلك الوقت ، شارع الموسكى ، وبالقرب من مقهى القزاز كان يوجد محل حلوانى اسمه اللبان ، وكان زبائنه من العسكريين القدامى ، والعجائز المتصابين ، بعضهم حارب مع عرابى وبعضهم شهد حرب الحبشة ، ومنهم من حضر فتح السودان ، كانوا يجلسون يتابعون المارة ، ويتبادلون الذكريات المستمدة من سنوات عمرهم البعيدة .

وفى شارع محمد على يوجد مقهى «التجارة» وهو من أقدم مقاهى القاهرة ، ويزيد عمره الآن عن مائة وعشرين سنة ، ولازال قائما حتى اليوم ، ومعظم رواده من الموسيقيين العاملين فى الفرق التى يطلق عليها ، فرق حسب الله ، وحسب الله هذا كان أحد الموسيقيين بجوقة الخديو إسماعيل ، وعندما خرج من الخدمة شكل أول فرقة للموسيقى تتقدم الجنازات والأفراح .

وفى نهاية شارع محمد على ، أمام دار الكتب ، مقهى الكتبخانة ، وكان من روادها حافظ إبراهيم ، والشاعر عبد المطلب ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وكان من رواد هذا المقهى أيضا الشيخ حسن الآلاتى ، وكان الشيخ يرتاد مقهى آخر بحى السيدة زينب ويطلق عليه اسم المضحكخانة ، ويشترط لدخول مجلسه وضع رسالة فى التنكيت والقفش ، حتى إذا حازت عنده قبولا ضم مقدمها إلى مجلس النادى ، وقد جمع الشيخ حسن الآلاتى كثيرا من نوادر المضحكخانة فى كتاب طبع فى نهاية القرن الماضى ، ويحمل نفس الاسم المضحكخانة .

وخلف دار الكتب كان يوجد مقهى بلدى صاحبه رجل عرف بهوايته لمصارعة الديوك ، وكان من رواده بعض الأثرياء الذين يشاهدون مايقدمه من عروض ، وفى شارع الصليبة القريب كان يوجد مقهى الأتراك ، ومعظم زبائنه من الباشبوزق الذين كانوا يؤجرون أنفسهم من بيت محمد على للحرب ، وفى شارع محمد على أيضا مقهى عكاشة ، وهذا المقهى أنشئ فى الأربعينات ، بناه أولاد عكاشة أصحاب الفرق المسرحية المشهورة ، وكان مقهى مزودا بأجهزة استماع للموسيقى ، يجلس الزبون إلى المنضدة ، ويضع السماعات إلى أذنيه ، ويطلب سماع أى اسطوانة يرغبها ، لقد أدرك الزمان هذا المقهى بخطواته الثقيلة ، فأصبح مجرد مقهى عادى به آثار من العز القديم .

وفى حى الحسين ، مقهى الفيشاوى الشهير ، وعمره الآن يتجاوز المائة عام ، كان يتكون من واجهة أنيقة ودهليز طويل حوله مقاصير صغيرة صفت فيها موائد رخامية ، ودكك خشبية ، وكانت شهيرة بالشاى الأخضر والأحمر الذى يقدم فى أكواب زجاجية صغيرة ، وفى شهر رمضان يكثر رواده من الفنانين والكتاب والناس العاديين وفى أيام الشهور العادية ، كان للمقهى سحره الخاص ، وداخله يخيم هدوء يمت إلى الأزمان البعيدة الجميلة تؤطره هذه التحف العربية المتناثرة فى

المكان ، وأمامه يجلس الحاج فهمى الفيشاوى يدخن باستمرار النرجيلة التى لاتنتهى أبدا ، وعلى بعد خطوات منه حصانه العربى الأصيل ، وفوقه أقفاص الحمام الذى كان مغرما بتربيته ، لقد صدر قرار بهدم المقهى بعد عام ١٩٦٧ ، ولم يستطع الحاج فهمى أن يواصل الحياة حتى يرى نهاية مقهاه ، فمات قبل أن يرتفع أول معول للهدم بأيام قليلة . ولحقه على الفور الحمام الذى كان يربيه . كان من أشهر رواد المقهى الأديب العربى نجيب محفوظ ، الذى كان يخلو إلى جوه الهادئ المعبق بالتاريخ يوميا أثناء عمله بمكتبة الغورى القريبة عندما كان يعمل فى وزارة الأوقاف . من الشخصيات التى ارتبطت بالمقهى أيضا عم إبراهيم ، كان رجلا قصيرا ، ضريرا يتاجر فى الكتب ، وكان سريع النكتة ، فى ليالى الثلاثينات يجلس إلى عدد كبير من الرواد ، ويبادلهم هذا الشكل الفكاهى من الحوار ، والمعروف فى مصر ، باسم «القافية» وكان يرد عليهم كلهم ويهزمهم ، لقد عرف مقهى الفيشاوى العديد من الشخصيات ، بعضها باق فى ذاكرة التاريخ ، والكثير منها رحل إلى دروب الصمت .

على مقربة من الفيشاوى كان هناك مقهى قديم وغريب ، يقع تحت الأرض ، واسمه مقهى سى عبده ، وكان دائرى الشكل ، يضم عدة مقصورات ، تتوسطها نافورة مياه ، وقد وصف نجيب محفوظ هذا المقهى فى روايته العظيمة ، الثلاثية ، حيث كان يلتقى كمال عبد الجواد بصديقه فؤاد الحمزاوى ، لقد اندثر هذا المقهى تماما ، ومكانه الآن بعض المبانى الحديثة .

ومن المقاهى الشهيرة فى القاهرة القديمة والباقية حتى الآن ، مقهى عرابى الذى يقع بميدان الجيش ، عند نهاية الحسنية ، وعرابى صاحبه كان أحد الفتوات المشهورين فى أوائل هذا القرن ، وقد بلغ من سطوته أن

مأمور قسم الظاهر لجأ إليه يوما يطلب حمايته لأن أحد الأجانب هدده ، وكان الأجانب يحاكمون أمام محكمة خاصة فى ذلك الوقت ، ومن رواد مقهى عرابى نجيب محفوظ ، حيث يلتقى بأصدقائه القدامى ، وزملاء طفولته ، وفى هذه الجلسة التى تتم كل يوم خميس تلعلع ضحكات الأديب الكبير ، ويبدو مرحا ، سريع النكتة ، ولا يطرق هذه الجلسة من الشبان إلا عدد محدود جدا عرف طريق المقهى الذى يستعيد فيه أديبنا الكبير ذكرياته وقصص شبابه مع رفاق الزمن القديم ، غير أنه انقطع عن الانتظام فى حضور هذه الندوة الأسبوعية منذ عامين ، والسبب ، أزمة المواصلات فى القاهرة التى تعوق أديبنا الكبير عن الوصول من بيته فى العجوزة إلى ميدان الجيش .

وفى مواجهة مسرح رمسيس «مسرح الريحانى» كانت تقع قهوة الفن ، وفيها البؤساء من الفنانين ، والكومبارس ، والنساء الضاحكات ، كانت هناك مارى منصور ، وزينب صدقى ، ودولت أبيض ، وأمينة رزق ، وعزيز عيد ، وفاطمة رشدى ، وأحمد علام نقيب الممثلين .

أما مقهى «ريش» الذى لايزال موجودا حتى الآن ، فكان من أشهر مقاهى القاهرة .

وحتى أربعينات هذا القرن يوجد عدد كبير من المقاهى فى روض الفرج ، مقاهى جدرانها من الخشب ، محاذية للنيل ، وفى كل منها عدد من فنانى شارع محمد على ، يعرضون فيها الغناء والمونولوج ، ومنهم حسين المليجى ، ونعمات المليجى ، ولهلوبة ، وزينب فلفل ، وغيرهم . .

ويوجد فى شارع محمد على مقهى للمنجدين ، وفى باب الشعرية مقهى لا يرتاده إلا عمال الأفران البلدية ، وبجوار سينما كايرو فى القاهرة مقهى يؤمه الخرس فقط الذين فقدوا نعمة النطق ، وأشهر مقاهى

النرجيلة فى القاهرة الآن ثلاثة : الندوة الثقافية بباب اللوق ، وأخرى تحمل نفس الاسم بمصر الجديدة ، ومقهى ثالث بشارع أحمد سعيد بالعباسية .

وإذا ما رحلنا إلى الخمسينات سنجد مقهى أنديانا فى الدقى ، وكان مقراً لندوة أدبية يومية محررها الناقد الراحل أنور المعداوى ، وكان من رواد هذه الندوة رجاء النقاش ، وسليمان فياض ، ومحمد أبو المعاطى أبو النجا .

والآن انحسرت الندوات الأدبية التى كانت تعقد فى المقاهى ، لم يكن متبقيا منها إلا ندوة نجيب محفوظ مع شباب الأدباء فى مقهى ريش ، كل يوم جمعة ، وحتى هذه الندوة توقفت منذ أن قرر صاحب المقهى إغلاقه يوم الجمعة من كل أسبوع .

بالقرب من مقهى ريش ، مقهى آخر يلتقى فيه عدد كبير من المثقفين والأدباء والصحفيين ولكن بشكل غير منتظم ، وهو مقهى «الندوة الثقافية» ، وهو مشهور بالنرجيلة ، ويوليها اهتماما خاصا ، فى نفس الوقت الذى لاتعنى فيه المقاهى الأخرى بهذا النوع من التدخين .

وحدة إنسانية

لقد ولى العصر الذهبى للمقهى ، ولكن هذا لايعنى تقلصها ، أو انحسارها ، صحيح أن المقاهى التى تفتح حديثا نادرة للغاية ، كما أن محلات تقديم المشروبات ووجبات الطعام السريعة تنتشر الآن ، ولكن لاتزال أكثر من خمسة آلاف مقهى فى القاهرة تعج بالزبائن والرواد ، كل مقهى منا يمثل وحدة سياسية ، واقتصادية واجتماعية ، وإنسانية ، فيه تصب كل العناصر التى يتشكل منها المجتمع ، الرأى العام للناس يتشكل فى المقهى ، وخلال الفترات التى ينتخب فيها أعضاء البرلمان

يكون المقهى هو المكان الذى تنطلق منه وتتركز فيه الدعاية ، ويطوف المرشح بمقاهى المنطقة ، يجلس إلى الرواد ويتحدث إليهم ويتودد إليهم وقد يدعو كل الجالسين لشرب الشاى أو القهوة .

ويرتبط المصريون بالمقهى ارتباطاً كبيراً ، ولكل منهم مقهاه المفضل الذى يقع عادة بالقرب من سكنه أو مقر عمله ، قال لى أحد العاملين بهيئة الأمم المتحدة أنه عندما ذهب إلى نيويورك فى أواخر الخمسينات شعر بفراغ غريب ، ثم أدرك بعد حين أن السبب افتقاده للمقهى ، والجلوس به ، وطاف بنيويورك حتى عثر على مقهى يونانى فيه طابع مقاهى حوض البحر المتوسط الذى يقترب إلى حد ما من المقهى العربى فى مصر .

ولدهشته فوجئ بوجود عدد من المصريين يرتادون المقهى ، وكان عدد المصريين فى نيويورك كلها وقتئذ لايتجاوز الثلاثين ، وفوجئ أنهم اتخذوا مقرين للجلوس ، المقر الأول المقهى ذلك اليونانى ويرتاده الصعايدة ، والمقهى الثانى قريب ويرتاده أبناء الوجه البحرى .

فى المقاهى يتخذ البعض مقراً ثابتاً لأعمالهم التجارية ، مثل السماسرة ، والمقاولين ، كما يطوف بها الباعة الجائلين يحملون بضاعتهم التى تتشكل من أقلام الحبر والنظارات ، والمحافظ الجلدية ، وسلاسل المفاتيح المعدنية ، وعندما يدرك التعب أحد هؤلاء الباعة يأوى إلى مقعد ملتمسا بعض الراحة ، وفوق ملامحه يبدو الشقاء والكد .

يرى البعض أن المقاهى أماكن يتبدد فيها الوقت ، وتعطل الإنتاج ، ولكننى إذ أركن إلى أحد مقاهى القاهرة القديمة ، أحاول تلمس معالم هذا الزمن الرائق الحلو الذى نفتقده الآن فى الضجيج والزحام ، وإيقاع الحياة السريع اللاهث ، إن المقهى نموذج مصغر لعالمنا يضج بكل ماتحتويه دنيانا . »



مقاهي نجيب محفوظ

للمقاهى فى حياة نجيب محفوظ شأن عظيم .

وعلى امتداد أكثر من ثلاثين عاماً ، منذ أن عرفته ، ولقاءاتى به فى المقاهى ، باستثناء أوقات قصيرة كنت أصحبه فيه خلال مشيه اليومى من منزله إلى مكتبه فى مبنى التليفزيون ، عندما كان يعمل مستشاراً لمؤسسة السينما ، مكان ذلك بين عام ألف وتسعمائة وأربعة وستين وعام ألف وتسعمائة وستة وستين ، وخلال جولاتنا فى القاهرة القديمة والتى تكررت فى السنوات العشر الأخيرة ، فيما عدا ذلك فكافة لقاءاتنا كانت بالمقاهى ، وأبدأ أولا بالمقاهى التى عرفته شخصياً فيها .

كان مقهى الأوبرا الأفرنجى الطابع أول مكان نلتقى فيه معاً . كان ذلك فى بداية الستينيات ، حيث اعتاد عقد ندوته الأسبوعية كل يوم جمعة من العاشرة صباحاً وحتى الواحدة ظهراً ، دخلت إلى هذه الندوة عام ألف وتسعمائة وستين ، وكانت مستمرة منذ عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ، ولو أن مناقشاتها دونت لكانت سجلاً أميناً لحية مصر الثقافية وتطورها ، كانت ندوة جادة ، يحضرها عدد كبير من الأدباء ،



وفيها تبلورت أول ملامح جيل الستينيات . ما زلت أذكر تلك الأيام ، عندما كنا نشارك فى النقاش ، ثم نخرج معاً قاصدين سور الأزبكية ولنواصل الجلوس بأحد المقاهى الشعبية .

فى عام ألف وتسعمائة واثنين وستين توقفت ندوة الأوبرا بعد أن تدخل الأمن وقتئذ ، وبعد عامين استأنف نجيب محفوظ الندوة فى نادى القصة لأسابيع قليلة ، ثم انتقل إلى مقهى سفنكس الذى كان يقع أمام سينما راديو ، ثم تحول المقهى إلى معرض للأحذية ، فانتقل إلى مقهى ديش ، وانتظمت الندوة إلى سنوات قريبة ، ، فجأة قرر صاحب المقهى أن تكون أجازته يوم الجمعة ، وبدأ فى إغلاقه !!

عندئذ انتقل الأستاذ إلى كازينو قصر النيل وما زال مستمراً حتى الآن ، طبعاً مع الزمن تغير الرواد ، واختلفت الموضوعات المطروحة للنقاش حتى أننى لأعجب أحياناً من صبره وقوته على التحمل ، وطول باله ، إنه يصغى طويلاً وقد يشارك فى النقاش بكلمات محدودة ، أو ينطق تعليقاً ساخراً تعلو بعده الضحكات ، ونجيب محفوظ من أسرع الخلق بديهة . . وقدرة على «القفشة» كما يقولون فى مصر .

فى السنوات الأخيرة عرف طريقه إلى مقاهى ملحقه بالفنادق ، بدأ ذلك بعد توقفه عن الكتابة تقريباً .

ظلت علاقتى بالأستاذ عبر الندوة الأسبوعية حتى منتصف الستينات عندما سمح لى بالتردد على مقهى عرابى فى العباسية ، وكان ذلك تطوراً فى علاقتى به ، فى مقهى عرابى كان يلتقى بأصدقاء الطفولة ، أولئك الذين ظل على علاقة بهم لم تنقطع قط حتى أدركتهم المنية واحداً بعد الآخر ، خصص لهم مساء الخميس من كل أسبوع ، فى

هذا المقهى رأيت جوانب جديدة من شخصيته ، كان يبدو على سجيته أكثر ، يستعيد معهم ذكريات الطفولة ، ويبدو أكثر مرحاً ، وأستطيع القول أن كثير من الشخصيات الحية التى عرفتها بهذا المقهى دخلت عالمه الروائى وعرفت الخلود .

فى مقهى عرابى شهدت مولد إحدى رواياته ، كان ذلك عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين ، عندما رأينا رجلاً أشيب الشعر ، جاحظ العينين ، غريب الحضور ، أصابع يديه نحيلة ، طويلة ، دخل بصحبة أحد أبناء المنطقة ، وأبدى الخادم اهتماماً خاصاً به ، ثم أحضر رقعة الشطرنج ورص الرجل القطع وبدأ اللعب ، مال الأستاذ علىّ متسائلاً عن شخصية القادم الجديد . من الواضح أنه لفت نظره بشكل ما .

سألت فقيل لى الاسم ، عدت إلى الأستاذ لأخبره أن هذا الرجل هو اللواء حمزة البسيونى المدير السابق للسجن الحربى الرهيب ، وأطال الأستاذ النظر ، فى تلك اللحظات ولدت رواية الكرنك الشهيرة . .

***

فى صيف ألف وتسعمائة وسبعة وستين طلب منى أن نلتقى فى مقهى الفيشاوى ، أحب المقاهى إلى قلبه ، والذى أمضى فيه ساعات طويلة خلال أيام شبابه ، كان يزوره يومياً ليدخن النرجيلة ، هذا الصديق الصامت كما يسميه . خاصة خلال فترة عمله فى قبة الغورى . كان من أصحابه القدامى فى الفيشاوى عم إبراهيم . . رجل قصير القامة ، ممتلئ قليلاً ، ضرير . . يبيع الكتب ، وكان مشهوراً فى الحسين بطول لسانه وظرفه . وقدرته الرهيبة على اتقان فن القافية . الوحيد الذى كان يهزمه . . هو نجيب محفوظ نفسه ، كان ذلك أيام الشباب .

ذهب عم إبراهيم إلى الأبد ، وكذلك مقهى الفيشاوى . . الذى لم يبق منه إلا جزءاً صغيراً .

ثمة مقهى آخر . . صغير جداً ، داخل سوق الحمزاوى ، تظلله تكعيبة عنب ، اعتاد الأستاذ التردد عليه بمفرده ، مقهى حزين ، معزول . موحى بالتأمل ، ما زال موجوداً ، وبقايا تكعيبة العنب ما تزال ممتدة .

حدثنى الأستاذ عن مقهى قديم لم أعرفه ، مقهى سى عبده الذى وصفه فى الثلاثية ، كان يقع تحت الأرض ، ثم أزيل عندما بنت الأميرة شويكار المنازل الحديثة فى خان الخليلى خلال الثلاثينات ذات الطلاء الوردى والتى وصفها الأستاذ بدقة فى روايته خان الخليلى .

فى الإسكندرية ارتبط بمقهى بترو ، كان يجلس فيه إلى جانب الراحل توفيق الحكيم ، والآن انتقل إلى عدة مقاهى أخرى ملحقة بفنادق تطل على البحر .

من المقاهى استوحى نجيب محفوظ شخصياته التى أبدعها فى عالمه ، ولم يكن مكاناً لقضاء الوقت ، إنما كان محوراً للصداقة ، وللعلاقات الحميمة ، والأنس والمودة . . هذا ما قاله لى الأستاذ يوماً ، وهذا الأسبوع وهو يتم عامه الثمانين ، طلب منى أن نمضى إلى الجمالية ، صحبته كما اعتدت ، حرصت على أن أتبع خطاه حتى لا أرهقه ، فالعملية الجراحية لم يمضى عليها بعد شهرين ، كان يتوقف أمام المقاهى التى اعتاد الجلوس فيها ويترقرق وجهه بمعان شتى .

ترى . . ما هى ؟ هذا ما لا نجد إجابة عليه إلا فى رواياته .

***

فى عام أربعة وتسعين وقع حادث مهول كان عند خروجه من البيت فى تمام الخامسة عصراً ، ليذهب إلى مقهى وكازينو قصر النيل تقدم منه شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، حصل على دبلوم صنايع ، ينتمى إلى تنظيم متطرف . وتظاهر بأنه يريد مصافحته ، وغرس سكينه فى عنق الشيخ الكبير ، التفاصيل معروفة ومؤلمة ، وقد قدر لى معايشتها منذ اللحظات الأولى للحادث ، وأظن أن أيام إقامته فى مستشفى الشرطة التى امتدت إلى شهرين من أصعب مراحل حياته .

لن أنس أبداً يوم خروجنا معه إلى فندق مينا هاوس فى الهرم ، أول خروج بعد الحادث . لكم خرجنا معاً لكن الوضع اختلف بعد الحادث . فالحركة لابد أن تتم فى ظروف معينة ، لابد من ملازمة الحراسة المشددة له ، عربة للشرطة أمامه وأخرى خلفه ، هو الذى عاش طوال عمره ضد هذه المظاهر . أما اللقاءات فيجب أن تتم فى أماكن مغلقة . لقد انتهى زمن المقاهى التى اعتدنا الجلوس فيها ، ولحسن الحظ أنه تكيف مع الظروف الجديدة ، الأصدقاء المقربين وزعوا أيام الأسبوع ، بحيث يتولى أحدهم صحبته يوماً محدوداً ، وكان من نصيبى يوم الثلاثاء ، حيث نلتقى فى سفينة نهرية راسية بالنيل ، خصص صاحبها غرفة مغلقة نجلس فيها إلى الأستاذ الروائى يوسف القعيد ، وصديق مقرب للاستاذ هو الأديب زكى سالم من رواد قصر النيل التى كانت ، وآخران هما عماد العبودى وحسن ناصر ، وكلاهما من رجال الأعمال ، وخلال هذه الجلسة نتحدث عن الوقائع والأحوال الراهنة ، ونقرأ للأستاذ نصوصاً أدبية بعد أن وهن نظره ولم يعد يمكنه القراءة ، ونَحِنّ دائماً إلى الزمن القديم ، الجميل .



مقهى المارشال على

يبهجنى ويثير عندى التوقع والرغبة الحميمة فى القُربى مرأى المقاهى لحظة الشروق ، ما قبلها أو بعدها ، بداية النهار ، إنها البداية ، حتى فى تلك المقاهى التى لا تغلق أبوابها على مدار الأربع وعشرين ساعة ، مقاهى عديدة الآن فى القاهرة تعمل بلا توقف ، وقبل ربع قرن من بدء الألفية الثالثة ، كان مقهى الفيشاوى العتيق الوحيد المصرح له بالسهر حتى الصباح ، لذلك كان يقصده أهل الليل من الممثلين ، والصحفيين ، والشعراء ، والمتقاعدين الذين ينتظرون أن يفتح مسجد سيدنا الحسين أبوابه لصلاة الفجر ، كان البشر من مختلف النوعيات والجنسيات ، العقلاء والمجاذيب ، يمرون به ، أو يمر بهم ، فالمكان هم وهم المكان .

فى بدايات النهار يتم كنس المقهى ، ورشه بالماء ، ونثر نشارة الخشب فوق أرضه حتى يسهل كنسه وإزالة الفضلات ، للمقهى والعاملين بها أصول وقواعد ، فكل شىء يجب أن يكون نظيفاً ، والمكان داع لا منفر أو طارد ، قبل تمام الشروق لابد أن تكون «العدة» جاهزة ، و«العدة» تشمل الأكواب الزجاجية ، والفناجين ، والملاعق ، والماء الساخن . وجمر الفحم



المتقد فى الراكية لزوم النرجيلات ، كذلك مواد المشروبات من شاى ، وقهوة ، وقرفة ، وحلبة ، وزنجبيل ، وكاكاو ، ولبن .

يتهيأ المقهى لاستقبال الزبائن منذ الصباح الباكر ، ما قبل الشروق ، تسرى الحركة بهدوء النهار فى أوله ، وكل شىء يجب أن يكون بعيداً عن الحدة نائياً عما يجلب الأزورار ، أو نوازع الشئوم .

تتشابه المقاهى فى المظاهر أو تختلف ، لكن مضمونها متقارب ، إنها مكان اللقاء بين الأصدقاء الذين لا تتسع بيوتهم لضجيجهم وصخبهم ، أو لقضاء الصفقات وإدارة الأعمال ، كثير من المقاولين وأصحاب الأعمال الصغار لا مكاتب لديهم أو مكان ، يجيئون فى الصباح لتوزيع الأعمال ، وعند المساء لمراجعة ما تم وترتيب الأحوال للغد الآتى ، فى المقاهى القريبة من دور المحاكم أو أقسام الشرطة . نلمح الكاتب العمومى ، صورة متبقية من الكاتب المصرى القديم ، إنه متخصص فى كتابة العرائض ، والشكاوى التى يجب أن تقدم فى صياغات معينة إلى مستويات الإدارة المختلفة ، الكاتب العمومى يمكن أن يكتب رسائل شخصية أيضا ، يمليها عليه أولئك الذين لا يتقنون القراءة والكتابة مقابل أجر معلوم ، يتخذ هؤلاء أماكنهم عند مقدمة المقهى .

زبائن الصباح الباكر معظمهم عابرين ، من الحرفيين و صغار الموظفين أو التجار ، هنا يكون المقهى بمثابة نقله ، محطة تتوسط المرحلة بين البيت ومقر العمل ، كل منهم جاء ليعمل «اصطباحة» مشتقة من كلمة الصبح ، أى يشرب كوباً من الشاى ، أو يرشف فنجان قهوة ، وربما يتناول إفطاره .

غير أن هنا فى المدينة القديمة مقاهى ليست للعبور . إنها محطة انطلاق للعمل ، أعداد كبيرة من العمال والحرفيين ، ليس لديهم عمل

منتظم ، إنهم بالتعبير الدارج «أرزقية» . يخرجون مع شروق كل يوم ، وهم يجهلون إذا كان سيعملون هذا اليوم أم لا ؟

المقهى مكان مناسب للانتظار ، ومع مضى السنين أصبح هناك تقسيم نوعى ، ومما يشبه التخصص ، جنوب المدينة ، أشهر مقهى للطباخين ، يقع ناحية زينهم ، فى الصباح الباكر نرى الطباخين ، معظمهم من النوبة ، يجيئ الزبائن ، بعضهم راجل والآخر راكب ، تبدأ المفاوضة حول الأصناف المطلوبة ، وزمن إعدادها ، والأجرة .

فى أول شارع محمد على الذى صممه على باشا مبارك فى القرن التاسع عشر على نمط شارع ريفولى الشهير فى باريس ، هنا يقع مقهى التجارة ، إنه واحد من أقدم مقاهى القاهرة ، رواده من الفنانين المتخصصين فى إحياء الأفراح ، بعضهم يعزف على الآلات الموسيقية ، وبعضهم يؤلف كلمات الأغانى ، وأخرين مطربين ، منهم من عرف طريقه إلى الإذاعة والسينما والتليفزيون وحقق شهرة ، مثل عبد العزيز محمود فى الأربعينيات والخمسينيات ، وقد رأيته مراراً فى المقهى ، فى ذروة مجده ، وبعد أن بدأ غروبه الفنى ، المطرب الآخر الذى خرج من شارع محمد على هو محرم فؤاد .

فى مقهى التجارة يعيش بعض الفنانين على حافة الحلم والواقع ، حدثنى أحدهم بثقة إنه لا يقل موهبة ولا علماً عن أشهر المطربين والموسيقيين ؛ لكن محمد عبد الوهاب يقف فى طريقه ، يستخدم نفوذه القوى ليعطل انطلاقته الكبرى .

الشروق فى مقهى التجارة يعنى الغروب ، معظم رواده يبدأ توافدهم آخر النهار ، إذ يسهرون طوال الليل فى الحفلات والأفراح ، وينامون مع ساعات النهار الأولى ، فى هذا المقهى عرفت أمهر من قابلت من لا عبى

الشطرنج ، كان متخصصاً فى إصلاح الآلات الموسيقية الوترية ، إما لعب الشطرنج فهوايته ، وكان له شهرة ويجيئ لاعبين مهرة لمنازلته من مسافات بعيدة ، وكان يتطلع إلى اللعب أمام كاسباروف الروسى مؤكداً قدرته على هزيمته ، إنه يعرف كل خططه .

قرب ميدان باب الشعرية مقهى فسيح من مقاهى القرن التاسع عشر ، ما زال على مراياه ملصقات إعلانية لأنواع من السجائر لم تعد متداولة ، هذا المقهى يقصده عمال الأفران ، المتخصصين فى خبز العيش والشطائر . على مقربة منه مقهى للمنجدين ، هذه المقاهى الخاصة بالحرفيين مراكز تجمع . ومنها يمكن العثور على العمال المهرة والاتفاق معهم على أداء مهمة محددة ، ومجرد انتماء العامل منهم إلى المقهى ، يعنى هذا درجة من الثقة والضمان .

للمخدرات مقاهى شهيرة فى منطقة الباطنية التى تعد مركزاً من مراكز تجارة المخدرات ، إنها منطقة وعرة ، دروبها ضيقة ، أزقتها كثيرة ، نواصيها بلا حصر ، مداخلها محدودة لذلك يسهل مراقبتها أمنياً . سواء من جانب صبية تجار المخدرات ، أو قوات الأمن التى تدس عملائها ، كانت الباطنية مركزاً لتجارة الحشيش ، المخدر الشعبى التقليدى منذ العصور الوسطى ، ولكن مع التغيرات الاقتصادية فى المجتمع المصرى خلال العقود الثلاثة الأخيرة وظهور فئات ثرية جداً استتبع ذلك ظهور أنواع جديدة من المخدرات ، بعضها أرخص وأردأ من الحشيش ، أى البانجو الذى يزرع فى سيناء ، وأنواع أخرى مدمرة ، مثل الكوكايين ، والذى يُعرف بالبودرة .

كما أن مقاهى المخدرات معروفة ، فكذلك مقاهى المثقفين فى وسط المدينة ، والتى كان مركزاً لنشاط التنظيمات اليسارية ، خاصة فى الستينيات ، وأشهرها مقهى ريش الذى شهد ميلاد حركات فنية وثقافية

مهمة ، وكا ن مركزاً لجلوس نجيب محفوظ ، ولهذا المقهى تاريخ ممتد ، كان يجتمع به أعضاء الجهاز السرى لثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الإنجليزى ، ومنه جرت محاولة اغتيال رئيس وزراء مصر فى العشرينيات يوسف وهبى القبطى والذى اختار الثوار شاباً قبطياً ليحاول اغتياله ، هو طالب الطب عريان سعد ، وقد عرفته بمقهى الفيشاوى فى الستينيات ، وكان من أمهر لاعبى اليوجا فى مصر ، عندما قابلته كان قد اعتزل العمل السياسى منذ زمن طويل . خلال الستينات اعتدت تدخين النرجيلة فى مقهى أنيق ، نظيف ، بميدان باب اللوق ، لا يقدم إلا النرجيلة وأنواع التمباك الجيدة ، إلى جانب المشروبات العادية ، لم يكن يسمح بلعب النرد ، أو الطاولة ، أو الشطرنج ، مثل معظم المقاهى التى تسمح لروادها بهذه الألعاب ، بل إنها القاعدة ، كان ذلك المقهى استثناء ، وكان يجلس به عدد من اللاجئين السياسيين ، أعضاء حركات التحرر فى أفريقيا والبلاد العربية ، بعضهم أصبح من كبار المسئولين فى بلادهم ، وأحدهم أصبح رئيساً للجمهورية (قحطان الشعبى رئيس جمهورية اليمن الجنوبية) . وزعماء جبهات تحرير أريتريا ، كان أعضاء الجبهتين المتنافسين يجلسون بعيداً عن بعضهم ، على نفس المقهى ، وكان المعلم حريصاً على الفصل بينهما حتى لا يقع احتكاك أو صدام مزعج .

فى ميدان التحرير ، كان مقهى إيزائيفتش . أحد المراكز المهمة لتجمعات المثقفين اليساريين فى الستينيات ، كان صاحبه خواجه من يوغسلافيا ، هرب إلى مصر بعد انتصار تيتو وقيام النظام الشيوعى . الطريف أن المباحث العامة كانت تغلق المقهى وتضع صاحبه تحت الرقابة كلما وفد جزيف تيتو فى زيارة إلى مصر ، وكانت تربطه علاقة قوية بالرئيس جمال عبد الناصر .

ترحل المقاهى بالبشر ، ويرحل البشر عبرها ، إنها مرافىء المدينة وزوايا أسرارها ، يعتبر القاهرى المقهى ركيزة مكانية لانتمائه ، فيقول «أنا رايح قهوتى» ، ويتحدث باعتزاز عن شلة المقهى وصحبه ، والمقهى بالنسبة له عصبة وملاذ أيضاً ، من أغرب المقاهى التى عرفتها ، مقهى الخرس ، يقع فى وسط المدينة ، مقهى فسيح ، جيد الإضاءة ، لا يقصده إلا الخرس ، كنت أدخل إليه فأخجل من النطق ، ذلك أن معظم رواده يتحدثون بالإشارة ، يجيئ كل منهم عبر مسافة بعيدة ليلتقى بالأخرين ، وكان أحدهم بديناً ، يجلس دائماً بمفرده ، غير أن الابتسامة لا تفارق ملامحه ، يتطلع إلى هذا ، ويرفع تحية لذاك ، إنه فى حالة تواصل وانقطاع مع الوجود المحيط به .

من أقدم الشخصيات المرتبطة عندى بالمقاهى ، المارشال على .

يعتبر ضريح ومسجد سيدنا الحسين المركز الروحى ليس للقاهرة فقط ، إنما لمصر كلها ، تحيطه المقاهى والفنادق الشعبية ، من المقاهى القديمة ، مقهى المجاذيب التى تقع شرق المسجد ، ومعظم روادها من الدراويش الذين هجروا أعمالهم ومقار إقاماتهم واستقروا بجوار الضريح القاهرى للحسين الشهيد أوزير ، كلاهما استشهد من أجل الحق .

عندما كنت طفلاً فى السابعة أو الثامنة ، أصحب والدى لزيارة سيدنا الحسين وأمر على مقهى المجاذيب ، عند الاقتراب منه تنتابنى رهبة ، فسوف أرى المارشال على .

كان رجلاً أبيض الوجه ، أحمر شعر اللحية ، مكحول العينين ، يرتدى حلة ضابط كبير بجيبين لا يمكن تحديد هويته ، على كتفيه رمانتين من الخيوط الحريرية وكأنه جنرال فى جيش نابليون بونابرت ، أما غطاء الرأس فيشبه الأغطية القوقازية .

كان صدره مسرحاً لنياشين قديمة ، بعضها مصرى أو عثمانى أو أوروبى ، وإلى جانب النياشين علامات تجارية لسجائر بطل إنتاجها ، ومشروبات من أول القرن ، وعلامات غامضة ، وكان يرتدى قفازات جلدية صيفاً وشتاءً ، يجلس فوق مقعد مرتفع وكأنه كرسى العرش .

كنت أهابه لكننى بعد دخولى المدرسة ، قدرتى على التجوال بصحبة زملائى بعد انتهاء اليوم الدراسى ، صرت أقترب منه معهم ، نقف على مسافة قريبة ونرفع أيدينا بالتحية العسكرية ، عندئذ يقوم واقفاً ، يرد تحيتنا بأخرى أحسن منها ، مارشالية ، وكأنه يستعرض قواته .

غير أن الموقف لا يستمر هكذا ، إذ سرعان ما يصيح أحد الصبية بكلمة بذيئة جداً موجهة إليه .

عندئذ يشهر سيفه ، ويزأر مهدداً ، وبالطبع ننطلق نجرى بأسرع ما فى وسعنا لكن المارشال على نيابة لم يغادر مكانه قط ، حتى عثروا عليه يوماً مغمض العينين مفارقاً الحياة فى جلسته التى لم أره فى غيرها ، حتى أننى لأعجب الآن ، أين كان يرقد ؟ أين كان يغفو ؟

ما زال البعض يذكرون المارشال على نيابة كطُرفة ، كإحدى الشخصيات الغريبة التى تعبر ميدان سيدنا الحسين ، أو تقيم به ، لكن . . هو ؟ من أين جاء ؟ لا يتوقف أحد للإجابة ، فما أكثر الذين عبروا القاهرة القديمة ، وكل عبور يعنى انقضاء ، أى موت ، أى عدم ، حتى وإن كان يعنى الوصول إلى مكان بعينه ، كتب عديدة وصلتنا عبر القرون الخمسة عشر ، تذكر سير شخصيات مرت بالقاهرة ، بدءاً من السلاطين والأمراء حتى الصناع والتجار والحرفيين والفنانين المجهولين الذين حفروا الحجر ، أو نقشوا الرخام ، أو كتبوا على الجدران ، لم يبق منهم إلا حضورهم الفنى الماثل فى تلك المبانى العتيقة ، طوابير لا تنتهى

تعبر المدينة ، تأخذ منها وتضيف إليها ، طوابير تجيئ من العدم وتمضى إلى العدم .

ماذا بقى من الحاج فهمى الفيشاوى ؟

مقهى يحمل اسمه . معظم رواده لا يعرفون صاحبه الأصلى ، يطالعون لوحة زيتية رسمت له عام أربعين ، أى قبل مجيئى إلى الدنيا بخمس سنوات ، غير أن ما بقى منه عندى «قعدته» عندما بدأت أتردد على المقهى بصحبة والدى فى مطلع الخمسينات ، كان الحاج فهمى الفيشاوى صاحب المقهى قد لزم مكانه عند المدخل ، فوق دكة خشبية عريضة تمكنه من النوم متمدداً إذا غفا ، وفى يقظته يتكئ إلى مجموعة من الوسائد ، يحدق إلى المارة وإلى زمنه القديم ، بينما النرجيلية لا تفارق يده ، نرجيلة رشيقة ، جميلة ، يفوح منها دخان التنباك الفاخر ، إلى يمينه يقف جواده العربى الأصيل ، كان يبذل عناية خاصة به ، يداعبه ، ويتبادل معه النجوى ، ويغسله بيده ، لكننى لم أره يمتطيه ، لم أشهده يركبه إلا فى الصور أو اللوحات المعلقة فوق جدران المقهى .

إلى الجدار عُلق قفص كبير به أنواع نادرة من الحمام ، كان يمضى أوقاتاً طويلة فى التطلع إليها ، وكأن حواراً صامتاً يجرى .

فى شتاء عام تسعة وستين من القرن الماضى ، أصدر محافظ القاهرة قراراً غبياً لإزالة المقهى الشهير ، ولم تنجح الحملة التى نظمها عدد كبير من المثقفين لوقف القرار ، وتحدد يوم معين لبدء الهدم .

قبل يومين من الموعد المقرر أغمض الحاج فهمى الفيشاوى عينيه ، أغمضهما إلى الأبد ، لم يتحمل رؤية المعول يرتفع ليهدم المقهى ، مقهاه ، مكانه أيامه ، عمره وحضوره ، غير أن الغريب ما جرى للحصان

وللحمام ، ما زال أهالى المنطقة وأبناء خان الخليلى الذين عاصروا تلك الأيام يذكرون ما جرى .

الحصان مات بعد رحيل صاحبه بساعات ، أما الحمام فامتنع عن الطعام والشراب ، حتى قُضى .

ولم يتبقى من المقهى إلا ركن صغير ما زال يحمل الاسم القديم ، الفيشاوى ، مجرد اسم ، ما زال قادراً على جذب الرواد ، ومعظمهم الآن من الشباب الذين لا يعرفون إلا اسم المكان ، ويجهلون ما كان عليه من مجد قديم .

من الذين عبروا بالمقهى وتردد سيرتهم أحياناً ، إبراهيم الضرير ، بائع الكتب ، كان قزماً ، قصيراً جداً ، ممتلئاً ، يحمل عدداً كبيراً من الكتب القديمة ، يمشى متمايلاً ، يقف ليصيح . .

«معنا الكتب الممنوعة . .» .

كان يقصد بالنداء ، الكتب الجنسية الممنوعة من التداول ، مثل الطبعات القديمة من ألف ليلة وليلة ، و «رجوع الشيخ إلى صباه» و«الفاكهة والاائتناس فى ذكر مغامرات أبو نواس» و «الروض العاطر» كانت هذه الكتب ممنوعة ، وضبط نسخة واحدة منها مع شخص قد تسبب مشاكل لا يمكن التنبؤ بمداها ، لكن إبراهيم الضرير اعتبر استثناء ، لا أحد يقربه ، ليس لأنه من معالم المكان ، إنما لأنه «بركة» هكذا يعتبر البعض فى القاهرة القديمة ، يتفاءل الناس به ، وإذا كان درويشاً ، هائماً يعتقد الناس فيه .



النرجيلة

« . . . . عرفت النرجيلة منذ خمسة عشر عاماً ، عرفتها كصديق صامت ، يأنس إليه الفؤاد عندما ينوء تحت وطأة الأحزان والأكدار ، صديق يساعد العقل على التركيز ، واقتناص شوارد الفكر من هنا وهناك ، بدون أن يفرض مطالب خاصة ، أو إزعاجات ، أو يمر بمراحل التقلب من حب وكره وبغض ، إذا ما تضاعفت الوحدة تبعث قرقرة المياه ونسة ، وتوحى الجمرات المتوهجة بحدود عالم سحرى مبهم ، عرفت النرجيلة فى آخر زمانها ، فلا شك أنها تذوى ، ويدهسها إيقاع العصر السريع ، وفى كل بلد ذهبت إليه كنت أبحث عن النرجيلة ، عرفتها فى مقهى هافانا بدمشق ، وفوق جبل قاسيون ، أرقب الأفق الأخضر البعيد من خلال صحبتها ، نرجيلة دمشقية أنيقة بزخارفها ، ودقة صناعتها أما النرجيلة البغدادية فى مقهى الأورفلى بشارع السعدون فهى غنية بالتمباك خشنة المظهر ، يشرف على تقديمها رجل عجوز ، يحيط خصره بفوطة حمراء . صامت دائماً وكأنه يؤدى طقوساً خاصة لايجوز الاطلاع على مكنونها . أما النرجيلة القاهرية فهى إنسانية فى مجتمعها ، لها مجتمع خاص يتجمع حوله الأصحاب ، أصحاب من نوع خاص يجمعهم هواية تدخين النرجيلة ، وبعد أن كانت تقدم فى أماكن

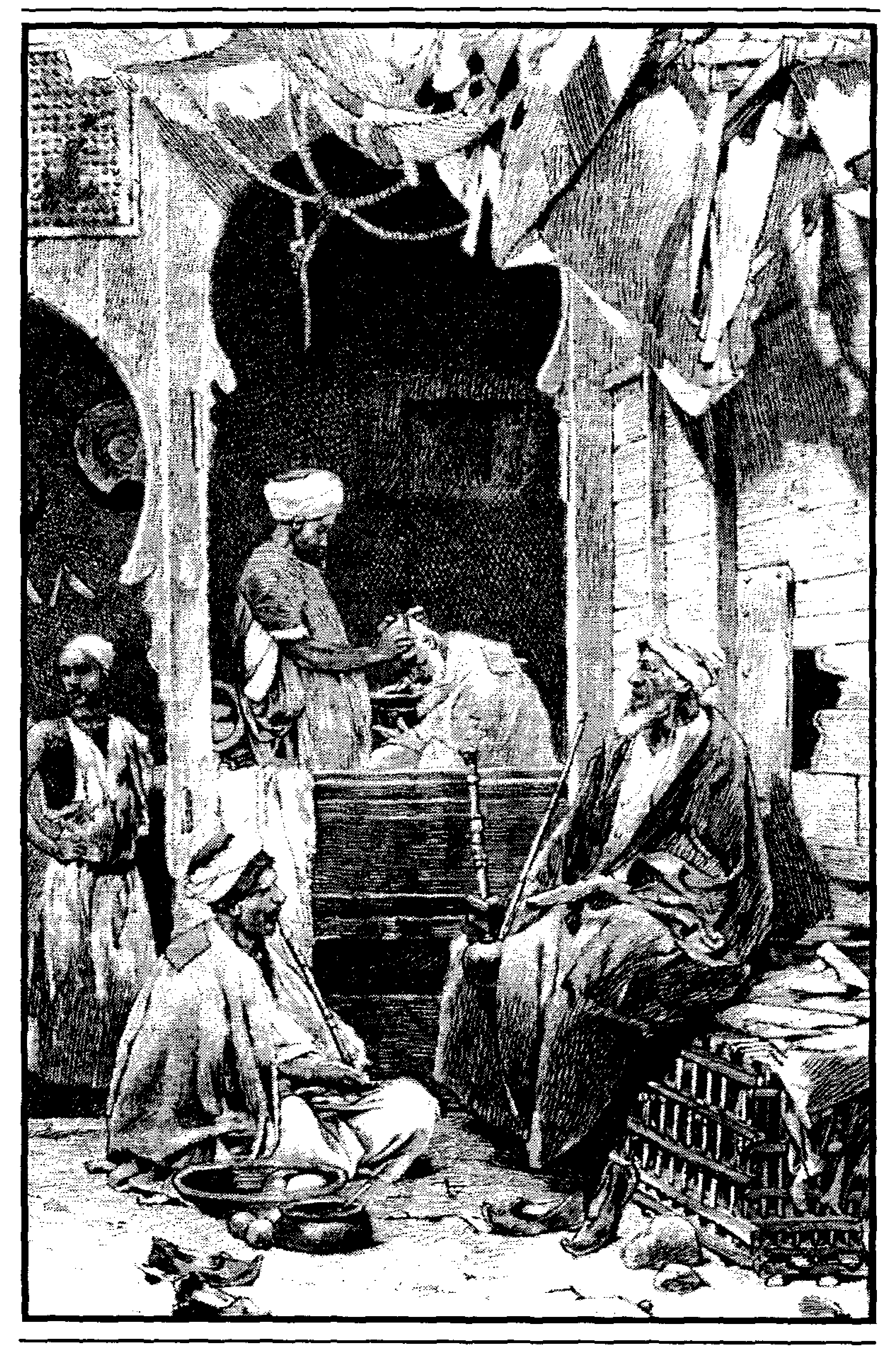
خاصة ، وفى أزهى الأشكال انزوت الآن فى مقاهى قليلة ، أما النرجيلة التركية فقد كادت تختفى ، ولاتقدم إلا فى عدد قليل من المقاهى . خشنة المظهر ، ذلت بعد عز كبقايا الإمبراطورية العثمانية ، يقبل عليها شباب الهيبز الأوربيين وكأنها أعجوبة ، ينفثون دخانها ويحملقون إلى مياه القرن الذهبى من موقع ذلك المقهى تحت كوبرى جلطة .

قد تختلف النرجيلة من هنا إلى هناك ، ولكنها بشكل عام آخذة فى الاضمحلال ، والزوال . مع زحف إيقاع العصر السريع ، على روح الشرف التأملية ولن يمضى زمن طويل حتى يولى عصر النرجيلة تماما . .

التبــغ

كانت البداية من أمريكا ، عندما رأى البحارة الأوربيون هنود القارة الجديدة يدخنون هذه المادة التى تبعث دوارا خفيفا ، التبغ ، ومنها انتقل إلى أوربا ، ثم إلى الشرق ، وظهر الدخان فى مصر سنة ١٠١٢هـ ، وأثار ظهوره خلافات حادة بين علماء المسلمين ، وتمسك معظمهم بتحريمه ، ولازال الوهابيون يحرمونه حتى الآن ، وكانت الأوامر تصدر بمنعه أحيانا ، فى حوادث سنة ١١٥٦هـ ، يذكر الجبرتى أن الوالى العثمانى أصدر أمراً بمنع التدخين ، ونزل معه الأغا ، وتابع بنفسه المنع ، حتى إنه كان يعاقب المدخن بإطعامه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بما فيه من النار ، لكن المتصوفة تعصبوا للدخان ، كما تعصبوا للقهوة والشيشة من قبل ، ونظم أبو الذهب البكرى قصيدة فى الدخان :

هات اسقنى التبغ إن نبع الصفا سحرا
حتى أضرر منه وهو إغشـــــــاء
واستجل أنوار شمع من
قد زانه قامة بالحسن هيفـــــــاء
لعل نار أسى بالبعد قد وقدت
يوما يكون لها بالقرب إطفـــــاء



ولم تكن لفائف التبغ معروفة وقتئذ ، إنما كان التدخين يتم بواسطة المشبك ، أو النرجيلة ، وكان المدخنون يحملون الشبك إما بين أيديهم ، أو مع الخادم خلفهم إذا كانوا أثرياء ، ويبلغ طول قصبة التدخين- كما يصفها إدوارد لين أربعة أقدام أو خمسة ، ويغطى بالحرير الذى تحد طرفيه سلوك ذهبية محبوكة بالحرير الملون ، او تحدهما ماسورتان من الفضة المذهبة ، ويتدلى من الغطاء الحريرى فى الحد الأسفل شرابة حريرية ، وكان هذا الغطاء يبلل بادئ الأمر بالماء فيبرد بالتبخر الشبك وبالتالى الدخان ، أما الحجر الذى يوضع فيه التبغ فهو من الآجر ولازال يصنع من نفس المادة حتى يومنا هذا ، وكان يوضع تحت الحجر صينية نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصير من النار ، أما «الفم» فيتكون من قطعتين أو أكثر من الكهرمان الفاتح اللون ، يصل مابينهما زخارف من الذهب المرصع بالمينا والحجر اليمانى واليشب والعقيق ، وخلاف ذلك من الأحجار الكريمة ، والفم أثمن جزء فى الشبك وقد يرصع بالماس . وكان الشبك يحتاج إلى تنظيف متواصل ، شأنه فى ذلك شأن البايب الآن ، لهذا كان كثير من الفقراء يعيشون على تنظيف الشبك ، ويبدو أن العائلات المسماه بالشبكشى كانت أصلاً تتاجر فى الشبك ، أو تقوم بتصنيعه ، وهناك سمة مشتركة بين الشبك والنرجيلة وهى طول قصبة التدخين وبعد الحجر عن المدخن ، ويبدو أن ذلك ناتج عن الطبيعة الحارة للبلاد الشرقية ، بعكس البايب الغربى ، الذى يحيطه المدخن بيديه فيسرى إليهما الدفء من الحرارة المنبعثة فى الخشب ، لقد انقرض الشبك الآن تماما ، وأصبح معلقا فى المتاحف على الجدران ، أو فى مراكز بيع الإنتاج الفولكلورى القديم ، خاصة فى بغداد ، حيث يضم المركز الفولكلورى أنواعا متعددة من الشبك ، ولاشك أن النرجيلة ماضية فى الطريق نفسه ، فبعض النرجيلات الثمينة ، المصنوعة من الزجاج

الملون ، والمرسوم عليها صور بعض سلاطين الأتراك أو الحكام العثمانيين . أو بعض المناظر الطبيعية ، إما نراها الآن فى المتاحف ، أو معروضة فى بيوت الأثرياء .

النرجيلة مشتقة من لفظ «النارجيل» الاسم الذى يطلق على ثمر جوز الهند ، يمكن القول أن ترجمته الحرفية تعنى «الجوزة» وهو الاسم الذى تعرف به النرجيلة الشعبية فى مصر ، لانها كانت مكونة فعلا من ثمرة جوز هند مفرغة ، وتثقب مرتين ، ثقب يوضع فوقه الحجر ، وثقب تنفذ من خلاله أنبوبة خشبية يتم من خلالها استنشاق الدخان الذى يمر خلال الماء الموضوع فى الجوزة نفسها ، وصف الرحالة والعالم الدانمركى كارستين نيبور «الجوزة» المصرية ، التى لم تتغير ملامحها حتى أوائل هذا القرن ، وعندما ارتفعت أسعار ثمار الجوز فاستبدل به كوز صفيح فارغ ، أو زجاجى ، وهذا أبسط الأشكال الشعبية للنرجيلة ، ويدخن بواسطته المعسل ، وهو الدخان الممزوج بالعسل ، ويعرف فى المقاهى المصرية باسم «البورى» أو «المصرى» ، يقول كارستين نيبور : إن العامة يدخنون الجوزة للتدفئة أيضا ، ولكن النرجيلة الأنيقة التى تستبدل فيها الجوزة ببرطمان زجاجى فان كارستين نيبور يطلق عليها « النرجيلة الفارسية» ، ويقول : إن أثرياء فارس يتخذون هذه النرجيلة وكثيرا ماتكون مصنوعة من الفضة أو النحاس ، وتوجد فى خان الخليلى الآن نرجيلات من النحاس المنقوش ، يمكن أن يدخن منها عدة أشخاص فى وقت واحد ، عن طريق عدة ليات تخرج منها ، ومثل هذه النرجيلات تستخدم فى بعض بلدان الجزيرة العربية خاصة اليمن والسعودية ، ويقول نيبور : إن شيراز كانت مشهورة بصناعة النرجيلات الزجاجية الأنيقة ، وأحيانا كانت توضع فيها زهور مختلفة الألوان مثبتة من الداخل ، والنرجيلات الفارسية كانت منتشرة فى الهند أيضا حتى القرن الماضى ، غير أن إدوارد لين يقدم إلينا وصفا أدق للنرجيلة فى مصر .

الشيشة كلمة فارسية تعنى زجاج ، وهو الاسم الذى تعرف به النرجيلة الآن فى مصر ، وهذا الاسم نتيجة للوعاء الزجاجى الذى يملأ بالماء إلى قدر معين ليمر الدخان من خلاله ، ويقول إدوارد لين : إن التدخين يتم من خلال أنبوبة طويلة لينة «تسمى لى» .

ويغسل التمباك عدة مرات بالماء ، ثم يقطع ويوضع فى حجر الشبك وهو رطب ، ويوضع عليه جمرتان أو ثلاث ، ويقول لين : إن للتمباك عطرا لطيفا مقبولا ، لكن شدة استنشاق الدخان فى هذا النوع من التدخين يضر الرئة الضعيفة . إن الوصف الذى كتبه إدوارد لين منذ حوالى مائة وخمسين عاما لم يتغير كثيرا حتى الآن ، ولكن الذى تغير هو شكل النرجيلة ، ونوعية الدخان ، حتى الخمسينات كان هناك أنواع متعددة من التمباك ، عجمى ، ولاذقانى (نسبة إلى اللاذقية) وأزميرلى ، وهندى ، ويمنى ، وعدنى ، ولكن الآن تنقسم الشيشة فى مصر إلى نوعين رئيسيين ، عجمى وهو نوع خاص من الدخان مصدره إيران أو تركيا ، ويوضع بكمية أكبر فوق الحجر ويلف بورقة تمباك صحيحة لم تقطع بعد أن تبل بالماء . وتشبه الشيشة العجمى مثيلاتها فى دمشق وبغداد واستامبول ، لكن نوعية التمباك الذى يصل إلى مقاهى القاهرة أردأ ، ولهذا فإن النرجيلة العجمى يعتبر دخانها قاسيا ويحتاج إلى صدر قوى لتحمله ، أما النوع الثانى فهو الشيشة «الحمى» ، وكمية الدخان فى الحجر هنا أقل ، ونوعية الدخان أهدأ ، وهذا هو النوع الأكثر انتشارا الآن .

وأشهر مقهى فى القاهرة لتدخين النرجيلة الآن مقهى الندوة الثقافية فى ميدان باب اللوق ، وكان صاحبه محمد حسنين يمتلك مقهى بناه فى سنة ١٩٢٠ بشارع منصور بالقرب من مكان الغرفة التجارية الآن ، ثم هدم المقهى عام ١٩٥٩ ، وانتقل أبناؤه رشاد وجلال وعلى إلى هذا المقهى

القائم حتى الآن ، والذى يؤمه عدد كبير من الكتاب والفنانيين من هواة تدخين النرجيلة ، لكن حتى منتصف القرن كانت هناك أماكن متعددة ، مشهورة لتدخين النرجيلة أهمها مقهى الأوبرا ، أو كما كان يعرف فى الثلاثينات والأربعينات باسم كازينو بديعة نسبة لصاحبته بديعة مصابنى ، كانت تقدم فيه النرجيلات للزبائن ، كل زبون له «لى» خاص به مكتوب فوقه اسمه ، لايدخن به شخص آخر ، وكان الحجر يقدم محفوفا بالزهور ، وفى الماء توضع ثمرات من الكرز ، وكان يجلس بالمقهى عدد من كبار رجال السياسة ، والاقتصاد ، والأدباء ، وأهمهم نجيب محفوظ المدخن العريق للنرجيلة ، وكان منظرا مألوفاً أن ترى السيدات المحجبات يجلسن بهذا المقهى ينفثن دخان النرجيلات بوقار ، بينما تمر بديعة مصابنى بنفسها تتأكد من وفرة الجمر ، وإراحة الزبائن ، كانت هناك مقاهى أخرى مشهورة بالنرجيلة ، مثل مقهى عرابى فى ميدان الجيش ، ومقهى الفيشاوى فى الحسين ، والذى كان يجلس أمامه المرحوم فهمى الفيشاوى لايفارق الفم فمه ليلا ولانهارا ، كان ذلك بعد أن فارق الشباب وهجر الفتونة والشقاوة ، وكان هناك مقهى نوبار الذى كان يغنى فيه عبده الحامولى ويرتاده خليل مطران ، وسليم سركيس الصحفى ، ومقهى الكتبخانة أمام دار الكتب ، وكان يقدم الشيشة لحافظ إبراهيم الشاعر ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وغيرهما ، وكان هناك مقهى الشيشة فى شارع الجمهورية ، ومكانه الآن دكان للتجارة ، وكان يجتمع فيه هواة التدخين ، وهواة المصارعة بالكلاب ، أما مدينة الإسكندرية فتزدحم حتى الآن بعدد من المقاهى المشهورة بتقديم النرجيلة ، مثل مقهى التجارة ، ومقهى جابر بالمنشية ، ومقهى فاروق بحى بحرى ، ومقهى وادى النيل بالرمل .

وتصنع النرجيلات فى منطقة القاهرة القديمة ، وتوجد عدة متاجر متجاورة بشارع بين القصرين تبيع النرجيلات ، وأدوات التدخين من حجر وليات ، وغيرهما ، ويبلغ ثمن النرجيلة المصنوع قلبها من النحاس ، وهو الجزء الذى يصل بين البرطمان الزجاجى والحجر ، حوالى خمسة عشر جنيها ، أما النرجيلة المصنوعة من النحاس الخالص المنقوش والتى تباع فى متاجر التحف بخان الخليلى ، فيبلغ ثمنها عدة مئات من الجنيهات ، وأذكر قسما خاص بالنرجيلات يحتل أحد فروع سوق الحميدية بدمشق بالقرب من المسجد الأموى .

وفى الثلاثينات كان متوسط سعر النرجيلة من التبغ عشرة مليمات فى مقاهى القاهرة ، وفى الأربعينات كان ثلاثة قروش أى ثلاثين مليما ، وخضع سعر النرجيلة للتطور ككل شىء الآن فى القاهرة حتى بلغ سعر النرجيلة الحمى عشرة قروش ، والعجمى تصل إلى أربعين قرشا أما الكيلو من التبغ الخاص بالنرجيلة فثمنه ثلاثين جنيها ، وكان فى أوائل الخمسينات بثلاثة جنيهات ، فى دمشق تستطيع أن تدفع نصف ليرة سورية مقابل تدخين نرجيلة فاخرة ، كذلك فى بيروت ، أما فى بغداد فثلاثين فلسا ، وفى استامبول يبلغ قيمة النرجيلة لحجر واحد مايوازى نصف جنيه مصرى .

على أية حال ، فالنرجيلة ماضية فى طريق الانقراض ، ولن تمر سنوات طويلة قبل أن توضع فى المتاحف ، وإننى لأرثى لهؤلاء الذين سيأتون فى الأزمان المقبلة ، فلن يجدوا صديقا صامتا ، مستجيبا يلجأون إليه إذا ما ازداد الكرب ، واعتم الواقع ، وادلهمت الظروف ، وبدت الأيام رمادية مثقلة بكل باعث للضيق ، والكتمة ، نحن نلجأ إلى النرجيلة ، ولكن هم .... إلى من سيلجأون ؟؟

العمامة المملوكية

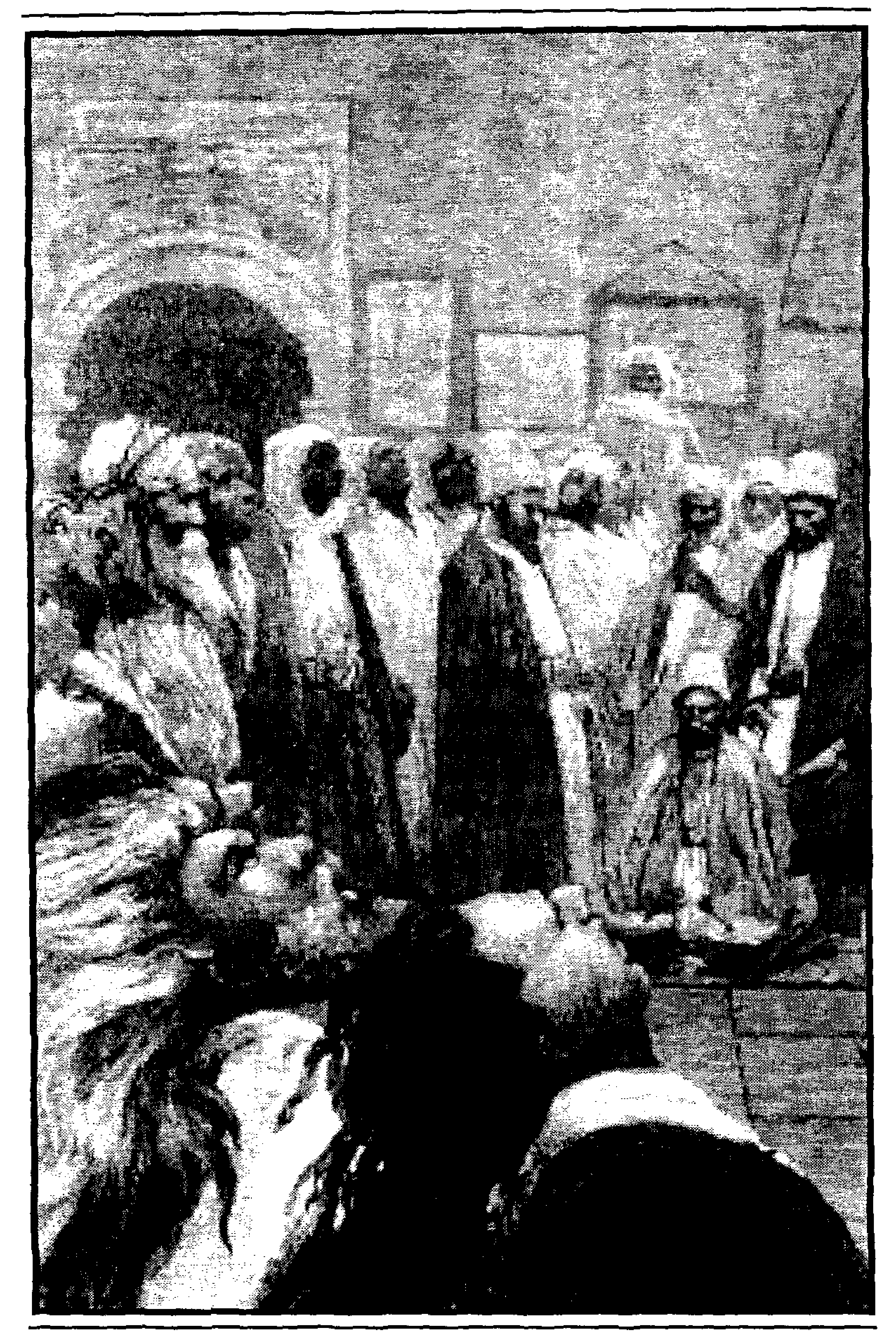
« . . . . . للعمامة مكانة فى التاريخ ، بل مكانة هامة جدا ، ويبدو ذلك واضحا فى العصر المملوكى ، فحجم العمامة ، ولونها ، وطريقة تفصيلها توضح المكانة ، والفئة ، والطبقة ، والمهنة ، والدين ، ولاعجب ، ألا تحتل أعلى جزء فى جسم الإنسان؟ الرأس ، ومايلحق ذلك من مهابة ، ومكانة ، وطلعة ، وللعمامة تاريخ أبعد بكثير من العصر المملوكى ، كان سعيد ابن العاص بن أمية يتميز بين العرب القدامى بجمال عمامته ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعتم بعمامة كانت معروفة باسم السحاب ، وقد أورثها ، أو تنازل عنها لعلى ، ولعل ابن جبر فى كلامه عن «عمامة شرب رقيق سحابى اللون قد علا كعبتها على رأسه كأنها سحابة مركومة وهى مصفحة بالذهب» . قد أشار إلى هذه العمامة البيضاء للرسول ، وذلك أثناء حديثه عن أمير مكة .

يقول رينهارت دوزى فى «المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب» : إن لهذه الكلمة مدلولان ، الأول يشير إلى العمامة بقضها

وقضيضها ، الكلوتة وقطعة القماش المحيطة بها ، أما المدلول الثانى فيعالج قطعة القماش وحدها ، وهى التى تلف عدة لفات حول الطاقية «الكلوتة» غير أننا هنا سنعالج العمامة فى منظرها الكلى ، وفى عصر محدد هو العصر المملوكى أزهى عصور العمامة ، خاصة فى فترات ازدهاره ، إذ نلاحظ أنه فى فترات الرواج الاقتصادى كان ذلك ينعكس على العمامة من حيث المضمون والشكل ، الدندشة والأبهة ، وفى فترات القحط يتضاءل الحجم ، وتقل نوعية القماش ، ولأن العمامة المملوكية مقسمة إلى أقسام ، فلابد من معالجتها كذلك ، إذن ، من أين البداية؟ من أعلى المناصب ، من عمامة السلطان نفسه . .

العمامة السلطانية

لانستطيع أن نتخيل سلطانا مملوكيا بدون عمامة ، إنهم يطلون علينا جميعا من أيام التاريخ البعيدة وفوق رءوسهم عمائم متنوعة الأشكال والألوان ، لكن المهم ، أننا دائما فى مواجهة عمامة سلطانية فخمة ، صغرت أو كبرت ، إن العمامة باختصار هى شعار السلطنة الرسمى ، وأول شىء يرتديه السلطان عند تنصيبه ، عمامة سوداء ، واللون هنا هو شعار الولاء للخلافة العباسية ، وعندما أرسل الخليفة العباسى ملابس التتويج إلى الظاهر بيبرس كان أهم قطعة فيها هى العمامة السوداء المنسوجة بخيوط الذهب ، ونلاحظ أن السلطان كان يرتدى فى حفلات التتويج زى رجل دين ، وكان رجال الدين يرتدون أضخم العمائم حجما ولذلك حديث لاحق ، وعندما يخرج السلطان فى موكب كان يرتدى عمامة صغيرة . اسمها «تخفيفة» ، ويهتم ابن إياس بوصف هذه التخفيفة التى اشتق اسمها من فعل «خف» ، وكانت التخفيفة من الملابس الخاصة بالسلطان ، أو الأمراء وحدث أن قاضيا أرغم على حضور حفل ساهر عند أحد الأمراء ، ويذكر المؤرخون أنه تجرد من ملابسه ،



وهذا التجرد يعنى أنه خلع عمامته الكبيرة ، وارتدى تخفيفة ، عمامة صغيرة لاتليق بمكانته كرجل دين ، غير أن التخفيفة السلطانية كانت تنقسم الى قسمين : تخفيفة صغرى ، وتخفيفة كبيرة ، كان السلطان يرتديها فى المناسبات فقط ، أطلق عليها الناس اسم «الناعورة» ، ومن أوصاف ابن إياس لها نلاحظ تطابقها مع شكل الساقية السورية المعروف بهذا الاسم ، حيث نجدها مسننة كترس الآلة ، وعندما يلبس السلطان التخفيفة الكبيرة فإنها مناسبة كبرى ، يفرد لها ابن إياس سطورا عديدة ، يقول صاحب بدائع الزهور :

«وفى يوم الإثنين رابعه طلعت الأمراء إلى القلعة على العادة . فخرج لهم السلطان من الدهيشة وهو ماشى على أقدامه وقد لبس التخفيفة الكبيرة المسماة بالناعورة ، وهى الآن فى مقام التاج لملوك مصر من حين تولوا بها الأتراك ، وكانت التيجان يلبسونها ملوك الفرس من الأكاسرة ، فصارت التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال لسلاطين مصر هى التاج لهم ، كما كان التاج لملوك الفرس ، وقد جاء فى بعض الأخبار أن العمائم تيجان العرب ، وكان السلطان له نحوا من أربعة أشهر لم يلبس هذه التخفيفة الكبيرة ولاجلس على المصطبة التى يحكم عليها بالحوش ، فلما خرج فمشى وجلس على المصطبة ، فباس له الأمراء الأرض ، وهنوه بلبس التخفيفة الكبيرة . .» .

واعتاد السلطان الغورى لبس تخفيفة صغيرة ، بل إنه يظهر بها فى أحد المواكب ، فى صفر من عام ٩٢٠هـ ، ويبدو أنه كان هناك نوع مدور من التخافيف الصغيرة ، ويبدو الغورى بإحداها عند عودته من الإسكندرية فى الخامس عشر من شهر ذى الحجة عام ٩٢٠هـ (٣١يناير ١٥١٧) ، ولم يكن ذلك يثير الاستياء فى عصر الغورى ، بعكس ماكان عليه الأمر قبل ذلك ، فى سنة ٩٠٧هـ (١٥٠١ ميلادية) حضر السلطان

محمد بن قايتباى صلاة الجمعة وهو يرتدى (تخفيفة صغيرة) فأثار استياء الأمراء كلهم ، وكان السلطان يلبس العمامة الكبيرة فقط ، ولايسمح لأحد غيره بارتدائها ، وفى لحظة نادرة كان السلطان يشعر بالرضا على أحد رجاله ، عندئذ يهديه عمامة كبيرة ، يقول ابن إياس :

«وفيه أنعم السلطان على أركاس من طراباى الذى كان نائب الشام ، وحضر إلى القاهرة بتقدمة ألف وجعل له مرتبا على الأخيرة من غير إقطاع ، ورتب فى كل شهر له ألف دينار وفى كل سنة ألفى أردب قمح ، ورسم له بأن يقف فى المواكب فوق الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وأحضر له تخفيفة من تخافيفه التى بالقرون الطوال فألبسها له . وقلع من عليه وألبسه له ، فحصل له فى ذلك اليوم غاية الجبر من السلطان » (١)

من ناحية أخرى كانت العمامة تتغير مع الفصول ، فعند بداية الصيف بين الحادى عشر والسادس والعشرين من مايو يرتدى السلطان عمامة بيضاء اللون ، ومع بداية فصل الشتاء ، بين السادس والتاسع والعشرين من شهر نوفمبر . كان يرتدى العمامة السوداء ، وهذه التواريخ تقارب نفس المواعيد التى يغير فيها جنود الشرطة والجيش أزياءهم الآن وكان تغيير السلطان لزيه ولعمامته من الأحداث الهامة التى يسجلها المؤرخون ، وهناك لوحة مشهورة تمثل السلطان الغورى موجودة فى متحف اللوفر الآن ، ويبدو الغورى فيها مرتديا العمامة الضخمة ، «الناعورة» بقرونها الطوال ، وتعتبر اللوحة أرشيفا حيا للعمائم ، كانت هناك عمامة أخرى تحتل مرتبة كبيرة من الأهمية ، وهى عمامة الخليفة العباسى ، ولونها أسود ، مدورة ولها طرف «عزبة» يتدلى خلف الظهر ، واسم هذا الجزء الرفوف ، وطوله نصف ذراع ، وعرضه ثلث ذراع . تلك هى عمائم السلطنة والحكم والخلافة فماذا عن بقية العمائم ؟

(١) ابن إياس . الجزء الرابع ص ١٠٠ طبعة محمد مصطفى وكالة .

الكلوتات والشرابيش

عمائم الأمراء أقل حجما بالطبع ، لها اسم خاص ، مفرده «شربوش» وصفه المقريزى بأنه يشبه «التاج» ، يبدو مثلث الشكل ، وهو يوضع فوق الرأس بدون أن يلف حوله قماش ، وعندما كان المملوك يرقى إلى رتبة فارس ، كان يلبس العمامة بين يدى السلطان ، ويبدو أن الشربوش كان منتشرا فى العصر الأيوبى ، وعصر المماليك البحرية وأنه أصبح أقل انتشارا فى عصر المماليك الجراكسة ، وكان هناك سوق بأكمله اسمه سوق الشرابيشيين حيث تصنع أغطية الرأس الخاصة بالأمراء ، ومكان هذا السوق اليوم منطقة الغورية فى القاهرة ، وقد استعادت إحدى مدارس دمشق الاسم ، يقول ابن بطوطة أنه نزل بمدرسة المالكية المعروفة بالشربشية ، كانت «الكلوتة» أخف من الشربوش ولكن تعادله فى الرتبة والقيمة ، إذ أنها كانت غطاء رأس الأمراء أيضا ، ومع الزمن أصبحت رمزا للقادة والضباط الكبار ، وكان السلطان نفسه باعتباره قائدا أعلى للجيش يرتدى كلوتة صفراء ، وكانت الكلوتة بسيطة المظهر تشبه إلى حد كبير الطاقية فى عصرنا ، ولكن السلطان خليل بن قلاوون أصدر أوامره إلى رجال عهده بارتداء «الكلوتة» المطرزة .

يقول القلقشندى فى صبح الأعشى [1] :

«فأما ما به تغطية رءوسهم ، فقد تقدم أنهم كانوا فى الدولة الأيوبية يلبسون كلوتات صفر بغير عمائم ، وكان لهم ذوائب شعر يرسلونها خلفهم ، فلما كانت الدولة الأشرفية «خليل بن قلاوون» رحمه الله ، غير لونها من الصفرة إلى الحمرة ، وأمر بالعمائم من فوقها ، وبقيت كذلك حتى حج الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله فى أواخر

(١) جـ ٤ ص٤٠ طبعة دار الكتب المصرية .

دولته فحلق رأسه ، فحلق الجميع رءوسهم ، واستمروا على الحلق إلى الآن ، وكانت عمامتهم صغيرة فزيد فى قدرها» .

لقد أصبح للكلوتة شأن كبير بعد عهد السلطان خليل بن قلاوون وحدث فى سنة ٧١٠ هـ ((١٣٠٢ ميلادية) أن قبض على الأمير جيراى نائب السلطنة بالشام . فنزعت عمامته «الكلوتة» وألقيت على الأرض ، وألبسوه عمامة صغيرة بدلا منها ، وكان هذا يعنى فقدانه لكل نفوذه ، ثم تطور حجم «الكلوتة» وأصبحت ضخمة ، بها عدة انتفاخات ، ويبدو أن ثمنها كان مرتفعا ، أو أن هواية جمعها وجدت عند البعض ، إذ يحدثنا المقريزى عن الوزير عبد الله بن زنبور الذى وجدوا فى ثروته ستة آلاف عمامة من طراز الكلوتة! ، حدث تطور آخر فى شكل «الكلوتة» خلال العصر الجركسى ، ولكنها استمرت بنفس الخطوط الخارجية حتى نهاية العصر المملوكى فى «١٥١٧» على أيدى العثمانيين ، ثمة عمامة أخرى كانت تخص العسكريين فقط واسمها «سراقوج» ويبدو أن أصلة تترى ، وكان هناك نوع آخر من العمامات «الطاقية» ، ولاتزال موجود حتى اليوم فى الأحياء الشعبية بمصر ، كانت فى العصر المملوكى مدورة ومسطحة ، وارتفاعها يبلغ سدس ذراع تقريباً ، وفى عصر فرج بن برقوق ارتفعت الطاقية ، عندئذ حدث تغيير بسيط فى الجزء الأعلى منها فصنع على هيئة قبة صغيرة كثر فيها الحشو بمادة الورق ، وزين بفراء القندس ، ثم ضاقت الطاقية فى سنة ١٤٨١ عند القاعدة وصنعت من لونين مختلفين ، والطاقية بقيت إلى يومنا هذا ولكن فى شكلها البسيط الأول ، وكان هناك نوع آخر من العمامة ، اسمه «زمط» ويعترف دوزى فى المعجم بأنه يجهل هذا اللباس ، لكن ماير فى كتابه «الملابس المملوكية» [١] يوضح أنه غطاء الرأس ، ويبدو أنه كان عمامة للفقراء ، لكن فى فترة معينة

(١) الملابس المملوكية- ماير- ترجمة صالح الشيتى- القاهرة ١٩٧٢

صدر قرار بتحريم لبسه على الفلاحين . ثم أصبح الزمط جزءا من الزى العسكرى الشركسى ، وعندما كان يصدر الأمر بمعاقبة أحد الأمراء كان يوضع على رأسه زمطا قديما .

رجال الدين

أضخم العمائم حجما كانت من نصيب رجال الدين ، وهى أهم جزء فى ملابسهم ، كما أنهم لايرتدون غيرها كغطاء للرأس ، ولازالوا حتى اليوم ، وقد أطلق عليهم «المتعممون» نظراً لأنهم من المستحيل أن يظهروا بدون عمائم ، وكانت عمامات رجال الدين تستند إلى الطبقة التى ينتمى إليها صاحبها فى المركز الاجتماعى ، وفى القرن الرابع عشر كان من المألوف أن يرتدى رجال الدين عمائم كبيرة شاذة فى حجمها ، وكان لبعضها ذوائب طويلة[1] وكان رجال الدين الفقراء يرتدون عمائم أقل حجما ، وكان خطيب الجمعة يرتدى عمامة سوداء يوضع فوقها طرطور أسود ، وكان للأشراف ، أى سلالة النبى عليه الصلاة والسلام عمائم خاصة تميزهم عن غيرهم ، وقد بدأ هذا التمييز فى عصر السلطان شعبان عندما أمرهم بتثبيت قطع قماش خضراء فى عمائمهم ، ثم تطور الأمر عندما أصبحت العمامة كلها خضراء . ولازال رجال الدين من الأشراف يرتدون العمامة الخضراء حتى اليوم ، خاصة فى ريف مصر ، وحتى سنة سبعمائة لم يكن للعمامة علاقة بالأديان الثلاثة ، ولكن الوضع تغير بعد أن جاء إلى مصر وزير مغربى فاجتمع بالملك الناصر محمد بن قلاوون ونائبه الأمير سلار . وتحدث معهم فى أمر اليهود والنصارى ، وهاله ماراه من تمتعهم بالحقوق ، وقال أنهم عندهم فى غاية الذل والهوان ، فأثر كلامه عند أهل الدولة ، ولاسيما الأمير بيبرس الجاشنكير فأمر أن تغير عمائم النصارى واليهود العمائم ، فيلبس النصارى العمائم

(١) الملابس المملوكية- ماير- ترجمة صالح الشيتى- القاهرة ١٩٧٢ ص٩٠

الزرق ، واليهود العمائم الصفر ، ولم يستمر هذا الوضع كثيرا غير أن السلطان الصالح صالح بن الملك الناصر أمر فى سنة ٧٥٥ بمنع اليهود والنصارى من عدة أمور وألزمهم بارتداء العمائم الزرقاء والصفراء ، ويبدو أن العمائم التى كان يرتديها أفراد الشعب كانت تستخدم لغرض آخر وهو استعمالها كمكان لحفظ النقود ، وهذا مستمر حتى الآن فى الريف ، عندما تفاجأ بأحد الفلاحين قد مد يده إلى عمامته وأخرج من طياتها ورقة نقدية ، ولهذا السبب كثر خطف العمائم فى الطرقات أثناء الاضطرابات التى كان يتسبب فيها المماليك ، إذ أنهم كانوا يخطفون أكياس نقود ، وليس مجرد عمائم . .

النساء

فى شهر محرم سنة ٦٦٢ هجرية ، صدر مرسوم يحرم على النساء ارتداء العمامة ، ومن الواضح أن ارتداء النساء للعمائم كان مثار جدل شديد بين الفقهاء ورجال الدين ، ولكن العمامة لم تكن زيا شائعا للنساء ، إنما كن يرتدين قماش يطلق عليها اسم «العصابة» وهو اسم لازال يطلق حتى الآن على الطرح والمناديل الحريرية فى الأحياء الشعبية المصرية ، لكن عصب النساء فى العصر المملوكى كانت تحلى بالجواهر ، والزخارف الفنية ، وخلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر حل «الطرطور» محل العمائم ، وفى رجب سنة ٨٧٦هـ ، أصدر السلطان قايتباى أمرا يوجب على كل امرأة أن تمتنع عن ارتداء «عصابة» أو «سراقوس» من الحرير ، وصدرت الأوامر لرجال المحتسب بأن يضربوا أى امرأة ترى فى الأسواق مرتدية هذه العصب . وسرى الخوف إلى النساء فصرن يخرجن حاسرات الرءوس ، وداخل منازلهن كن يرتدين غطاء الرأس المحرم .

لقد ولى العصر الذهبى للعمامة مع انتهاء العصر المملوكى عام ٩٢٢هـ - ١٥١٧م ، مع الغزو العثمانى ، وعندما جاء إدوارد لين فى بداية القرن التاسع عشر لم يكن تبقى الكثير من طبقات العمائم وأنواعها ، إنه يصف لنا غطاء للرأس يكاد يكون هو الموجود حاليا والذى يرتديه رجال الدين المسلمين : قلنسوة قطنية صغيرة مطابقة للرأس ، ثم طربوش أحمر من الجوخ ، ويلف بقطعة طويلة من الحرير ، اندثرت العمامة الزاهية إذن ، الناعورة ، والكلوتة ، والشربوش ، وأصبح لفظ العمامة يعبر الآن أحيانا عن السخرية ، خاصة عندما يقول الناس «أصله لبس العمة» أى خدع ، لأنه مغفل ، أصبحت العمامة توحى بالغفلة والبله ، بعد أن كانت رمزا للسلطان وللغضب وللجاه ، ولطبقة الإنسان ، ولديانته وسبحان مغير الأحوال !

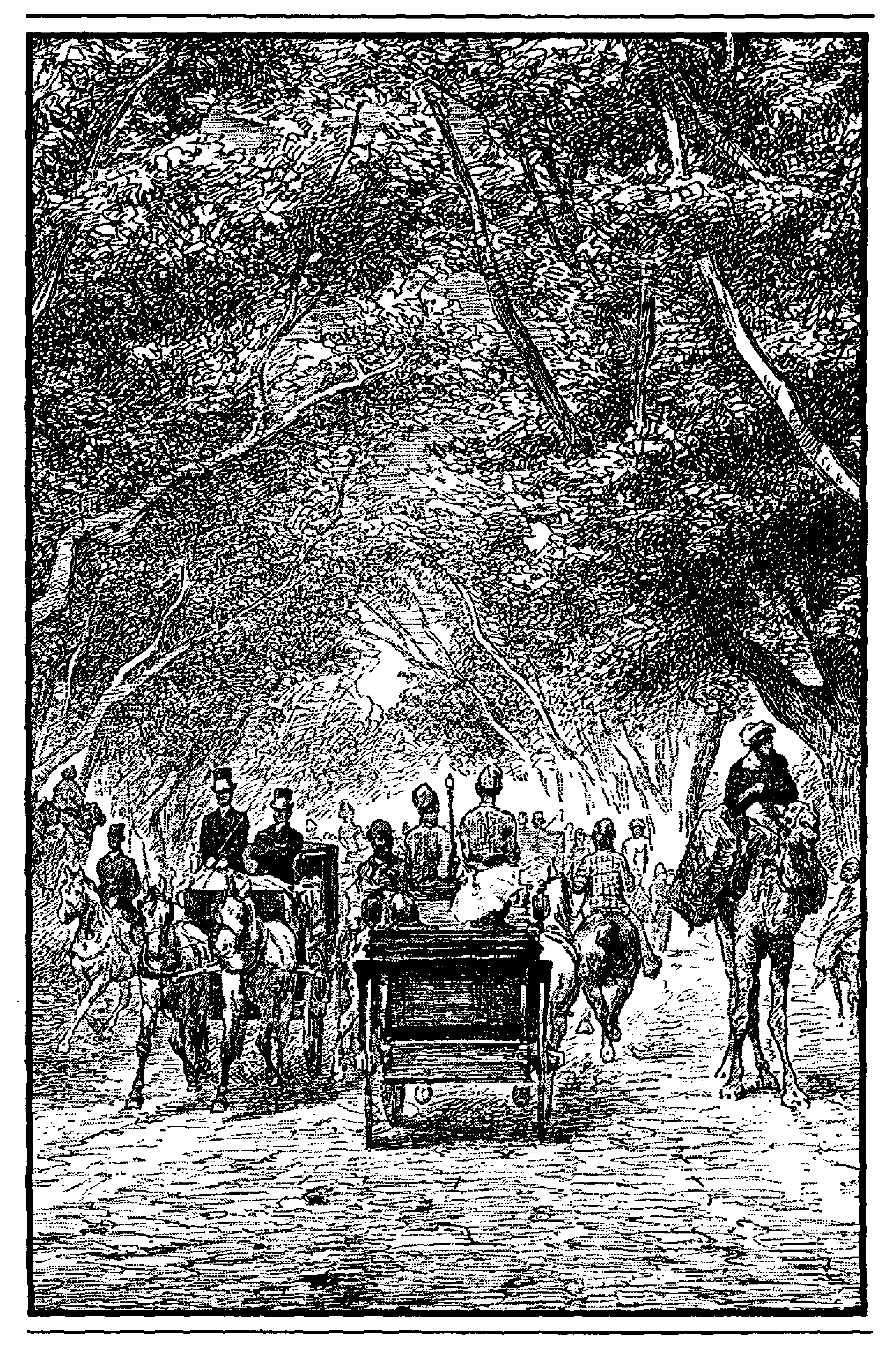


الخيول المملوكية

القاهرة المملوكية:

نتجه إلى ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل ، ربما كان التجول فى سوق الخيل مدخلا طبيعيا إلى عالم رحب ، وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطى ،لم يتغير موقع هذا السوق طوال العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين ، أنواع عديدة من الخيول ، لكنها موزعة على ثلاثة أقسام رئيسية ، الخيول العربية ، أنفسها ، وأغلاها قيمة ، مطلوبة للسباق ، وللحاق ، مصدرها بلاد الحجاز ، ونجد ، واليمن ، والشام ، والعراق ، ومصر ، وبرقة . النوع الثانى ، تركى أو أعجمى وكانت تسمى الهماليج ، أو الأكاديش ، مرغوبة لصبرها على السير الحثيث ، وسرعة المشى ، النوع الثالث مولد بين العربية والأعجمية ، إذا كان الأب أعجميا والأم عربية قيل له هجين ، وهى وسط بين النوعين السابقين ، أما الخيول الإفرنجية فهى أفشل الأنواع ، وأرخصها ثمنا هنا ، ولايقبل عليها أحد .

الخيول العربية نفسها تنقسم إلى عدة أنساب ، الحجازى أشرفها ، والنجدى أيمنها ، والمصرى أفرهها ، والغربى أنسلها ، وعندما ترد إلى



السوق خيول مؤصلة فإنها تعرض على السلطان ، كان السلاطين مهتمين جدا باقتناء أنفس الأنواع ، وأنقى الأنساب ، كان الناصر بن قلاوون شغوفا بجلب الخيول العربية ، وبسببها بالغ فى إكرام العرب من آل مهنا وآل فضل المتخصصين فى إحضارها له ، ولم يكن يبخل بأى ثمن ، حتى أتته العرب بأجود الأنواع ، ولم تبن طائفة إلا قادت إليه عناق خيلها ، وأفرد لها دفاتر تسجل أنساب الخيل ، كما تسجل أنساب الآدميين ، وعندما مات ترك خلفه مايقرب من ثمانية آلاف فرس فى اصطبلاته ، أما السلطان برقوق ، الذى هدد تيمورلنك بخيوله البرقية العربية - فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس . كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهرا من مظاهر القوة ، والجاه ، ولاعجب ، فقد قام النظام المملوكى على دعامتين ، الفارس ، والفرس ، ربما كان هذا سببا قويا فى أهمية سوق الخيل ، وقربه من قلعة الجبل ، مركز الحكم ، ورمز السلطة فى مصر وقتئذ ، فى السوق نرى ألوانا عديدة ، غير أن الألوان الأساسية أربعة ، وما عدا ذلك متفرع منها ، الأول : اللون الأبيض ، وكان سلاطين المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليها ، الفرس البوز ، ويذكر ابن إياس فى «بدائع الزهور» أن السلطان الغورى عندما خلع على قرقد بيك العثمانى أهداه فرس بوز بسرج ذهب وكنبوش ، ولا يذكر خروج السلطان الغورى فى المواكب إلا ممتطيا فرس بوز أبيض ، الثانى : هو الأسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها «أدهم» ، والثالث : هو اللون الأحمر ، ويسمى الكميت ، واللون الرابع : هو الأصفر ، ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان ، وقادة الوحدات العسكرية ، وأحيانا كان بعض الفرسان يحرصون على ركوب فرس ذات لون معين فى كل يوم ، وجرى العرف أن يكون ركوب الأدهم أى الأسود يوم السبت ، ويوم الأحد للأبيض ، والاثنين للأخضر ، والثلاثاء للكميت ، والأربعاء للأبلقى وهو ماكان بياضه بين بين ، ويوم الخميس للأشقر ويوم الجمعة للمحجل ، ولهذه الألوان علاقة بالتفاؤل ، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم

على اللون العام للفرس ، وإنما يتعلق الأمر ببعض العلامات فى جسده ، فالغرة أى البياض الذى يكون فى وجه الفرس ، إذا استدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فإنها تدل على اليمن والبركة ، وإذا أصاب البياض خدا دون الآخر ، فإن الفرس يكون مكروها ، ويتشاءم به ، كذلك إن غطت عينا دون الأخرى فيصبح من المتوقع أن تقتل مع صاحبها ، أما إذا غطت العينين فإنها تقهر مع فارسها ، وإن مالت إلى اليمين تدل على الشؤم ، وإلى اليسار فإنها تدل على المكاسب ، وإن وصلت إلى الأنف فإنها تدل على البركة والخير ، وإذا كان هناك لون يخالف لون الفرس فى رجلين مختلفين فإنه مكروه ، وفى سنة ٨٠٢هـ ١٣٩٩م ، كسر الأمير تنم وسقط أسيرا ، واستفسر المؤرخ ابن تغرى بردى عن سبب وقوع الأمير عن فرسه ، ثم أسره ، فقالوا : كان فى فرسه شؤم ، وأشاروا إلى هذه العلاقة ، وقالوا : إن أصحابه نهوه عن ركوبه فأبى .

فى سوق الخيل نلاحظ أن المشترين والفاحصين يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها ، والتفرس له قواعد ، فلابد أن ينظر إلى الفرس فى جميع حالاته ، خاصة أثناء الجرى ، والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه وقلة التوائه ، ولين التفاته ، وإذا نظر الإنسان إلى آثار قوائمه وقت جريه ، وقاس مابينهما ، فإذا كانت ستة أذرع ، يكون فرسا سباقا ، وإذا كانت المسافة أربعة أذرع أو ثلاثة فهو بطىء أما من أربعة أذرع إلى خمسة فيكون متوسط الجرى ، كما يجب أن يكون صافيا عند الصهيل ، فهذا دليل صحة الرئتين ، وعلامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها ، وسجلتها كتب الفروسية .

إذا مافرغنا من التجول فى سوق الخيل ، فإننا نصعد قليلا إلى القلعة ، إلى باب السلسلة ، هنا أكبر الاصطبلات فى البلاد ، اصطبل السلطان بما يحتويه . .

الاصطبل السلطانى

. . البناء مسقوف داخل القلعة ، جيد التهوية ، يضم عدة منشآت ، أولها المكان المخصص لإيواء الخيول ، الأرض مفروشة برمل ناعم ، أو بأعواد من خشب ، وذلك حتى إذا راث الفرس أو بال فيردم ، ويأتى بغيره رملا يابسا ، أو أعوادا أخرى نظيفة ، والتراب غير مستحب لأن البول إذا اختلط به يحدث رائحة قذرة ، لأن الرطوبة تلين الحوافر بخلاف الأرض الصلبة ، سواس الاصطبل يمسحون أبدانها صباح كل يوم وينظفونها ،كما أنهم مسئولون عن تمريغ الفرس بعد المجهود الذى تبذله فى الجرى لتليين أعضائها ، من المبانى الملحقة بالاصطبل ، الركاب خانا ، أى المكان الذى تحفظ فيه معدات الركوب ، من سروج ، واللجم ، والكنابيش ، والمراكيب ، وأردية الخيول ، والمخالى ، كثير من هذه المعدات محلى بالذهب ، أو الفضة ، ويقول المقريزى أنه رأى بعض الركاب مصنوع من الذهب الخالص ، المسئول عن هذا الجزء هو المهتار (كبير الغلمان) ومعه عدد من الرجال لمعاونته ، وكان الاصطبل يحتوى على مايلزم ثلاثة آلاف فرس ، وتجهيزها بشكل كامل ، يسمى الاصطبل وملحقاته بالاصطبلات الشريفة ، أما مايخص الأمراء فيطلق عليه الاصطبلات السعيدة ، وينقسم الاصطبل السلطانى إلى عدة أقسام :

- الاصطبل الخاص وبه الخيول الخاصة بالسلطان .
- اصطبل الحجورة ، وبه الخيول الخاصة بلعبة الأكرة ، أو الرياضة .
- اصطبل الجوق ، وبه خيول المماليك التابعين للسلطان .
- اصطبل البيمارستان وبه الخيول الضعيفة .
- اصطبل الجشاء ، وبه الخيول المهرمة التى حان أجلها .
- أصطبل البريد ، وبه خيل البريد .

ومن المبانى الملحقة ، الجامع السلطانى بالاصطبل ، لأن المكان يأوى الخيول رمز القوة ، فقد كان السلاطين ينزلون إليه ، ويجلسون فوق المقعد

المطل عليه ، ويديرون أمور الحكم ، ويسبق نزولهم موكب الاصطبل الذى يتكرر مرتين فى الأسبوع : السبت ، والثلاثاء ، وبدأت هذه العادة منذ أيام السلطان برقوق ، وفى زمن السلطان تمربغا الظاهرى سار المنادى معلنا بأن كل مظلوم أو له شكوى عليه الوقوف بالاصطبل يوم السبت والثلاثاء للنظر فى شكواه . وكثيرا ماكانت تنفذ العقوبات الفورية فى الاصطبل ، يقول ابن إياس : إنه فى جمادى الآخر سنة ٨٧٢ هـ ، تغير خاطر السلطان الظاهر بن سعيد تمربغا على القاضى خروف فضربه بين يديه بالاصطبل ضربا مبرحا ، كما تمت مبايعة السلطان فى الاصطبل أحيانا ، فى سنة ٧٨٤هـ ، حضر الخليفة المتوكل على الله ، وقضاة الإسلام الأربعة وعلماء العصر إلى الاصطبل السلطانى ، وقلدوا برقوق أمور العباد والبلاد ، وفى سنة ٨٠١ هـ تكرر نفس المشهد بالاصطبل عندما بويع فرج ابن السلطان برقوق بالسلطنة ، وتقلد أمور المسلمين ، كذلك قايتباى العظيم بويع فى الاصطبل ، وكثيرا ماتم عرض المماليك فى الاصطبل ، كما جرت فيه مشاورات عديدة لتوزيع الثروات ، أو لحسم المنازعات ، وكانت اصطبلات الأمراء تعكس كل منها مدى أهمية الأمير وقوة مركزه ، ونفوذه ، بعدد ماتحتويه من خيول ، ومسجد السلطان حسن هذه التحفة المعمارية القائمة فى مواجهة القلعة بين مكان اصطبلين كان يملكهما الأمير يلبغا اليحياوى ، والأمير الطنبغا الماردانى ، وكان نواب السلاطين بالشام يمتلكون اصطبلات ضخمة ، وكثيرا ماكان السلطان ينفق عليها ، كما حدث فى زمن السلطان بيبرس ، ومن تلاه من ملوك .

وظائف الاصطبل

المسئول الأول هنا هو أمير أخور كبير ، وأخور كلمة فارسية تعنى العلف أو العليق ، أى أنه أمير العلف ، ولايتولى الوظيفة إلا أمير مقدم ألف ، أعلى رتبة بين المماليك ، ولايتولاها إلا أهل الثقة ، بل إن هذه

الثقة ، وصلت إلى حد ائتمانهم على حريم السلطان ، كما حدث فى عصر الناصر محمد بن قلاوون عندما ائتمن أمير أخور على حريمه ، وأمره بخروجه معهن إلى الحجاز ، كما أنه زوج الأمير يشبك أمير أخور ابنته ، كما كان السلاطين يسيرون فى جنازات أخوريتهم ، وفى أيام الفتن كان الاصطبل أول مايتعرض للنهب ، وذلك لكسر شوكة صاحبه ، وتجريده من قوته ، حدث فى زمن السلطان المنصور بن بكر بن الناصر محمد أن تكتل الأمراء ضده ، وما أن علم بذلك حتى أسرع إلى الاصطبل وأمر أيدغمش أمير أخور بشد الخيل للحرب ، لكن الأمير أخبره أنه لم يبق فى الاصطبل غلام أو سائس ، عندئذ علم السلطان أن أمير اخور قد خذله ، وأنه هزم ، كذلك عهد السلاطين إلى أمراء اخوريتهم بكثير من المهام السياسية والعسكرية ، وذلك لحنكتهم وقدرتهم ، ففى سنة ٨٠١هـ ، توجه سودون الطيار الأمير أخور إلى الشام لكشف أخبار ابن عثمان ، وفى سنة ٩٢٠ هـ عين السلطان الغورى الأمير قانى باى أمير أخور قائدا للتجريدة التى توجهت إلى حلب ، ومن قبل فى سنة ٨٠٣ هـ توجه أمير أخور إلى تيمورلنك بكتاب السلطان .

وكانت الوظيفة ترشح صاحبها ليلى مناصب أعلى ، حتى السلطنة نفسها ، فالسلطان برقوق كان أمير أخور ، والسلطان يلباى أيضا ، ولكن أحيانا كان أمير أخور يرقى إلى منصب أكبر ، ولكنه من الناحية العملية أقل نفوذا ، وحدث ذلك للأمير جقمق العلائى فى سنة ٨٣٧هـ عندما رقى إلى أمير مجلس ، وأشار عليه أصحابه بأن أمير أخور كانت أفضل له من ناحية المنفعة والنفوذ ، وإذا كان لابد من التغيير فليختار أمير سلاح لتعوضه هذه الوظيفة عما فاته ، وظل يسعى حتى تحقق ذلك . يعاون أمير أخور فى إدارة الاصطبل السلطانى موظفون آخرون لهم درجات ومراتب ، منهم الراخور وهذه الكلمة مركبة من لفظين فارسيين معناهما ، كبير العلف ، وهم كبار المسئولين عن علف الدواب ، أما

الغلمان وسواس الخيل والأسطوات فهم المتصدون لخدمة الخيول مباشرة ، يقومون بتنقية العليق ، ويطعمونها بأمانة ، لأنه لا لسان لها يشكوه إلا لله ، ولاتسجل كتب التاريخ حوادث اختلاس من العلف ، والله أعلم ! ، وكان السواس يعلقون أحرازا فى رقاب الخيول تشتمل على آيات من القرآن الكريم ، وقد عاب أحد مؤلفى كتب الفروسية عليهم ذلك ؛ لأنها تتمرغ فى القذارة ، لاتخرج الخيول من الاصطبل إلا مرتدية مايتفق ، فلكل لون زى من العبى والكنابيش ، الفرس الأسود له العباءة البيضاء ، والدوالى الأبيض ، والأشهب له العباءة السوداء والدوالى الأسود ، والأحمر له العباءة الحمراء ، والأشقر له اللون العسلى ، والأصفر له العباءة التى من نفس لونه ، أما إذا كان الفرس بوز أى أبيض ، فإن لون العباءة يكون بنفسجيا ، واللون الأخير يطل علينا به جواد السلطان الغورى فى مواكبه وخرجاته التى وصفها ابن إياس ، ايضا فإن الوزن المحدد لكل فرس معدود ، وقد فضل العارفون بالجياد المائة وعشرين ، فلا تشمل وزن الفارس والسلاح ، والعدد ، حتى لاترهق الفرس ، وهذه الخيول مدربة عبر عناء طويل وصبر ، فالخيول ذات نفوس عزيزة أبية ، وليست كغيرها من البغال أو الحمير ، أن فرس السلطان دربت على أن تحمل البراءة بالجلاجل ، وتعليق الأجراس ، وحمل الصولجان ، والخوض فى الماء ، وتخطى السواقى ، والقعود فى رفق ، وبقية الخيول مدربة على دخول الأزقة ، والأسواق ، والمرور بين الجماعات ، والنظر إلى الأعلام ، والأشياء الضخمة العجيبة ، كالأفيال ، والأسود ، والزراف وإذا خاف لايضرب حتى لاينفر ويجزع ، إنما يؤخذ برفق كما أنها مدربة على الدوران برفق ، والقعود ، والانعطاف يمنة ويسرة ، وهناك قواعد دقيقة تنظم عملية اللجم ، وتحدد أنواعها ، كذلك السروج ، وعملية أنعال الفرس ، وأحيانا كانت الأمور المالية تنعكس على الناس ، لقد كان المماليك يبالغون فى كسوة خيولهم ، ومن هنا فرض بعض السلاطين ضريبة خاصة بالعبى ، لكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ألغاها سنة

٧١٠ هـ ، كما كانت بعض الاضطرابات سببها أكل الخيول من تبن وشعير ، كان يصرف للملوك جراية من الخبز لطعامه ، وجراية من الشعيرلإطعام خيوله ، فى سنة ٨٥٩هـ ثار المماليك الجلبان وأشاعوا الفوضى وتوجهوا إلى بولاق ونهبوا شون الأمراء ليحصلوا على الشعير لخيولهم ، وفى سنة ٨٦١ هـ كانت أحد مطالب المماليك من السلطان أن يكون الشعير والتبن مغربلا ، وفى سنة ٩٢٠ هـ انتقد المماليك السلطان الغورى لأن العلق الخاص بالخيول مسوس لاتقبل عليه الجياد ونزل السلطان عند رغباتهم وأمر بصرف العليق المغربل لهم ، وفى الربيع كانت الخيول تخرج إلى المراعى لتأكل البرسيم ، وكان هذا يسبب بعض الخطورة أحيانا ، فى سنة ٧٥٥ هـ ، عندما هزم السلطان حسن من مملوكه يلبغا ، ألبس مماليكه فى القلعة ، لكنه لم يجد لهم خيلا ، لأن الخيول كانت ترعى فى مراعى الربيع ، ولكن فى حالة المخاطر الخارجية كانوا يقصرون الفترة الزمنية ، أو يستدعون الخيول من مراعيها ، وفى فصل الصيف اعتادت الخيول على الدريس ونظرا لأهميته عمد المماليك إلى تخزينه ، وفى سنة ٩١١ هـ ، وعندما بدأ الشاه إسماعيل الصوفى يستعد لمهاجمة البلاد ، أكثر المماليك من تخزين الدريس وصاروا يمسكون الناس لنقله ، وسرى الارتباك بسبب ذلك ، وقال العامة : «اهرب ياتعيس ، وإلا يحملوك الدريس» ، وفى سنة ٩٢٢ هـ عندما أشيع اقتراب ابن عثمان من بلبيس صدر أمر بإحراق الشون المحتوية على التبن والدريس والقمح والشعير ، حتى لاينهبها عسكر ابن عثمان ، فتزداد خيولهم قوة ، وكان المصروف على عليق الخيول مبالغ ضخمة ، السلطان بيبرس كان يصرف على دوابه ودواب من يلوذ به فى كل سنة ، ثمانمائة ألف درهم ، وكانت خيوله تستهلك خمس عشرة ألف عليقة فى اليوم الواحد ، أى ستمائة أردب ، والسلطان برقوق ، بلغ عليق خيوله فى الشهر الواحد أحد عشر ألف أردب شعير وفول ، وكان الذى يشرف على كل هذه الشئون هو أمير أخور كبير . . .

نتجه الآن إلى إحدى ساحات السباق ، إن الفروسية ترتبط ارتباطا وثيقاً بالرياضة ، وسباق الخيل أهم ألوان الرياضة ، وأكثرها استعراضا للقوة ، كان السلطان بيبرس يأمر عساكره بالركوب إلى الميدان الأسود تحت القلعة ويتراكضون فيه ، وجرت على ذلك عادة السلاطين من بعده الذين خصصوا ساحات متعددة للسباق . واعتاد العرب أن يسموا ساحة السباق بالحلبة ، أما موضع المسابقة فيسمى بالمضمار ، والمدى يسمى غايته ، وتكون الغاية طبقاً لما يتفق عليه وكانوا يجعلونها مائة غلوة . والغلوة رمية السهم العربى ، وهى خمسمائة ذراع ، وقد تجعلها من مواضع معلومة إلى مواضع معلومة وهذا ماطبقه المماليك ، ويذكر المقريزى أنه رأى بميدان القبق عواميد من رخام تعرف بعواميد السباق ، بين كل عامودين مسافة بعيدة ، أنه كان بين قبة الإمام الشافعى وباب القرافة ميدان تتسابق فيه الأمراء والأجناس ، وكان المماليك يتراهنون كالعرب ، وأسلوب السباق الذى نراه فى الساحة ، يتلخص فى وقوف الخيل فى الميدان ، ثم تصف على المقوس ، أى الحبل الذى يمد فى صدور الخيل لتكون متساوية ، وترص حوافرها كالمشط المنظوم ، ثم ترفع المقوس كأسرع مايكون ، فتنطلق عشرة ، عشرة ، دفعة واحدة ، والسباق يحتاج إلى فارس ذكى ، عارف بأحوال الخيل ، خفيف الجسم ، قليل اللحم ، فى عصر السلطان الناصر أهداه الأمير العربى مهنا فرسا شهباء للسباق ، وطلب ألا يركبها عند السباق إلا بدوى قادها ، وجاءت هذه الفرس فى مشهد طريف تحفظه لنا كتب المقريزى وابن تغرى بردى إذ كان يركبها بدوى بدون سرج ، وقادها عبر السباق وهو يرتدى قميص وطاقية فقط ، وسبقت كل الخيول .

هناك ساحات أخرى كان المماليك يلعبون فيها الكرة أو الجوكان ، وهى اللعبة المعروفة الآن باسم بولو ، اهتم السلاطين بها وخصصوا لها الخيول ، والموظفين ، كان الواحد منهم يسمى الجوكندار ، أى الذى

يحمل الجوكان ، وهى عصا مدهونة طولها نحوا من أربعة أذرع ، ويرأسها خشبة مخروطة محدودبة تفيض عن نصف ذراع ، ويقسم ميدان اللعب بخطوط بيضاء ، ويقف فرسان المماليك بيد كل منهم عصا طويلة ، ويحاول كل منهم جذب الكرة التى توضع فى وسط الميدان ، وكان المهزوم يقيم وليمة كبيرة ، وأحيانا كان السلطان يتحمل نفقاتها تخفيفا عن المغلوب ، وقد حدث أن توفى الملك السعيد محمد بن الظاهر بيبرس عقب تعثره بفرسه أثناء لعبه بالكرة عام ٦٧٨ هـ .

الفرسـان

كان تدريب الفارس يبدأ منذ أيام الصغر ، فى البداية يعلمونه القراءة والكتابة ويلقنونه آيات القرآن ، والفروض الدينية ، ويلقنونه الأخلاق المثالية ، وفى المرحلة التالية يؤخذ المملوك بالشدة ، فيتعلم السباحة ، واللعب بالسيف ، والضرب بالرمح والقذف بالأطواق . وركوب الخيل ، ويبدأ تعليمه الخيل بتعوده على الوثوب والنزول على تمثال الفرس من الطين والخشب ، فإن أتقنه جعل على التمثال سرج ، فإن أتقنه ، ارتدى السلاح ووثب به ، ثم يبدأ الوثوب على فرس عارية من السرج ، ثابتة ، فاذا حذق ذلك تدرب على ركوب فرس مسرجة ، وطرق أخذ الاعنة أو إمساك الرمح ، فإذا اكتسب الخفة ، تمرن على السيوف شيئا فشيئا ، حتى يصل إلى الركض بالفرس ، ثم يتمرن على النزول والركوب من الفرس أثناء ركضه ، أو القفز خلف فارس ركاب ، ثم يتدرب على الالتفات والدوران ودخول البرجاس ، وعند بروز مواهب المملوك ، فإنه يشترك فى مبارزة أو سباق ، وعند ثبوت شجاعته تكون مكافأته أن يعتق وترد إليه حريته ، ويوكل إليه أمر إحدى الوظائف ويكتب له إقطاعها ، جزء من الأرض يستغله كما يشاء ، ويمنح خيلا وقماشا ، ويترقى فى سلك الوظائف حتى يصل إلى ماشاء له حظه ، وكثيراً ماجنح بعضهم إلى مطالعة العلم ، ودراسة الأدب ، أو كتابة الشعر ، وشجاعة الفرسان

المماليك ليست فى حاجة للبرهنة عليها ، وأمامنا حروبهم خلال فترة دولة المماليك البحرية وإيقاعهم بالفرنجة ، وهم خلاصة جنود أوربا ، وهزيمتهم للتتار الذين اشاعوا الرعب فى العالم ، ومن أزهى مشاهد التاريخ وأكثرها إثارة للحنين ، والخيال ، وصف ابن إياس والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، وغيرهم لركوب فرسان المماليك ، ونزولهم عن القلعة ممتطين خيولهم بينما تسمع قعقعات أسلحتهم ، وتبهر العيون ألوان جيادهم ، وأرديتهم ، والكنابيش المطعمة بالذهب ، وتلك المباهاة بالقوة والفروسية .

الحرب

يعد الفارس سنوات من أجل لحظات أو أيام قليلة عندما تنشب الحرب ، كذلك الخيول ، وكما يتوزع المحاربون على أقسام الجيش المختلفة ، ، فإن الجياد كذلك ، هناك خيول النوبة ، وتخص السلطان ، والقواد وهى مسرجة دائما فى الليل والنهار ، تقف فى أقرب مكان من السلطان احتياطا لكل مفاجأة .

وخيول الطلائع ، تخصص للاستكشاف ، ولا بد أن تكون من أجود الأنواع ، سليمة الحوافر ، لاتجمح .

وخيول السرايا ، تضم أنواعا ممتازة ترسل للإغارات السريعة على العدو ، وسميت بالسرايا لأنها تسرى بالليل ، أما خيول الكمين ، فيجب أن تكون قليلة الشغب ، لاصهيل لها ، ولاحمحمة ، صابرة لاتضجر ، حسنة الأخلاق ، لاسعال بها ، ولاوهن ، ولابد أن تكون كلها ذكوراً أو إناثا ، إذ أن اجتماع ذكر الخيل وأنثاه ، ربما أثار الجلبة .

أما الخيل الطواشى ، فهى صعبة الانقياد ، التى لاتقع منها ، وتلك لها وظيفة فى الحرب ، إذ تضرب بالسياط ، وتدفع بالضجيج صوب مخيم العدو لإشاعة الرعب فيه تمهيدا لهجوم الفرسان عليهم ، ويتردد

تعبير جرائد الخيل كثيرا فى كتاب ابن إياس «بدائع الزهور» وتلك تستخدم لاتباع المنهزمين ، ومطاردتهم .

الركوب

وفى أيام السلم ، يتم الركوب وفقا لتقاليد ونظم ، أول المواكب ، موكب تقليد السلطان ، تقدم إليه فرس النوبة بسرج ذهب ، وكنبوش زركشى ، وإذا هم بالركوب يقرأ الفاتحة ، وعند وضع رجله فى الركاب يقول «بسم الله الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون» . ويخرج راكبا والأمراء مشاة بين يديه إلى ظاهر القاهرة ، حيث يلبس خلعة السلطنة ، ثم يدخل من باب الفتوح ، أو باب النصر ، والوزير بين يديه راكبا فرسه حاملا عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر فوق رأسه .

وكان هناك موكب الركوب فى العيدين ، ومن شعاراته أن يكون فى عنق فرس السلطان ، رقبة من حرير أصفر ، وكانت الغاشية تحمل بين يدى السلطان وهى غاشية سرج محلاة بالذهب ، يحملها الركبدار ، يرفعها على يديه ، يلفتها يمينا وشمالا ، وأمام السلطان أيضا يركب الجفتاوات ، وهما اثنان من موظفى الاصطبل متقاربان فى السن ، عليهما قباءان أصفران ،وعلى رأسيهما قبعتان مزركشتان وتحتهما فرسان أشهبان يشبهان فرس السلطان ، كأنما أعدتا لركوبه ، ومن المواكب الأخرى التى يركب فيها السلطان موكب الاصطبل ، ومواكب الكرة ، وموكب كسر الخليج ووفاء النيل ، وموكب دوران الحمل ، وموكب الصيد والأسفار .

وكان كبار الأمراء يركبون الخيول النفيسة أما أتباعهم فيركبون البغال ، كذلك كان أصحاب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء يركبون البغال ، وإن كان يسمح للمتعممين بركوب الخيل واقتنائها كمظهر من مظاهر احترامهم ، أما عامة الناس المسلمين ، فيركبون

البغال ، أما أهل الذمة من نصارى ويهود فكانوا يركبون الحمير .

نعود إلى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ولاتزال دلائل عديدة تكشف أهميتها ، فالسلاطين أوصوا مماليكهم بألا يقفوا فى أسواق العطارين ، والقماش ، والصاغة ، ولكن يجب أن يقفوا بسوق الخيل ، أو سوق السلاح ، أو سوق الكتب .

ولأن سوق الخيل يتضمن العديد من معانى الجهاد ، ولأن السلاطين يؤمنون ببركة الخيل ، فقد جرت عادتهم على الاحتفال بشفائهم هنا ، وإذا مرض عزيز لديهم ، فإنهم يأمرون ببيع أحد الخيول الثمينة بالسوق ، والتصدق بثمنه على الفقراء ، هكذا فعل ، السلطان برقوق ، والأشرف برسباى ، والسلطان خشقدم ، والمؤيد شيخ ، والسلطان الكامل .

ولأن السوق قريبة من القلعة ، فكثيرا ماوقع فيها العديد من الاضطرابات السياسية ، والاقتصادية ، فى سنة ٧٤٢هـ ، تجمع أفراد من الشعب بسوق الخيل ، وطالبوا بذهابهم إلى الملك الناصر والعودة به ، وفى سنة ٨٤١ هـ عندما مرض السلطان برسباى وأصبح احتمال موته قريبا ، تجمع المماليك بسوق الخيل تحت القلعة ، وتوجد أسواق أخرى تكمل سوق الخيل ، منها سوق الهمازين ، لبيع المهاميز والتى صنع بعضها من الذهب أو الفضة ، وكان هذا نادرا ثم بطل مع مرور السنوات ، أما سوق اللجميين فتباع فيه آلات اللجم مما يتخذ من الجلد ، وكان بعضها يصنع من الجلد البلغارى الأسود ، أما سوق الجوخيين فمخصص لبيع الجوخ المستورد من بلاد الفرنجة ، وكان يصنع منه ثياب السروج . .

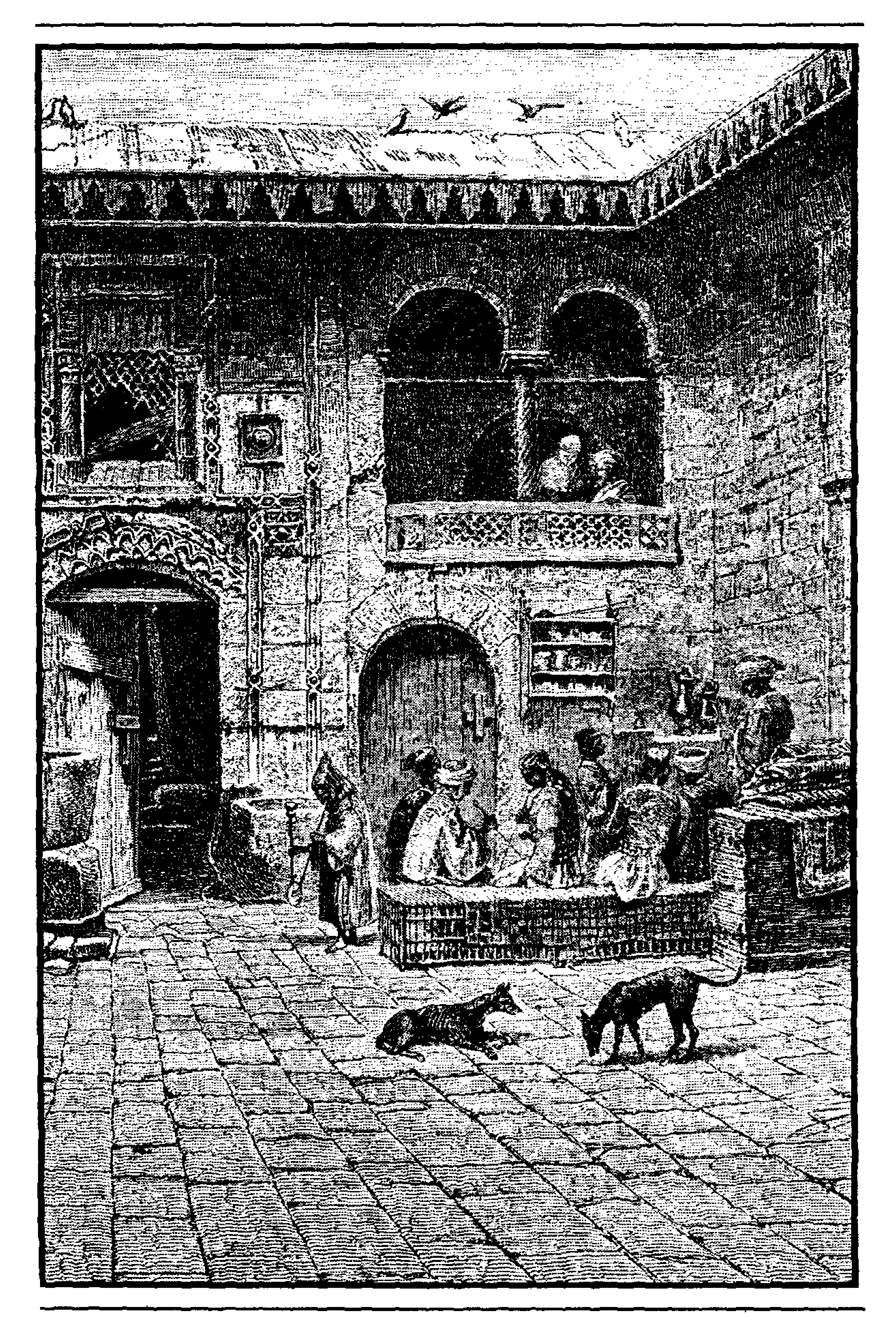
ونفارق عالم الخيول ، وسوق الخيل ، وكل مايتعلق بها ، بعد أن طواها الزمن ، وهان أمرها ، وأصبحت فى أحوال عملها تجر العربات الكارو المحملة بالأثقال ، وتسام العذاب ، وفى أحوال الحظ ، تستخدم كحلبة راكدة فى المواكب ، وبعض الاستقبالات الرسمية .



أسواق القاهرة العربية

للسوق العربية هندسة بناء خفية ، وتستر خلفها رؤية للحياة ، وللتجارة ، وللعلاقات بين البشر ، وفيها تتشابك المصائر ، وحتى زماننا هذا تحتفظ القاهرة بأسواق متكاملة لم تنل منها العمارة الحديثة ، أو زحف الخرسانة ، بل إن الفلسفة الخفية انتقلت إلى الأسواق العصرية التى تغرق فى بحر من النيون الصناعى .

. . تتوحد الظلال ، والروائح ومنحنيات الطرق ، وملامح الانتظار ، والرغبة ، تماما كما تتشابه الملامح البشرية ، فى الأسواق العربية ، فى القاهرة ، الغورية ، والحمزاوى المثقل بالتوابل والعطور ، وخان الخليلى مجمع التحف وآيات الإبداع الإنسانى ، والتربيعة ، لا ننأى عن الخطوط والقسمات عندما ننتقل إلى سوق الحميدية ، الممتد الطويل كقطار يتحرك فى ثبات عبر محطات متوالية من الزمان لاتنال من معالمه ، وأرضيته المفروشة بظلال السقف المعلق ، كذلك سوق الشورجة فى بغداد ، والسوق الرئيسى فى البصرة ، والسوق البديع المفروش بضوء خفى المصدر فى أربيل ، هذا ماأتيح لى أن أراه ، وأن أعايشه ، أما مالم أشاهده فى الرباط أو تونس أو الجزائر أو عمان ، أو اليمن ، فلا يشى باختلاف كبير ، إنما تؤكد اللوحات عناصر التشابه .



الأرزاق على الله

يحدثنا المقريزى عن أسواق القاهرة :

« . . والقصبة هى أعظم أسواق مصر ، وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول إن القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت .

هذا العدد الهائل من الحوانيت كان يبدأ فى زمن المقريزى بعد أن يلج الداخل من باب الفتوح ، القائم الآن ، فيما يلى ذلك الباب كان يوجد سوق اللحم والخضر ، كانت حوانيت القصابين تصطف متجاورة ، تبيع لحم الضأن والماعز ، وكان القصابون يلفون اللحم فى ورق الموز ، ومكان هذا السوق اليوم العديد من التجار الذين اختصوا ببيع الليمون ، وهنا نلاحظ السمة الأولى للأسواق العربية ، إنها التقسيم النوعى ، فكل سلعة تجدها فى مكان معين ، فرع بأكمله يتخصص فى بضاعة معينة ، وتتجاور الحوانيت ، كل منها يعرض نفس السلعة ، والتنافس قائم ، لكن تكمن وراءه مايمكن أن نسميه فلسفة يومية مستمدة من الدين الإسلامى ، «الأرزاق على الله» ، فلكل تاجر رزقه وزبائنه ، ولايزال هذا التقسيم قائما حتى يومنا هذا فنجد أسواقا متخصصة ، الحمزاوى الذى يعرض التوابل والعطارة ، والفحامين الذى تتجاور فيه متاجر الأحذية ، والتمبكشية (تجار الدخان والتمباك) ، والخرنفش (تجار الخيش والكهنة القديمة) وتحت الربع (الأدوات المنزلية) والموسكى (الثياب والأدوات المنزلية) والدرب الجديد (الحقائب والمصنوعات الجلدية) وسوق الرويعى (ماكينات الخياطة ولوازم الحياكة) وسور الأزبكية (الكتب القديمة) والصنادقية (الكتب الأزهرية) ، والصاغة (الذهب والجوهرات) والنحاسين (النحاس والألومنيوم) ، (وأدوات المقاهى من نرجيلات وأكواب وفناجين) ، ودرب سعادة (الأخشاب) والخردة والمنسوجات الشعبية (وكالة البلح) . والتحف والهدايا (خان الخليلى) . بل إن السلع غير المشروعة تجد مناطق متخصصة فى بيعها مع أن الحكومة

تجاربها وتطارد المتجرين فيها ، وهذا يبدو فى منطقة الباطنية التى تتركز فيها تجارة المخدرات ، وإذا ماانتقلنا إلى المدينة العصرية جدا ، أو وسط البلد كما يسمونه اليوم ، فنجد أن الحوانيت المتشابهة التى تتجاور ، عشرات المتاجر التى تبيع الأحذية فى شارع قصر النيل متجاورة ، أو الملابس الحديثة ، أو الآلات العصرية ، إن وحدة المكان الذى تعرض فيه السلعة ، ظاهرة فريدة فى الأسواق العربية ، إنه ليس انعكاسا لقانون تجارى خفى ، بقدر ماهو تجسيد لأسلوب فى الحياة ورؤية ، إن هذا يسهل على المشترى قضاء حاجته ، كما أنه يشبه معرضا مستمرا لسلعة بعينها ، يمكن للمشترى أن يقارن وأن ينتقى ، وأن يختار ، ثم يشترى . . .

ونعود إلى القاهرة التى وصفها المقريزى .

الأسواق القديمة

بعد سوق القصاصين يجىء سوق المرحلين ، ويختص بلوازم الجمال عند الرحيل ، كان يقصد من سائر أنحاء مصر خصوصا فى مواسم الحج ، فلو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل فى يوم لما شق عليه وجود مايطلبه ، وقد بدأ خراب هذا السوق فى زمن السلطان برقوق ، ولم يبق له أثر الآن ، ومكانه الآن شارع السيارج ، أما سوق حارة برجوان فكان يعرف فى أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش ، كان معمور الجانبين بعدة وافرة من باعة اللحم ، والزياتين ، والجبانين ، والخبازين ، والعطارين ، وقد خرب هذا السوق بعد سنة ٦٠١هـ ، وهذا السوق الآن موضعه تجار أقمشة . وإذا ماتقدمنا حتى مسجد الأقمر سنجد سوق الشماعين ، حيث تباع الشموع الضخمة التى تحمل فى المراكب ، وكانت وحوانيته تظل مفتوحة حتى منتصف الليل ، ويجلس بها بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين ، لهن زى خاص ، وكانت تعلق بهذ السوق الفوانيس فى المواسم فتصير رؤيته فى الليل من أنزه الأشياء ،

وكان به شمع يصل وزن الواحد منه إلى قنطار كامل ، وشموع تحمل على عجلات ، وفى زماننا انتقلت دكاكين بيع الشموع إلى الأمام فنجد عددا منها يقع بالقرب من الغورية وشارع الأزهر ، وتباع فيها الآن الشموع التى تحمل فى حفلات الزفاف ، والشموع التى تضىء فوانيس رمضان ، وتباع أيضا قلل السبوع التى تضيئها الشموع عند الاحتفال بمرور أسبوع على ميلاد البنات ، و«الأباريق» إذا كان المولود ذكرا . على أية حال فقدت الشموع موقعها وتراجعت أمام الكهرباء .

وكان سوق الدجاجين يلى سوق الشماعين ، وفيه الدجاج والإوز ، والطيور المتنوعة ، وكان يباع فيه عصافير محبوسة يشتريها الأغنياء ليعتقوها ، وموقع هذا السوق اليوم مجموعة مبان متهالكة ، وموقع لبعض الباعة الذين يحولون الزيتون الأخضر إلى أسود . أما عن إعتاق الطيور الحبيسة فعادة توارت . ويجهلها الزمن الحالى الذى كثر فيه اغتيال العصافير ، وذبح الأسراب المهاجرة بمجرد أن تلامس صدورها الساخنة بر الإنسان ، وكان خط بين القصرين من أعمر مناطق القاهرة ، وفى أيام الدولة الأيوبية صار هذا الموقع سوقا ، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات من اللحوم المتنوعة ، ثم صار متنزها تمر فيه أعيان الناس لرؤية ماتشتهى الأنفس ، ثم أصبح هنا سوق السلاح ، وقد نقل فيما بعد إلى موضع يقع بالقرب من القلعة ، ولايزال الاسم عالقا بالمكان حتى اليوم ، وبجواره نجد الحرفيين يجلسون إلى تخوت صغيرة وأمامهم أقفاص صغار من حديد مزخرف تحتوى على الخواتم والفصوص والأساور ، ثم سوق الحلوى ، وسوق المهاميز ، ثم سوق السروجيين ، ثم تجار المنسوجات المستوردة من الصين وفارس والهند ، وبجوار الأزهر سوق الشرابيشيين ، ويباع فيه الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء ، والوزراء ، والقضاة ، وغيرهم ، ومثل الكلوتات اليلبغاوية ، والكلوتات الزركشى ، وسمى سوق الشرابيشيين نسبة إلى الشرابيش ، واحدها شربوش ، وهو يشبه التاج كأنه شكل مثلث على الرأس بدون عمامة ، وقد بطل فى عصر

الدولة الجركسية ، كما ان هذا السوق لايوجد له أثر الآن ، وفوق بعض أجزائه تقع منشآت السلطان الغورى .

ثم سوق الحلاويين ، وكان يمتد إلى سوق الشوائيين ، وكان معدا لبيع منتجات الحلوى من تماثيل تسمى علاليق ، واحدها علاقة ، وكان بعضها يزن من عشرة أرطال ، إلى ربع رطل ، وربما كان هذا السوق أصل الاسم الذى أطلق فيما بعد على حارة السكرية التى تدور فيها أحداث ثلاثية أديبنا الكبير نجيب محفوظ .

وفى سوق مجاور تتصاعد أنغام موسيقية من آلات لاتزال تحت التجربة ، إنها حوانيت صناعة العود والقيثارة ، وكانت هذه الحوانيت ملتقى أيضا لمن يهوون الفن والموسيقى أو أرباب المجون والخلاعة بلغة عصرهم ، ولايزال حتى الآن بعض الحوانيت التى تصنع الآلات الموسيقية تقع بالقرب من هذا المكان المجاور لشارع محمد على المعروف بأنه مقر الفرق الفنية التى تحيى الأفراح .

بجوار باب النصر ، فى القرن الرابع عشر ، كان يوجد سوق العبيد الذى نقل فيما بعد إلى خان الخليلى ، هنا كان يعرض الرجال والنساء للبيع ، كان البشر يعرضون عراة فيما عدا قطعا رقيقة من القماش تستر عوراتهم ، ويتقدم المشترون لفحص أعضاء الأجسام ، ونجد هذا المشهد فى «ألف ليلة وليلة» ، حيث ينادى تاجر الرقيق :

ياسيد ، ليس كل مااستدار جوزة ، ولاكل مااستطال موزة .

ولاكل مااحمر لحمة ، ولاكل سمراء ثمرة . ثم يبدأ المزاد على الآلام البشرية .

يذكر المقريزى ثمانية وثلاثين سوقا كانت موزعة على قصبة القاهرة ، بعض هذه الأسواق زال واندثر بكل ماحفل به من ضجيج ، ومرور بشر ، ونظرات متلاقية فى أناة ، وأخرى فى حذر ، بكل ما مر به من

رجال تتبعوا نساء جميلات ، أو بصاصين تعقبوا بشرا من هنا أو هناك ، مثل سوق المرحلين ، والشماعين ، والدجاجين ، والقفيصات ، وباب الزهومة ، والخوخيين ، والحريريين ، والخلعيين ، وغيرهم .

وبعض الأسواق الأخرى انتقل مع حركة الزمن فى المكان فابتعد من موقعه ولم يعد يحمل إلا الاسم ، كسوق السلاح ، وثمة أسواق أخرى لاتزال فى موقعها تقاوم عناصر البلى ، والعدم ، كسوق الصاغة ، وفى القاهرة الآن أسواق لاتزال محتفظة بالشكل القديم ، مثل سوق الخيامية المسقوف من خشب ويكثر به صناع الخيام التى تنصب منها السرادقات ، وإن كان عددهم قد تناقص الآن إلى أقل من ثلاثين صانعا ، وبالطبع هنا خان الخليلى والحمزاوى ، والتربيعة .

كيف كانت تبدو هذه الأسواق فى العصور الخوالى للرحالة أو الأجانب المقيمين والزائرين؟

الحوانيت

هذه الأسواق كانت تتكون من الدكاكين المتجاورة ، يصفها المستشرق الإنجليزى إدوارد لين :

«يتكون الدكان من كوة مربعة الشكل ، أو حجرة صغيرة ارتفاعها ستة أقدام أو سبعة تقريبا ، وعرضها ثلاثة أقدام أو أربعة ، وقد يتألف الدكان من حجرتين تتقدم الواحدة الأخرى وتستعمل الأخيرة مخزنا ويقام أمام الدكان وترتفع المصطبة عادة حوالى قدمين ونصف أو ثلاثة أقدام ويكون عرضها كارتفاعها ، وتجهز واجهة الدكان بمصاريع ثلاثة سهلة الطى يعلو بعضها بعضا فيثنى أعلاها إلى فوق ، ويطوى الآخران إلى أسفل فوق المصطبة فتكون مقعدا مستويا يفرش بالحصر أو البسط أو بالوسائد أحيانا ، وتستبدل بعض الدكاكين بالمصاريع السابق ذكرها أبوابا منثنية ويجلس التاجر غالبا على المصطبة ، مالم يضطر إلى الانسحاب قليلا داخل الدكان ليخلى المكان لمن يصعد إليه من حرفائه الذين يخلعون

أحذيتهم قبل أن يطأوا الحصيرة أو البساط بأقدامهم ويقدم التاجر الشبك إلى حرفائه الدائمين ، أو من يشترى بضاعة كثيرة ، إلا إذا كان هؤلاء يحملون شبكهم ، ثم يرسل إلى أقرب مقهى فى طلب القهوة التى تقدم فى فناجين صغيرة من الخزف الصينى داخل ظرف من النحاس الأحمر[1] .

بعض الدكاكين فى الأسواق القديمة لاتزال على حالها ، لم يغير منها الزمن ، ربما كانت بعض العادات قد تغيرت ، فلم يعد ممكنا أن يترك التاجر دكانه مفتوحا فى وقت ذهابه للصلاة أو الغذاء لأن الأمان ليس هو الأمان الذى كان فى عصر إدوارد لين ، ولاتزال الأسواق العربية فى بغداد والبصرة والموصل تحتفظ بهذه الدكاكين المفتوحة ، وعندما يمضى التاجر لقضاء حاجة يمد قطعة من القماش تعلن عدم وجوده ، مع الزمن ، وتوالى الأيام ، وانعدام الثقة ، وكثرة الخلق ، لم يعد مفتوحا ، إنما حلت الفاترينة المغلقة التى يعرض فيها التاجر بضاعته والحاجز الخشبى بينه وبين الزمان .

غير أن الحياة الجماعية للسوق ربما لاتزال تحتفظ بخصائص قديمة ، فالتجار يرسلون وقت الغذاء إلى مطاعم منتشرة فى الأسواق يحضرون منها غذاءهم ، كما يوجد عدد من المقاهى الكبيرة أو باعة الشاى يجولون بعد وقت الغذاء وعلى امتداد النهار ، أما باعة الحلوى فيجيئون أيضا فى الميعاد المناسب ، وفى وسط السوق يروح ويجىء الباعة المتجولون الذين لايملكون دكاكين ثابتة لبضاعتهم ، وهؤلاء ينادون على بضاعتهم .

فيصيح بائع الترمس «مدد ، مدد ياامبابى» ويعنى بهذا القول إما الاستعانة بالشيخ الامبابى وهو ولى مشهور ، وإما الإشارة إلى أن ترمس امبابة لذيذ الطعم ، ويصيح بائع الليمون «الله يهونها ياليمون» وكثيرا ماينادى على اللب ، «لب عبد اللاوى» يابطيخ ، «يامسلى الغلبان يالب» ، أو «اللب المحمص» أما بائع الجميز فيقول «جميز ياعنب »

ويستعمل بائع الورد نداء فريدا «الورد كله شوك من عرق النبى فتح» .

وكانت الأسواق تخضع لمراقبة المحتسب ، وكان يجوس من حين إلى آخر خلال المدينة يتقدمه عامل يحمل الميزان والصنج ، وخلفه الجلادون والخدم ، وهو يمر على الدكاكين والأسواق واحدا بعد الآخر يفحص الموازين والمكاييل ، ويستفسر عن ثمن المأكولات ، ويتأكد من نظافتها ، وإذا اكتشف مخالفة ينزل العقاب بمرتكبها ، وتذكر كتب التاريخ عقوبات فريدة أنزلها المحتسب بالغشاشين ، كهذا الرجل الذى كان يبيع الكنافة ناقصة الوزن ، فأمر المحتسب بجلوسه عارى المؤخرة فوق صينية الكنافة الساخنة ، وأحيانا كان المحتسب يقطع جزءا من الأذن أو الأنف ، وكان هناك فى بداية القرن التاسع عشر محتسب اسمه مصطفى الكاشف مشهورا بقسوته ، وفى مرة قابل رجلا مسنا يقود حمارا محملا بالبطيخ ، فأشار إلى واحدة من أكبرها حجما وسأل عن ثمنها ، فأمسك العجوز بشحمة أذنه وقال : اقطعها ياسيدى ، فأعاد عليه المحتسب السؤال مرة بعد مرة ، وكان الجواب واحدا ، فاغتاظ المحتسب ، لكنه لم يتمالك أن ضحك وقال : هل أنت مجنون أم أصم؟ فقال العجوز : لا ، لست مجنونا ولا أصما لكننى أعرف أننى إن قلت ثمن البطيخة عشرة فضة فستقول ، اقطع أذنه ، وإذا قلت خمسة فضة أو فضة واحدة فستقول اقطع أذنه لذلك اختصرت الأمر ، ونجا الرجل لتهكمه . .

لكن هل كان ذلك يعنى أن العدالة مطلقة؟ يقال أنه كان يسعى بين أيدى بعض المحتسبين رجل يحمل ميزانا أكبر حجما من الميزان المستعمل ، ويقال أن قب الميزان كان أنبوبة مجوفة بها زئبق ، فكان حامل الميزان يستطيع إذا عرف الذين رشوا سيده أن يرجح إحدى الكفتين بسهولة .

(١) المصريون المحدثون ص٢٢٧-٢٧٨ : ترجمة على عدلى طاهر نور .

صورة شاملة

وإذا كان إدوارد لين قد قدم لنا صورة مفصلة للأسواق فى القرن التاسع عشر ، فإن الرحالة أبو الحسن الوزان الفاسى ، المعروف باسم ليون الأفريقى والذى زار مصر القرن السادس عشر يقدم لنا صورة شاملة :

«تمتلئ المدينة «القاهرة» بالصناع والتجار ، ويكثرون بصفة خاصة فى شارع يمتد بين باب النصر وباب زويلة ، فهنا يقيم أكثر نبلاء القاهرة ، ويوجد فى هذا الطريق عدد من المدارس التى تثير الإعجاب بسبب حجمها وزخرفتها ، ويضم أحد الأحياء وهو الذى يسمى بين القصرين محلات تبيع اللحم المطهو ، ويبلغ عددها ستين محلا ، مزودة بأطباق من الصفيح ، وفى محلات أخرى يباع ماء الزهر ، وماء الورد ، وهو يحفظ فى قنان من الزجاج أو فى علب من الصفيح مزينة برسوم فنية ، وهناك حوانيت أخرى تختص ببيع أنواع ممتازة من الحلوى تختلف عن تلك التى تباع عادة فى أوربا . وهناك نوعان من هذه الحلوى ، نوع يصنع من العسل وآخر يصنع من السكر ويأتى بعد ذلك تجار الفاكهة الذين يبيعون الفواكه السورية التى لاتنمو فى مصر ، مثل الكمثرى ، والسفرجل والرمان ويتخلل هذه الحوانيت محال أخرى تبيع المقليات من البيض والجبن ، وعلى مقربة منها منطقة يشغلها بعض أصحاب الحرف الرفيعة ، وبعد توجد المدرسة الجديدة التى بناها السلطان الغورى ، وبعد المدرسة توجد «فنادق» المنسوجات (أى أسواقها) وكل فندق يشتمل على عدد كبير من الحوانيت ، ففى الفندق الأول ، تباع الأقمشة الأجنبية من أحسن الأنواع مثل تلك التى تأتى من بعلبك ، وهى نسيج قطن رفيع ، والمنسوجات التى تأتى من الموصل ، وهى التى حازت إعجاب الناس بسبب رقتها ومتانتها ويستخدمها علية القوم ورؤساؤهم لقمصانهم وبعد ذلك تأتى الفنادق التى تباع فيها أجمل الأقمشة الإيطالية مثل الحرير

الدمقس والمخمل والتفتاه والبروكار . وأؤكد لك بأننى لم أر مثيلا لها فى إيطاليا حيث صنعت» .

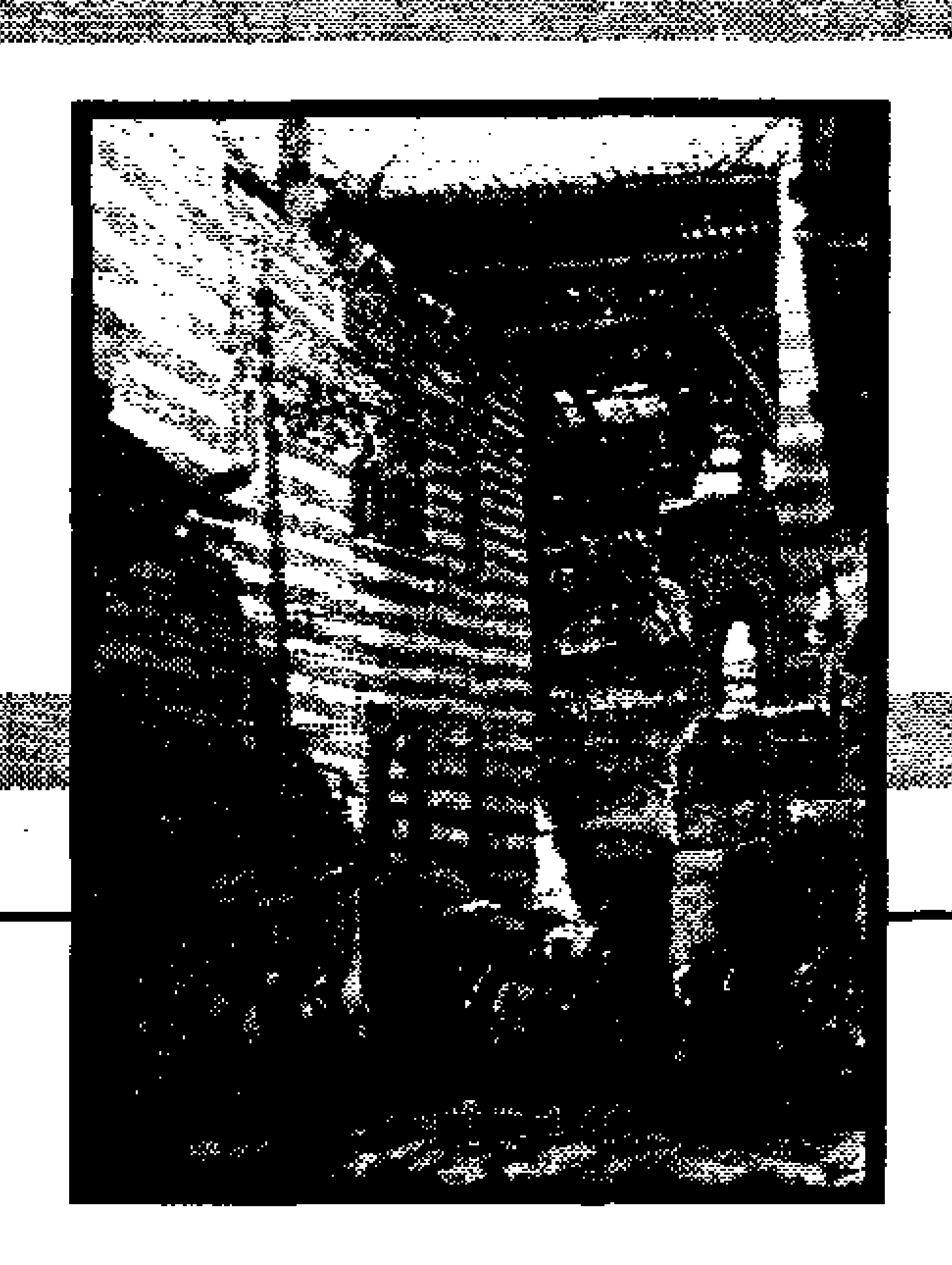
ويقول متعجبا عند حديثه عن تجار الروائح العطرية : إن هذه المنتجات كانت متوافرة بحيث إذا أراد الزبون أن يشترى درهم مسك عرض عليه التاجر مائة رطل لينتقى ويختار ، وكثيرا ماكانت تلك الأسواق تشهد مناسبات غريبة ، فإذا ماحدث وأنتج أحد الصناع عملا جميلا ، كان يرتدى رداء من الحرير ويطاف به بين الحوانيت بصحبة الموسيقيين فيما يشبه موكب النصر ، وقد شهد ليون الأفريقى موكبا لرجل صنع سلسلة لبرغوث احتفظ به مقيدا على قطعة من الورق . كما رأى أحد أعمال القوة العظيمة التى قام بها أحد السقائين الذين يسيرون فى الشوارع حاملين قربا من الجلد تتدلى من أعناقهم ، فقد تراهن مع شخص آخر أن يحمل قربة مملوءة بالماء تشد إليه بسلسلة من الحديد ، وفعلا استمر هذا الرجل طيلة سبعة أيام متتابعة من الصباح إلى المساء يحمل هذه القربة التى علقت بسلسلة على كتفه العارى ففاز بالرهان وحاز شرف موكب نصر عظيم تصحبه الموسيقى وجميع السقائين فى القاهرة الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف سقاء .

الوكالات

الوكالة وحدة تعتبر سوقا فى حد ذاتها ، ويمكن أن نعتبرها فندقا أيضا ، فالوكالة عبارة عن بناء كبير مربع الشكل فى معظم الأحيان أو مستطيل ، يتكون من عدة طوابق ، الطابق الأسفل يتكون من مخازن متجاورة تستعمل كدكاكين لعرض البضاعة أيضا ، وفوق الحوانيت حجرات صغيرة تستخدم كمساكن للتجار الغرباء الذين قطعوا ساعات طويلة عبر بلاد متعددة لعرض بضاعتهم فى القاهرة ولعل أشهر وكالة بقيت حتى الآن هى وكالة الغورى التى أعيد ترميمها وتتبع وزارة الثقافة حاليا ، ويقيم بها عدد من الفنانين الذين يستخدمون حجراتها

كمراسم ، كما توجد بها بعض الأقسام الفنية التى ترعى العدد القليل المتبقى من الصناعة المنقرضة ، كصناعة خشب الخرط ، وتعشيق الزجاج بالجبس ، والتطعيم ، وفى بداية القرن التاسع عشر كان يوجد فى مصر أكثر من مائتى وكالة ، معظمها أزيل الآن ، ولكن هنا وكالات قديمة جاء ذكرها فى خطط المقريزى ، مثل وكالة الصابون المجاورة لباب النصر ، والتى ذكرها تحت اسم خان قوصون ، وكالة بازرعة بالجمالية ، ووكالة القطن ، وكل وكالة لها باب واحد يقفل ليلا ويحرسه بواب .

لقد ولت أسواق القاهرة القديمة والتى كانت تعكس فى تصميمها أسلوب حياتها قيما وعادات لم تعد موجودة الآن ، وإذا كانت الأصالة لاتزال تتشبث ببعض أركان المدينة القديمة ، فإننا نجد فيها بقايا عتيقة تحاول الثبات فى وجه رياح التغيير والنيون والبوتيكات ، وذلك الطوفان النابع من كل أرجاء الدنيا .



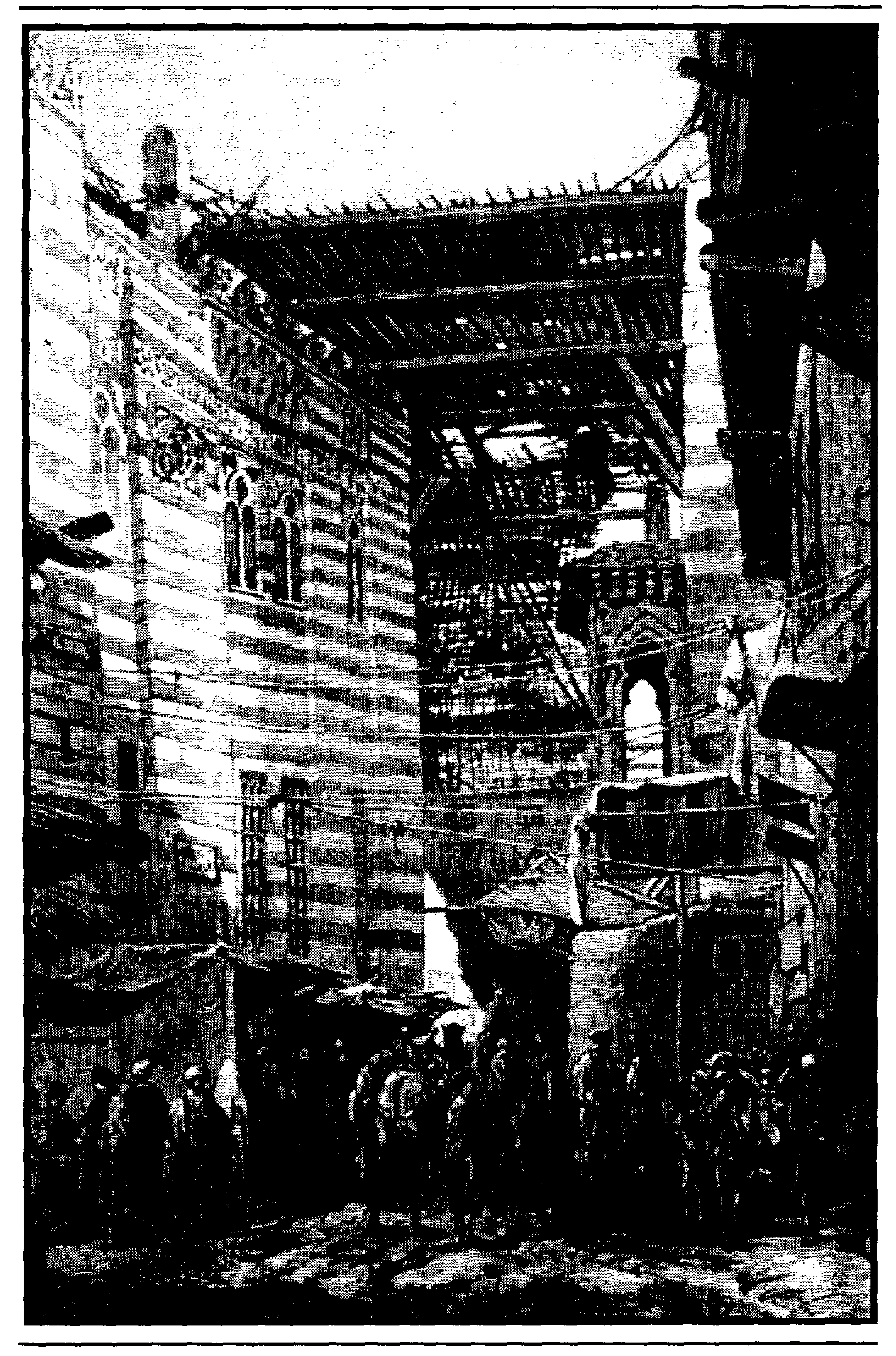
مسجد المؤيد

إذا ذهبت إلى شارع الغورية ، مشيت فيه ، وقبل أن تقترب من نهايته ، ستطالعك مئذنتان رشيقتان ، تقومان فى الفراغ ، لاتعلوان فوق مسجد ، إنما فوق باب زويلة أحد أبواب القاهرة القديمة ، ومحافظة القاهرة تتخذ من الباب والمئذنتين شعارا .

تبدو المئذنتان رشيقتين ، كأنهما حارسان غامضان على الماضى البعيد ، وكنوزه . . كأنهما ترقبان المارة من تحت البوابة ، والرجال والنساء ، والأطفال ، ترصدان ماجرى وماحدث خلال مايقرب من خمسمائة وستين سنة عمر تواجدهما هنا .

هاتان المئذنتان تنتميان إلى مسجد المؤيد شيخ المحمودى ، الذى يقع بجوار باب زويلة ، وربما تبدو المئذنتان والمسجد ، وماراه من أحداث عندئذ ستدب الحياة فى الحجارة ، ستنطلق ذرات التراب ، وتقطر دما . . إذن لنبدأ الرحيل ، مع تاريخ واحد من أجمل المساجد . .

«حدث فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، أن وقعت فتنة كبيرة فى القاهرة بين المماليك ، وكانت الفتن كثيرة الحدوث وقتئذ ، تعودها الناس ، فلا يخلو شهر من تمرد بعض المماليك فى القلعة ، ونزولهم إلى



الأسواق يخطفون مابها من أطعمة وبضائع وثياب ، وعمائم للناس ، وأحيانا كانوا يخطفون النساء والغلمان ، ليفعلوا بهم الفاحشة ، كل هذا لإثارة الاضطراب والذعر .

ولكن فتنة الأمير منطاش كانت من الفتن الكبيرة فى عصر السلطان الناصر برقوق ، وقد ذكرها مؤرخو العصر كعلامة بارزة أمثال المقريزى ، وابن إياس ، وابن تغرى بردى ، وابن حجر .

المهم أن الأمير منطاش قبض خلال هذه الفتنة على العديد من المماليك التابعين للسلطان الظاهر برقوق وكان بين هؤلاء المماليك واحد يقال له شيخ المحمودى .

كان شيخ المحمودى وقتئذ رجلا ناضجا ، جاء إلى مصر وعمره اثنا عشر عاما ، وعرضه تاجر الرقيق على الأمراء فلم يشتروه لأن التاجر طلب ثمنا غاليا فيه ، ولأنه جميل الصورة ، هادئ الطباع ، اشتراه الخواجا محمود شاه البزدداری تاجر المماليك ، ولأن التاجر تعامل مع تاجر ، فكان الثمن الذى دفعه الخواجا محمود يسيرا ، ثم قدمه هدية إلى الأمير برقوق قبل أن يتسلطن ، وبرغم هذا استمر ينسب المحمودى إلى الخواجا ، إذ أن المماليك كانوا ينسبون لأسيادهم .

نتابع المملوك شيخ المحمودى ، فنراه يتدرج فى التعليم ، القراءة والفقة والفروسية ، واللعب بالرمح ، ورمى النشاب ، والضرب بالسيف والمصارعة ، وأتقن هذا كله ، حتى أصبح أميرا على عشرة مماليك ، وعندما وقعت فتنة منطاش أمسكه وقيده فى الحديد ، وأرسله إلى واحد من أبشع سجون مصر وقتئذ . .

سجن شمائل

لنقف قليلا تحت بوابة زويلة ، يمتد سور الجامع المرتفع بحذاء البوابة ، فى اتجاه باب الخلق ، حتى ليبدو وكأنه جزء من سور القاهرة القديم ،

بينما يمتد ضلعه الشرقى مطلا على شارع الغورية ، حيث بوابة المسجد .

هنا ، فوق هذه الأرض التى يقوم فيها المسجد ، كانت توجد بعض مبان عتيقة ، أهمها سجن قديم ، اسمه «خزانة شمائل»

إلى هذا السجن الفظيع دفع بالأمير شيخ المحمودى ، وضعوه فى إحدى الحفر القذرة ، قيدوا يديه وساقيه وعنقه بسلاسل حديدية مثبتة فى الحائط ، وكان الظلام كثيفا ، والروائح كريهة ، وربما تأمل شيخ فى حالة المماليك وقتئذ ، لا يأمن واحد منهم على نفسه ، مهما علا قدره ، ومهما تولى من المناصب ، فى لحظة فى إغماضة عين ، ربما تقطع رقبته ، أو يلقى فى السجون .

ربما فكر فى أمور من هذه ، لكن تفكيره لم يستمر طويلا ، والسبب يذكره لنا المقريزى :

«فى السجن قاسى الأمير شيخ المحمودى من البق والبراغيث شدائد ، فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل مكان هذه البقعة مسجدا لله عز وجل ، ومدرسة لأهل العلم» .

ولم يمض الكثير ، حتى فشلت فتنة الأمير منطاش (أو مؤامرة بلغة عصرنا) وخرج الأمير شيخ المحمودى ، تقلب فى مناصب عديدة ، كما قاسى محنا وشدائد استغرقت من عمره وقتا ، ولكنه بالتأكيد لم ينس نذره الذى تعهد به ، وهو أن يجعل مكان السجن الرهيب مسجدا .

السلطنة

محدثنا الآن ، هو المؤرخ المصرى الفنان العظيم ، الشيخ أبو البركات محمد أحمد ابن إياس الحنفى المصرى ، لنستمع إليه إلى مايجرى فى عام ٨١٥ هجرية (١٤١٢ ميلادية) .

«فى يوم الإثنين ، أول شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة ، تولى الأمير شيخ المحمودى الملك بالمقعد الذى بباب السلسلة ، فكان أول من

بايعه من العلماء جلال الدين البلقينى ثم قدمت إليه خلعة السلطنة ، وهى جبة سوداء مطرزة ، وعمامة سوداء وتلقب بالملك المؤيد»

وفى بداية عهده ، وقعت عدة اضطرابات ، إذ أن مصر شهدت وقتئذ طاعونا جارفا ، من أشد الطواعين التى رأتها مصر حتى هذا التاريخ كان الناس يتساقطون فى الطرقات ، حتى إن الواحد قبل خروجه من بيته كان يكتب اسمه على ذراعه ، ليعرفه الناس إذا مات فى الطريق ، حتى الطيور فى السماء ، والحيوانات أدركها الطاعون ، ولم يكن الطاعون غريبا عن الناس فى هذا العصر ، كان أجدادنا يقاسون منه كل عام تقريبا ، حتى صارت له مواعيد فى الظهور ، ووقت معين يبلغ فيه حدة لاحدة بعدها .

وعندما اشتد أمر هذا الطاعون ، خرج السلطان المؤيد شيخ إلى الصحراء خارج القاهرة ، وصلى عارى الرأس فوق الرمال ، وانحنى باكيا ، متضرعا إلى الله كى يزيل الغمة والوباء عن الناس ، وقدم قربانا . .

مشهد رهيب ، وصفه لنا ابن إياس ، يرسم لنا صورة مؤثرة للعجز الإنسانى فى مواجهة الكوارث التى يحار فى فهم أسبابها وعلاجها أيضا صورة لسلوك الراعى المسئول عن رعيته ، هذا السلطان المملوكى الذى يخرج إلى الصحراء ، ويمرغ نفسه فى التراب ، ليزيل الله الآلام عن شعبه . . وتسجل كتب التاريخ العديد من الأعمال التى تتسم بالرحمة والتى قام بها المؤيد شيخ .

المسجد

بعد ثلاث سنوات من تولى المؤيد سلطنة مصر ، شرع فى بناء مسجده الكبير ، فبدأ بهدم سجن شمائل ، وبعض المبانى المجاورة له ، وهنا يجب رصد ملحوظة هامة ، وهى إقدام كل حاكم مصرى على تشييد بناء معمارى ضخم ينسب إليه ، لايقتصر الأمر على سلاطين

المماليك الذين شيد كل منهم مسجدا ، يتراوح فى حجمه وفخامته تبعا لطبيعة حكم السلطان ، من حيث استقراره فى الحكم مدة طويلة ، وحالة البلاد وشخصيته ، ألا يذكرنا هذا بفراعنة مصر العظام ، عندما كان الفرعون يقدم على تشييد بناء معمارى ضخم ، يقهر به الفناء ويضمن الخلود ، سواء كان البناء هرما مدرجا ، أو هرما أكبر ، أو معبدا ضخما ، أو بهو أعمدة فى معبد أو لوحات فنية دقيقة تنقش فى الصخر أو مسلات تقتطع من بطن الجبل ، خاصة إذا لاحظنا أن الأهرامات فى حقيقتها مقابر ضخمة ، أبنية حجرية شيدها الإنسان المصرى ليقهر الفناء بالمادة .

والمساجد التى أقامها

والمساجد التى أقامها سلاطين المماليك وأمراؤهم تضم مقابرهم أيضا ، وعندما تدخل من الباب الرئيسى لمسجد المؤيد ، تطالعنا تربته الرخامية قبل وصولنا إلى الإيوان الرئيسى للجامع ، وبجواره تربة ابنه إبراهيم وفى الجهة القبلية غرفة أخرى للدفن ، بها زوجة السلطان وابنته ، وكأن الداخل إلى المسجد إنما يجسد الموت ، وبدخوله الإيوان تبدو له الحياة رحبة ، فسيحة ، مشبعة بالضوء والخضرة ، وكأنه الفرج بعد الضيق ، أو الحياة بعد الموت .

وفوق مدفن السلطان المؤيد تقوم قبة حجرية شاهقة العلو ، تنتصب الجدران فى شموخ رهيب ، غامض ، كأن السلطان المؤيد يغالب الفناء ، يوجد لنفسه موقعا فى عصور تلت عصره ، تلاشى قبل أن يلحق بها .

هنا ، تحت هذه القبة الشاهقة ، حيث المادة ، حيث الروح والجسد ، كل ماينطق به الإعجاز المعمارى ، هنا تبدو قدرة مصر على فرض مضامينها الروحية ، حتى على الأجانب الذين يحكمونها ، انضموا إلى جانب المصرى فى صراعه الأبدى القديم ضد الفناء ، ومحاولته أن يضمن الخلود .

ولأن الحاكم قدراته أكبر ، إمكانياته أوسع ، فقدلجأ إلى كافة مايمكنه لتحقيق مايهدف إليه ، وهذا مافعله السلطان المؤيد شيخ .

المسجد الحرام

يقول ابن إياس :

«فلما بنى السلطان هذا الجامع حصل للناس بسببه غاية الضرر . .»

صورة غريبة يقدمها لنا ابن إياس ، إذ كان المؤيد يقصد بناء بيت من بيوت الله ، تشييد مسجد فلماذا يحدث الضرر بالنسبة للناس؟ لقد كان الأسلوب المملوكى فى الحكم المتسم بالتعسف والظلم ، يتسرب إلى أعمال الخير أيضا .

كان بناء المسجد يحتاج إلى كمية كبيرة من الرخام ، لهذا صار والى القاهرة يهاجم بيوت الناس ويخلع منها الرخام غصبا ، وهنا لندع ابن إياس مرة أخرى يتحدث :

«وصار المؤيد يكبس الحارات التى بها بيوت المباشرين ، وأعيان الناس بسبب الرخام وكان التاج والى القاهرة يهجم على الناس فى بيوتهم ، ومعه المرخمون (عمال الرخام) فيقلع رخام الناس طوعا أو كرها ، وأخرب دورا كثيرة ، وجعل باب السلطان حسن الذى خلعه ، وجعله على باب جامعه ، وأخذ التنور الكبير النحاس «النجفة» منها أيضا ، ودفع فى الباب والتنور خمسمائة دينار .

فكان ماقيل فى المعنى :

بنى جامعا لله من غير جله

فجاء بحمد الله غير موفق

كمطعمة الأيتام من كد فرجها

فليتك لاتزنى ولاتتصدق»

سيدى إبراهيم

فى ربيع الآخر ، عام ٨٢٣ هجرية . .

طلع أحد الموظفين الكبار إلى السلطان ، وأخبره أن الأمراء يرغبون فى إقامة ابنه إبراهيم سلطانا بدلا منه ، بعد أن حقق انتصارات كبيرة على بعض المتمردين فى بلاد الشام واقترح على مؤيد شيخ أن يتخلص من ابنه ، وفعلا قام السلطان بدس السم له فى الحلوى ، وكان السم من النوع البطىء ، فبدأ المرض يحل بابن السلطان وعندما اشتد به ندم مؤيد شيخ على مافعله ، ولكن السهم نفذ ، إذ اشتد النزع بإبراهيم ، ومات فى ليلته الخامسة عشر من جمادى الآخرة ، فى نفس السنة .

يقول ابن إياس :

«أخرجت جنازته من القلعة ، ومشت قدامه الأمراء ، وأرباب الدولة ، من القلعة إلى الجامع الذى أنشأه والده ، ودفن داخل القبة التى به ، وقام الخطيب فوق المنبر ، وخطب خطبة بليغة ، ثم روى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لما مات ولده إبراهيم عليه السلام فقال :

«إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولانقول إلا مايرضى ربنا ، وإننا بفراقك ياإبراهيم لمحزونون» ، فلما سمع السلطان ذلك ، وضع منديله على وجهه وبكى . .

بكى السلطان مؤيد الشيخ . .

وبكى الناس على إبراهيم ابنه . .

رقد إبراهيم فى تربته ، تحت القبة التى لابد أن تجتازها قبل دخول الجامع ، وفى نفس السنة مات السلطان ، ودفن إلى جوار ابنه . . والآن نقف أمام مدفنيهما ، مدفن السلطان المحاط بسور خشبى ، ومدفن إبراهيم الأصغر منه حجما ، قتل الأب ابنه حتى لايلى الحكم بعده ، وجمعتهما هذه الرقدة الأبدية . . والآن . . لندخل الجامع . .

الإيوان الكبير

.. يفاجئنا الاتساع الرحيب ، والفضاء الوديع الذى يملأ فراغ المسجد من الداخل .. نحن الآن تحت الإيوان الشرقى ، تقوم حولنا أعمدة الرخام الجميلة التى تحمل سقفا مزدحما بأبدع النقوش الإسلامية .. كان للجامع أربعة إيوانات تحيط بالصحن كلها تخربت ، امتدت إليها يد الفناء ، ولم يبق إلا هذا الإيوان الشرقى ، الإيوان تغمره الزخارف من الأرض حتى السقف ، الجدران محلاة بالخزف ، والكتابة تغطى السقف .

نقف أمام المحراب ، الرخام يكسوه تماما قطع صغيرة متعددة الألوان وبجوار المحراب منبر خشبى طعم بالعاج والصدف ، الإيوان لايبهر بمجرد عظمة العمارة فيه ، العمارة هنا لاتحدث أثرا فى النفس ، إنها الرهبة ، الخشوع ، العمارة هنا تجبرك على قبول دعوة للتأمل ، من خارج الشبابيك تأتى أصوات الغورية ، كأنها تمر بعدة مرشحات عازلة قبل أن تصل إلى أذنيك ، وعندما تسمعها هنا ، عندئذ تنتمى هذه الأصوات إلى العصر الذى شيد فيه المسجد ، يساعد على هذا أن هذه الأصوات بالتأكيد لم تتغير كثيرا عما كان الامر عليه وقت بناء المسجد ، فالعربات والمركبات الآلية لاتمر من شارع الغورية إلا نادرا ..

نخرج من الإيوان الشرقى ، ليس إلى الخارج ، ولكن إلى وسط المسجد ، حيث تطالعنا حديقة ، خضرتها غريبة ، وتلقى الحديقة هنا ظلالا مهيبة على طبيعة المكان ، تجعل للرهبة بعدا آخر ..

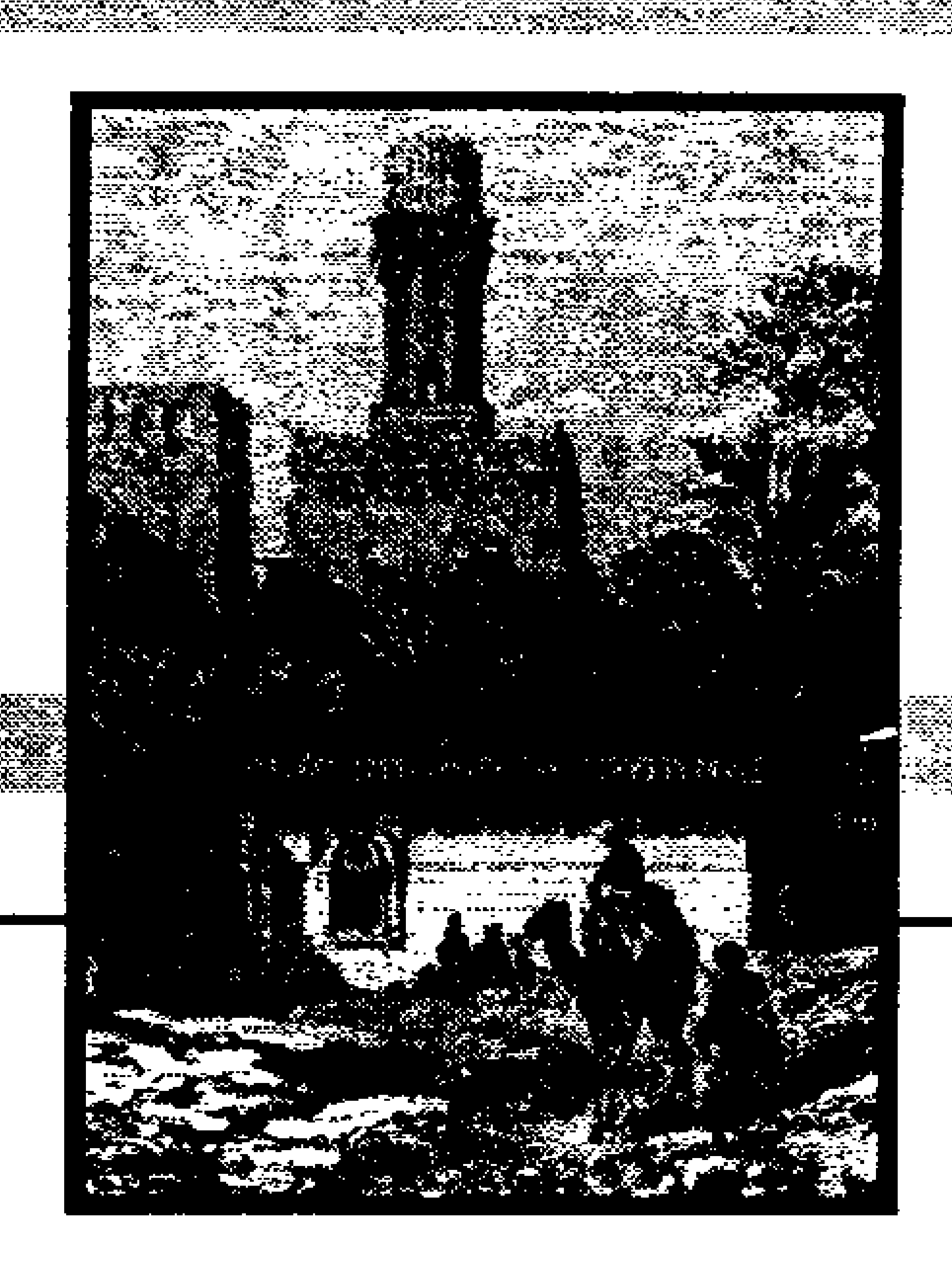
السكر

وفى صحن المسجد ، نرى فسقية ، من الرخام بنيت لتكون ميضأة ، نقترب منها ونحن نذكر حديث مؤرخنا العظيم ابن إياس بعد انتهاء عمارة مسجد المؤيد :

«ثم إن السلطان نزل إلى هناك وأقام إلى بعد العصر وأمر السلطان أن تملأ الفسقية التى فى صحن الجامع سكرا ، فملئت ، ووقف الأمراء يفرقون السكر على الناس بالطاسات» .

نذكر هنا ونحن نرى أحد الرجال يتعرى ، ويجلس القرفصاء ليتبول فى الميضأة ، وآخر يغسل تحت إحدى «الحنفيات» طبقا به بقايا أطعمه ، وإذا مددنا النظر فسنلمح بالأرضية بقايا ونفايا قذرة .

أحقا ملئت هذه الفسقية يوما ما بالسكر وأخذ منه الناس ؟



مسجد الحاكم بأمر الله

« . . الآن ، يوجد فى القاهرة القديمة مسجد كبير ، فسيح ، بطلت منه شعائر الصلاة منذ قرون ، وصلنا من العصر الفاطمى ، وكما لاقى صاحبه ظلما فادحا من المؤرخين ، فإنه يعانى الآن وحدة وهوانا لامثيل لهما ، فأعمدته متهدمة ومئذنتاه النادرتان تسكنهما الوطاويط ، وفوق قسم منه أقيم بناء قبيح لمدرسة ابتدائية ، مدرسة السلحدار الابتدائية ، وفوق قسم آخر مخزن ، غير أن المسجد الفسيح يحتفظ بهيبة غامضة تتسق مع سيرة صاحبه التى يلفها نفس الغموض والهيبة ، إن أطلاله القديمة تضم بين ثناياها أسرار هذا العهد البعيد المثير .

قبل الموت

سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) بدأ الخليفة العزيز بالله الفاطمى فى إنشاء مسجد خارج أسوار القاهرة ، لكنه لم يتم فى عهد هذا الخليفة ، توفى عام ٣٨٦ هـ (٩٩٦م) ، وكان عمر الحاكم وقتئذ أحد عشر عاما ، يقول المؤرخ ابن خلكان : إن الحاكم بأمر الله قال لجليسه وصنيعه المؤرخ «المسبحى» الذى روى عنه :

«استدعانى والدى قبل موته ، وعليه الخرق والضماد . فاستدنانى إليه ، وقبلنى ، وضمنى إليه وقال : واغمى عليك ياحبيب قلبى ،



ودمعت عيناه ثم قال : امض ياسيدى والعب فأنا فى عافية ، قال الحاكم : فمضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه ، فبادر إلى برجوان وأنا فى أعلى جميزة كانت بالدار ، فقال برجوان : « انزل ، ويحك ، الله فينا وفيك» فنزلت ، فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض وقال : «السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» . . ولأن الحاكم بأمر الله كان صغير السن ، فقد طمعت القوى السياسية الموجودة وقتئذ فى السيطرة عليه ، وكان الصراع محتدما بين طائفتى المشارقة ، والمغاربة ، وفى وسط هذا الواقع المضطرب كان هناك خصى أبيض اسمه «برجوان» أحد الخدم البيض الذين جلبوا من أوربا ليعملوا فى القصور الإسلامية ، تدرج «برجوان» حتى وصل إلى منصب أستاذ ، ثم عمل على إزاحة منافسيه ، وكان سياسيا موهوبا فبدأ يستميل إليه العواطف المتنازعة ، وفعلا تمت له السيطرة على مقاليد الأمور وأصبح يدير دفة الأمور فى الدولة ، وتجاهل الخليفة صغير السن ، لم يقم له أى اعتبار ، ثم بدأ يغرق فى الملذات ، غرق فى الملاهى ، والمتع ، ولأنه كان مهيمنا على كل شىء فقد أصبحت الفوضى تعم كل شىء ، ويبدو أن إغراء الحكم ، والإغراق فى الملاهى ، قد حجبا عن عينى «برجوان» ملامح شخصية الحاكم بأمر الله ، هذا الفتى الطويل ، المتسع العينين ، صاحب النظرات النفاذة ، الذى يميل دائما إلى التأمل ، فى هذه الفترة كان الحاكم قد تجاوز مرحلة الصبا ، بدأ يدخل مرحلة شبابه ، ولأنه خارق الذكاء ، جاد فى تناوله للأمور ، لم يغب عنه أمر مايحدث . لكنه كتم مايراه ، لم يفصح لأحد ، ولم يشك ، قرر أن يعمل فى صمت ، أن يتخلص من هذا الداهية الذى يسيطر على الأمور ، ويقودها نحو خراب شامل ، إذن لابد أن يتخلص من برجوان . غير أن الدافع لديه لم يكن سياسيا محضا ، أو بهدف سيطرته على مقاليد الدولة ، لقد كانت أهدافه أعم وأشمل ، وهذا يبدو بوضوح فى الخطوات العملية التى بدأ فى تنفيذها بعد تمكنه

من السلطة فى تلك الفترة كان عقله يضج بالمثل ، كان يحلم بإقامة عالم خال من المظالم ، خال من المجاعات ، من الأوبئة ، عالم تتحقق فيه العدالة ، عالم يذوب فيه المحكوم فى الحاكم ، إن الواقع حوله يضج بكل مايستنفر روحه الطموحة الى عالم مثالى يقوم فوق أرض الواقع ، وهو ليس حاكما عاديا ، إنه خليفة ، وإمام المؤمنين ، ومرتبة الإمامة عند الفاطميين تجعل الخليفة من الناحية التأويلية فى مستوى أعلى من مستوى غيره من البشر لأن الأئمة هم حجج الله على خلقه وهم الداعون إلى توجيه الله تعالى وتنزيهه .

خطة التخلص

لاشك إذن أن الإمام أو الخليفة الفاطمى يتمتع بموقع استثنائى بالنسبة لبقية البشر ، إذن ليحاول من خلال موقعه هذا وماينفرد به من سلطات وهيبة وحصانة أن يقيم عالمه المثالى . لكن تبقى عدة عقبات ، منها ضرورة سيطرته على جهاز الحكم حوله ، ثم الوسيلة إلى خلق هذا العالم المثالى؟

لكن كيف وهو بلا حول أو قوة؟

بتأن شديد وضع خطة محكمة للتخلص من «برجوان» استدعى أحد رجاله المخلصين ، زيدان صاحب المظلمة ، أى من يحمل المظلمة فوق جواد الخليفة فى المواكب ، التقى به فى البستان متصلا بالقصر عن طريق سرداب يمتد تحت الأرض ، فى ذلك البستان رتب كل شيء . . وفى يوم آخر ذهب إلى البستان ومعه برجوان فى هذه المرة ، لقد اعتاد برجوان مصاحبته أثناء تفقده لبعض المنشآت الجديدة ، طافا بين الأشجار ، تأملا الخضرة ، تحدثا ، فجأة . . ظهر زيدان ، تقدم مقبلا يد برجوان ، فى نفس الوقت يتحسس ملابسه خوفا من أن يكون مرتديا درعا حديديا ، تأكد أن برجوان لايلبس شيئا ، بسرعة . طرحه أرضا ، قتل برجوان . وبسرعة بدا الحاكم يتحرك بذكاء .

«وبكر الناس إلى القصر فوقفوا بالباب ، ونزل القائد أبو عبد الله الحسن بن جوهر القائد وحده إلى القصر وأذن للناس ، فدخلوا إلى الحضرة ، وخرج الحاكم على فرس أشقر ، فوقف فى صحن القصر قائما ، وزيدان عن يمينه وأبو القاسم الفارقى عن يساره ، والناس قيام بين يديه ، فقال لهم بنفسه من غير واسطة : إن برجوان عبدى استخدمته فنصح فأحسنت إليه ،ثم أساء فى أشياء عملها فقتلته ، وأنتم عندى الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم .

ثم أصدر سجلا إلى سائر أهالى مصر ، تلى بعد صلاة الجمعة يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٢٩٠ هـ (٦ إبريل سنة ١٠٠٠ م) . تلى السجل من فوق منبر المسجد ، مسجد الحاكم بأمر الله الذى كان فى بداية عمره الطويل يقوم خارج أسوار القاهرة ، فى سقفه تتلألأ مئات القناديل ، ومن مئذنتيه اللتين شيدتا على نمط منار الإسكندرية الذى كان سليما لم يتهدم بعد يدوى صوت اثنين وخمسين مؤذنا فى أوقات الصلاة .

من فوق المنبر نصح الناس بالعودة إلى أعمالهم ، وقال أنه منذ الآن سيباشر كل شىء بنفسه ، وأن بابه مفتوح أمام الناس كلهم ، لقد بدأ الحاكم خطواته العملية نحو تحقيق العالم الذى يطمح إليه ، فى الشهور الخمسة التالية لمقتل برجوان تخلص من الأتباع الأقوياء الذين كانوا يمثلون ضغوطا عليه ، أصبح قابضا على مقاليد الأمور بيد من حديد ، لنر إذن ماسيفعله ، ماالذى قام به من أجل خلق عالم حلو ، رائع بلا أوجاع ، وهنا يجب أن نلاحظ عدة اعتبارات ، منها طموح الحاكم بأمر الله ، وظروف عصره ، وسبقه للواقع المحيط به ، ثم الوسائل التى اتبعها والتى كانت تبدو حينا متسقة مع زمنه ، وفى أحيان أخرى تبدو غير مفهومة لأنها تسبقه .

نحو عالم مثالى

- ١ -

. . يخرج الحاكم بأمر الله راكبا حماره ، يتجه إلى المسجد الذى لازالت بعض الأعمال التكميلية تجرى فيه ، إن موكبه يلفت النظر ، لاتحيطه أى

مظاهر للأبهة والفخامة التى تعود أهل القاهرة رؤيتها عند خروج الخلفاء الفاطميين إنه يمشى بدون حرس ، ووراءه غلام اسمه مفلح يحمل الدواة والسيف والورق فى كيس معلق فى كتفه وهو يمشى وراءه ، يكتب مايتقدم به الناس من شكاوى ، كان الحاكم يقف أمام الدكاكين ، والبيوت ، يتحدث مع الناس ، وخلال ذلك يحل بعض المشاكل ينصف بعض من ظلموا ، وكانت الناس تجرؤ على الاقتراب منه ، والوقوف بين يديه .

- ٢ -

يأمر بتعطيل المطابخ الضخمة ، والكف عن الإنفاق على الأطعمة الفاخرة .

يبدأ الناس فى الانتباه إلى هذه الشخصية غير العادية .

- ٣ -

.. الحاكم بأمر الله يستدعى أحد القضاة . لقد سمع عنه أمرا عجيبا ، إنه يلبس طرطورا ركب فيه قرنين من قرون البقر ، يضعه إلى جواره لإخافة الناس ، ويسأله الحاكم :

«ماهذا الأمر الذى ابتدعته؟»

ويقول القاضى :

«ياأمير المؤمنين ، أشتهى أن تحضر مجلسى يوما وأنت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسى من الناس ، وإن كنت معذورا فيهم ، وإلا .. فعاقبنى بما تختار ..»

ويذهب الحاكم بأمر الله إلى مجلس القاضى ، ويشاهد مايقاسيه فى سبيل أخذ الحق لمستحقيه ، فأقره على مايفعله ، وكاد أن يلبس القرنين لينطح بهما أحد المذنبين .

إن الحاكم بأمر الله يتابع جميع قضاته ، كان مهموما بتحقيق العدالة . ورمى بثقله لتحقيق هذا الهدف ، وكأنه يود لو أنصف هو جميع المظلومين .

- ٤ -

هاهو يجلس فى وقت معين يعرفه الناس عند أحد أبواب القصر ، يجىء المتظلم ، يقف صائحا ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، يأمر عندئذ بإحضاره ، يصغى إلى شكواه ، يأمر بتحقيق عاجل .

ملامح شخصية

- ١ -

القامة مديدة ، كما تصفها لنا مصادر التاريخ ، العينان واسعتان ، براقتان مشعتان ، أقوى القلوب لاتجرؤ على الصمود طويلا أمامهما ، الصوت جهورى عميق ، يميل إلى التأمل ، كان يحب أن يمشى بمفرده ، يصعد إلى جبل المقطم ، وبالقرب من حلوان يقوم بناء شيده خصيصا ليرصد منه النجوم والكواكب ، ربما كان فى نفس الوضع الذى يقوم فيه الآن مرصد حلوان المشهور ، إنه ملم بعلم النجوم ، فى هذا الوضع يحتجب أياما كثيرة عن أهل مملكته ، لايحضر مجالس الجدل ، له سعى فى إظهار كلمته ، فى عهده خطب له فى خراسان .

إنه يحب العلماء ، ويقربهم ، وماكان يؤرقه فى ذلك العصر حدوث المجاعات ، بمجرد انخفاض ماء النيل عن معدله عند الوفاء تختفى الغلال ، تقل مساحة الأرض المزروعة فيقاسى الناس شدائد عظيمة ، إنه مهموم بوضع حد للمجاعات ، حدثوه عن شخص من العراق اسمه أبو على الحسن بن الهيثم ، قالوا له : إنه نابغ فى فن الهندسة ، وأنه قال ، لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص ، فأرسل إليه الحاكم أموالا ، ودعاه إلى مصر ، فلما وصل خرج إليه بنفسه وأكرمه وسيره مع جماعة من الصناع ، وصلوا حتى أسوان ، لكن ابن الهيثم يبدو أنه لم يستطع تحقيق مافكر فيه ، لم تساعده إمكانيات عصره على تحقيق مشروعه ، هل فكر

ابن الهيثم فى إقامة سد عال يعترض مجرى النهر وينظم توزيع مياه النهر؟ ربما ، خاصة وأن الخزانات والسدود لم تكن غريبة على مصر ، إنها معروفة منذ أيام الفراعنة ، لكن يبدو أن ابن الهيثم أراد تحقيق عمل ضخم لم تساعده الإمكانيات المتاحة على إتمامه ، ولم يضايقه الحاكم بأمر الله ، إنما أبقاه فى مصر مكرما ، إنه يتخذ فى نفس الوقت إجراءات عديدة لتخفيف الواقع الاقتصادى على رعاياه ، يلغى العديد من الضرائب التى فرضت منذ عهد الولاة العباسيين ، وعندما تقع المجاعة يبذل جهدا خارقا لتثبيت أسعار العملات المتداولة ، ثم يقيم سعرا لكل شىء بنفسه ، وفى إحدى المرات التى اختفى فيها القمح ، ركب حماره متوجها إلى المسجد ، وقبل تحركه خطوة قال : (أنا ماض إلى الجامع . فأقسم بالله : لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعا يطأه حمارى مكشوفا من الغلة لأضربن رقبة كل من يقال لى أن عنده شيئا منها ولأسرقن داره . . وانهبن ماله) .

فى عودته كانت الغلال تملأ الأسواق .

كان المنصور أبو على الحاكم بأمر الله ، عادلا ، متسامحا ، عالما ، صبورا ، ولكن التاريخ الذى يكتبه السادة لم يحتفظ له بصورته الحقيقية ، تماما كما فعل مع على بن محمد صاحب الزنج ، وكل من انحاز إلى جانب العدالة والناس ، كانت إجراءات الحاكم بأمر الله من أجل تحقيق عالم مثالى تهدد مصالح السادة . وهذا ما أدى إلى قتله ، ولكن مسيرته ظلت تؤرقهم على مر العصور ، فقلبوا وشوهوا وسخروا .

من هنا أرى أنه لاحقيقة فى التاريخ ، الواقعة تفسر من أكثر من زاوية ، الحقيقة نسبية ، سيرة الشخص لاتصل للعصور التالية كما هى ، يخضعها كل مؤرخ لتصور خاص ، تتدخل فى تقديره المصلحة والعقيدة ، وسيرة الحاكم مثل حى على ذلك .

لكن ماهى الإجراءات التى اتخذها الحاكم بأمر الله وسخر منها التاريخ؟ لنلق نظرة على كل منها ، والظروف التى أدت إليه .

لماذا الأوامر؟

أمر «١»

« يمنع الحاكم بأمر الله أكل الملوخية والجرجير والقرع ، والمتوكلية ، وأم الخلول ، والترمس العفن ، كما يأمر بقتل الخنازير ، ويمنع عجين الدقيق بالرجل » .

من الواضح أن سبب منع معظم هذه الأطعمة صحى بحت ، فكثير منها كان يتسبب عنها أضرار صحية بالغة ، خاصة إذا راعينا الحالة الصحية وقتئذ وتفشى الأوبئة ، ويقول بعض المؤرخين : إن منع الملوخية والمتوكلية كان بسبب حب معاوية لهما ، ومعاوية خصم آل البيت ، وخصم الفاطميين .

أمر «٢»

«تمنع زراعة الكروم»

أراد الحاكم بأمر الله تحريم شرب الخمر ، وكانت منتشرة جدا فى ذلك الوقت بسبب حالة الرخاء الاقتصادى التى حدثت بعد الفتح الفاطمى لمصر . كما أن الدين الإسلامى ينهى عن الخمر .

أمر «٣»

«يمنع الحاكم بأمر الله صناعة النعال الحريمى ، ومنع النساء من الخروج ليلا ، ومنعهن من كشف وجوههن وراء الجنائز والخروج إلى حلقات الرقص خارج المدينة» .

استمر منع النساء من سنة ٤٠٤هـ (١٠١٣م) حتى خلافة الظاهر عام ٤١١ هـ (١٠٢٠م) أى أنهن قضين سبع سنوات محبوسات ، وكان الدافع لاتخاذ هذه الإجراءات أخلاقيا ، وهو محاربة الفساد من أجل الحفاظ على التقاليد الدينية ، من ناحية أخرى اتخذ الحاكم بأمر الله عدة إجراءات أخرى ، منها إنشاء دار لأموال اليتامى ، لايدفع من مال اليتيم إلا إذا حضر أربعة من ثقات القضاة ، وأمر بقتل الكلاب ، فقتل منها مالايحصى حتى لم يبق منها بالازقة والشوارع شيء ، وطرحت بالصحراء وشاطئ النيل ، وأمر بكنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور فى كل مكان ، وتلك إجراءات صحية ، وفى ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) أمر بإضاءة القناديل فى الليل بسائر الحوارى والأزقة بالقاهرة ، وهنا نجد بعض المؤرخين يفسرون هذا الإجراء الذى يستهدف الحفاظ على الأمن بأن الحاكم أمر بقلب النهار إلى ليل ، والليل إلى نهار ، لقد أثرت الرواية التاريخية المغرضة فى وجدان الشعب ، فنجد بعض الروايات المتوارثة في القاهرة القديمة تقول : إن الحاكم بأمر الله قلب الليل إلى نهار ، وإنه ركب بعد شروق الشمس (أى غروبها طبقا للنظام الجديد ليرى هل يلتزم الناس بأوامره ، والنوم نهارا « باعتباره ليلا) وفعلا . . وجد الطرقات خالية ، والدكاكين مغلقة ، لكن إسكافيا عجوزا كان لايزال يعمل ، وفى الضوء النهارى أشعل مصباحا صغيرا ، اقترب منه الحاكم متسائلا عن السبب فى مخالفته الأوامر ، فرفع الرجل إليه عينين ضعيفتين وقال :

- أصلى سهران بعض الوقت !!

استخدام الشدة

فى أواخر عصر الحاكم ، ظهر بمصر عدد من الدعاة ، بدأوا ينشرون تعاليم غريبة ، مؤداها اعتبار المنصور أبو على الحاكم بأمر الله فوق مستوى البشر ، وأن أحدهم ، وهو محمد بن إسماعيل الذى لقب بالدرزى يؤمن بالتجسيم والحلول ، فروح آدم تجسدت عليا رضى الله

عنه ، وهذه انتقلت إلى الحاكم بأمر الله ومن قبله أبيه وجده ، دعا الناس إلى عبادة الحاكم ، واستطاع الدرزى نشر دعوته بين عدد من الأتباع بلغ عددهم حوالى ستة عشر ألفا ، لقد طرد هؤلاء من مصر ، واستقروا بالشام حيث يعيشون إلى يومنا هذا فى انتظار عودة الحاكم بأمر الله ، وهم الدروز . . وبالتأكيد ، لم يصلنا نص واحد ينسب إلى الحاكم أنه ادعى الألوهية ، وتلك مسألة شائكة ، تدخلت فيها عوامل عديدة ، إذ أن الدعاة أصحاب هذه الفكرة معظمهم من أصل فارسى ، حيث الإيمان قوى بتناسخ الأرواح والحلول ، إلى جانب فكرة المهدى المنتظر ، ونزول المسيح فى آخر الزمان ، ربما وجد هؤلاء فيما يقوم به الحاكم وفى شخصيته المثالية أرضا خصبة لأفكارهم ، غير أن الحاكم انزعج من هذه الدعوة ، حتى إنه استخدم الشدة وقتل دعاته الذين غالوا فى آرائهم ولم يدفعوا عنه ماقيل ، وفى مرحلة معينة أحس بفداحة الخطر الذى تمثله هذه الدعوة على جهوده من أجل العدل والطمأنينة بين البشر ، فاعتزل الدنيا كلها ، كان يجلس فى مكان مظلم لايدخل عليه أحد ، أو يخرج هائما على وجهه فى الصحراء ، أو يصعد إلى جبل المقطم يستغيث بالله ، ويناجى ربه ، وهنا نرى الحاكم زاهدا فى الدنيا ، لايحلق شعره ، أظافره طويلة ، لايغير رداءه إلا كل مدة ، وبرغم ذهوله عن الدنيا ، وضيقه بما يجرى ، لم تفتر عزيمته فى محاربة الذين يحاولون تشويه مسيرته ، وظل يحارب حملة هذه الدعوة حتى يوم خروجه الأخير إلى المقطم . .

المشهد الأخير

اليوم ، ثلاثاء ١٣ فبراير سنة ١٠٢١م سنة ٤١١ هـ ، الليلة يخرج الحاكم بأمر الله من باب القصر الشرقى الكبير ، ركب حماره ، متوجها إلى خارج القاهرة ، المدينة هادئة ، وثمة غموض فى الجو ، ويبدو أن أم الحاكم أحست بما سيقع ، تعلقت به قبل خروجه ، رجته بحرارة أن يبقى ، ألحت عليه ، لكنه أصر على الخروج .

أمام باب القصر ، وقف جماعة ينتظرونه كل ليلة ، يصاحبونه فى سيره ، وإذ يقترب من الجبل يعودون ، يستمر بمفرده ، أثناء مشيه ربما اعترضه بعض الرعايا ، يقدمون له الشكاوى ، يقف الواحد منهم على يمينه ، يشرح له متاعبه ، يصغى الحاكم ، إن ذاكرته قوية تستوعب مايسمعه ، إذ يعود إلى القصر يعمل على حل هذه المشاكل ويطلب من الأهالى انتظاره فى الليلة التالية بنفس الموضع حتى يخبرهم بما اتخذ من قرارات .

الليلة ظلامها كثيف ، النجوم كثيرة فى السماء ، عند بداية الجبل عاد مرافقوه ، وأوغل الحاكم فى الدروب المهجورة .

يقال أنه نظر طويلا إلى السماء ، ثم صاح «ظهرت يامشئوم» . .

ومنذ هذه اللحظة لم تقع عليه عين بشر حتى الآن ، لم يعثر له على جثة ، وازداد الموقف غموضا .

. . وعندما نقف الآن فى صحن المسجد الفسيح المتهدم ، تهيمن علينا مسيرة الحاكم بأمر الله ، كأنه يرقبنا من مكان خفى ، لقد صلى هنا ، ومشى هنا ، ومن أمام هذا المسجد صار إلى الجبل قبل غيبته ، وإلى المسجد يجيء بعض الناس من الهند بين فترة وأخرى ، من بقايا الفاطميين هناك ، يحجون إلى مسجد الخليفة الفاطمى ، إن الأعمدة تقاوم جاهدة البلى ، نلمح الإعياء فوق جدرانه ، والخراب حول مئذنتيه ، يجول بالذهن خاطر ، هل يعود الحاكم يوما ليعمر هذه الأطلال . . ؟وليسأل نفسه ، كيف تحول هذا المسجد الفخم إلى تلك الأطلال . . ؟

ماجرى للمسجد

عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢م) :

بدر الجمالى أمير الجيوش والوزير الفاطمى يجدد أسوار القاهرة ، أصبح مسجد الحاكم داخل الأسوار ، التصق الجدار الشرقى منه بالسور فى المنطقة التى تقع بين باب الفتوح وباب النصر .

عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م) :

يقع زلزال خطير بالقاهرة ، يخرب المئذنتين ، ينتدب السلطان الناصر محمد ، «الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير» فنزل إلى المسجد ، وكشف بنفسه ، وأمر بردم ماتهدم منه ، وإعادة ماسقط من البدنات ، فأعيدت وفى كل بدنة منها طاق وأقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا ، وبالمسجد نقش كتابى جاء فيه «وكان الفراغ فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وسبعمائة » .

عام ٧٦٠هـ (١٣٥٨م) :

يجدد المسجد فى عهد الملك الناصر حسن ، ويبيض مئذنته أحد الباعة ويعرف بابن كرسون .

عام ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م) :

يقوم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف بتجديد أربع بوائك من مؤخرة المسجد ويجعلها بيتا للصلاة .

ثم يستخدم المسجد لأغراض مختلفة ، اتخذ مقرا لحامية أثناء الحملة الفرنسية ، ثم مقرا لبعض الشوام الذين أقاموا فيه مغازل ومصانع لصناعة الزجاج اليدوى ونسج الحرير ، وفى عام ١٨٨٠م استخدم متحفا للآثار العربية ، ثم أقيمت فوق جانب منه مدرسة السلحدار الإعدادية . .

والآن لنلقى نظرة من أعلى . .

المئذنتان

ربما يمثل كل حجر فيهما حدثا تجمد من العصر البعيد ، تدركنا رهبة إذ ندخل المئذنة الشمالية من باب صغير فوق سور القاهرة القديم ، السلم حلزونى متسع ، فوق درجاته نقوش فاطمية تآكلت ، تدور السلالم حول

جسم اسطوانى ضخم من الحجر . تفجع الأذن بأصوات غريبة تلوث ضوء النهار ، تنال من رهبة المكان ، إنها الوطاويط ، لاتخرج فى النهار وفى السماء تنتقل أسرابها إلى أشجار النبق القديمة فى فناء الجامع . وتطير إلى الشرفة الرئيسية ببيت السحيمى الأثرى القريب .

أعلى المئذنتين..

تشعر بالعلو الشاهق ، تبدو المئذنة البحرية ، القاعدة المربعة ، يعلوها بناء مربع آخر يميل ميلا خفيفا ، يذكرنا هذا بوصف الرحالة عبد اللطيف البغدادى لمنارة الإسكندرية عام (١٢٠٠م) ، لاشك أن المنارة كانت تشكل منبع الوحى الذى استوحاه المهندسون المصريون عند بناء المئذنتين ، إنهما أقدم مئذنتين قائمتين على حالهما القديمة فى العمارة الإسلامية فى مصر ، نلاحظ فوقهما بنائين غريبين عن الطراز الأصلى للمئذنتين ، إنها الإضافات التى قام بها الأمير بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٣ هـ بعد أن هدمها الزلزال ، لكن مابناه يبدو نشازا ، لم يراع الطراز الأصلى للبناء ، أكمله ببناء من زمنه هو ، الآن تعانى المئذنتان إهمالا وهوانا ، والوطاويط تلوث أحشاءهما ، والكتابة الكوفية الجميلة التى تحيط بهما مهددة بالتآكل والضياع ، من أعلى تبدو أطلال المسجد ، تبعث على الرثاء ، وكأن الحاكم يرقبنا ، ويرقب نظرات الأسى فى عيوننا على ماتبقى منه ، لقد جاهد طويلا ليمحو الظلم ، وسعى فى الأرض ليقيم العدالة ، ثم غاب فى غموض غريب ، وحملت الرواية التاريخية مسئولية دماءه لأخته ست الملك التى قيل أنها قتلته . غير أنه لم يتبق منه كحقيقة مادية ملموسة ، ومن جهوده كلها إلا . . هذه الأطلال . .

مآذن القاهرة

تتعدد وجوه القاهرة بتعدد المراحل التى عاشتها تلك المدينة منذ عصورها الأولى . وحيثما ذهبت تستطيع أن ترى للقاهرة وجها مختلف الملامح والقسمات ، وربما عالما له شخصيته المميزة . وهذه نظرة إلى القاهرة من خلال مآذنها العديدة والعريقة .

تنفرد مدينة القاهرة بوجود مجموعة كبيرة من المآذن . تمت إلى عصور مختلفة ، فى كل منها خصائص العصر الذى بنيت فيه ، وملامحه ، قد تبدو المآذن مجموعة من المبانى النحيلة الرشيقة التى تشهق لتسد الفراغ إذا نظرنا إليها بمعزل عن الظروف ، لكن عندما نتوغل إلى الزمن الذى بنيت فيه سنجد أن الحياة قد دبت فى الحجارة الرمادية الصماء ، وسنجد أمامنا «أرشيفا» حيا ، للعمارة الإسلامية والمئذنة لم تولد مع المسجد ، بل أنشئت فى فترة متأخرة قليلا كضرورة تقتضيها الحاجة ، يؤكد البخارى أن المسلمين عندما هاجروا إلى المدينة كانوا يجتمعون «فيتحينون للصلاة ، لا ينادى لها ، فتكلموا يوما فى هذا ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : بل بوقا مثل قرن اليهود ، فقال عمر : اولا تبعثون رجلا منكم ينادى بالصلاة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يابلال قم فناد للصلاة . .»وكانت المساجد

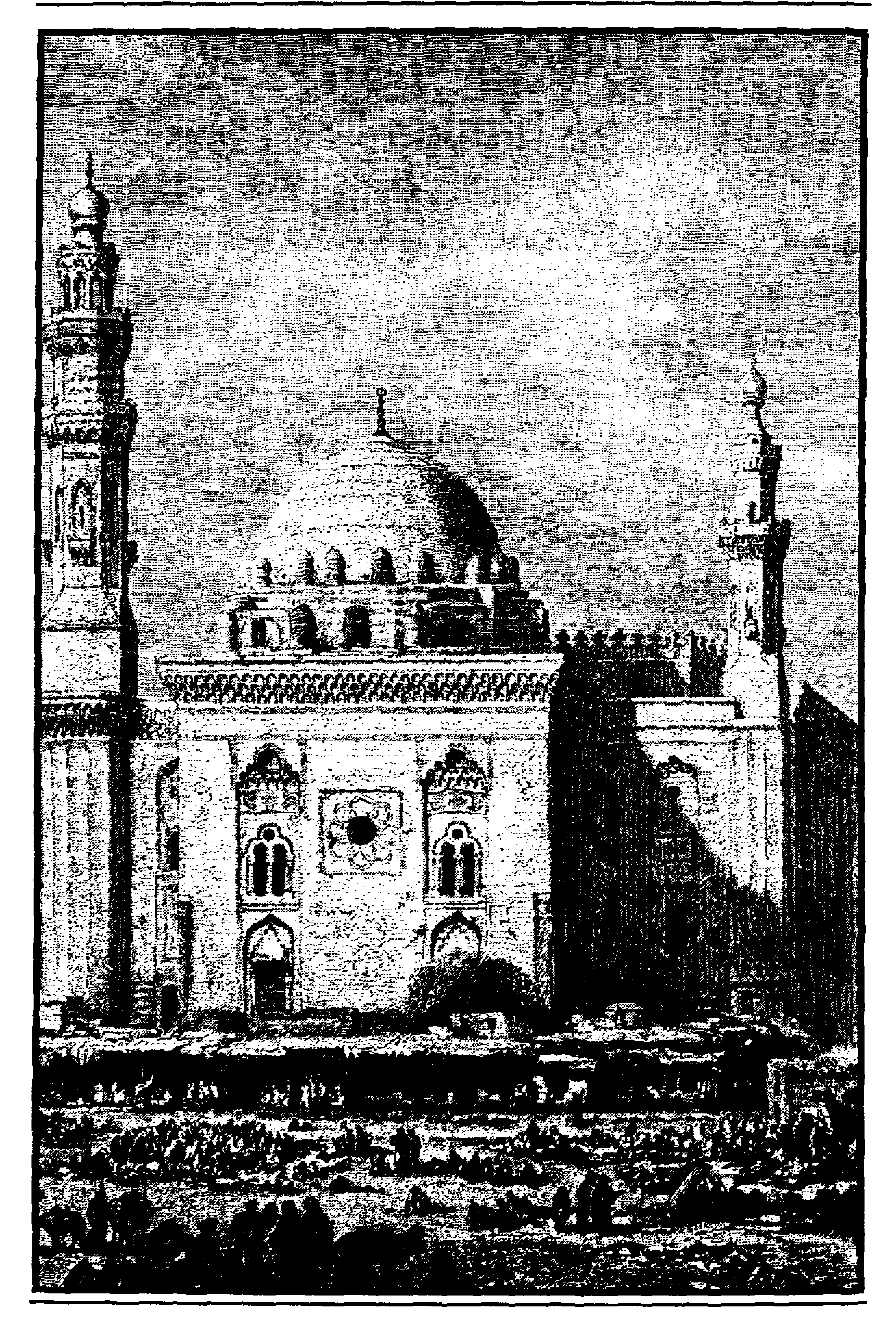
الأولى تخلو من المآذن ، كمسجد الكوفة (١٧ هـ- ٦٣٨م) ، والمسجد الجامع بالبصرة (١٦ هـ- ٦٣٧م) وكان مسجد عمرو بن العاص خاليا من أي مئذنة ، وكان الناقوس مستخدما فيه لدعوة الناس إلى الصلاة حتى سنة (٥٣هـ - ٦٧٣م) وفى البداية أطلقت كلمة (صومعة) أو (منارة) على المآذن ، وكانت كلمة صومعة تطلق فى الأصل على صوامع الرهبان المسيحيين ، وهى بناء مربع يعلو عن الأرض وعندما زار الرحالة ابن جبير دمشق وصف ثلاث صوامع بالمسجد الأموى ، «كالبرج المشيد» ، ومازال كلمة صومعة مستعملة فى شمال أفريقيا حتى وقتنا هذا ، وربما كان ذلك لأن شكل المآذن لايزال محتفظا هناك بصورته المربعة الأولى . أما لفظ «منارة» فهو يعنى المكان الذى ينبعث منه النور أو الضوء ، وهذا يعنى أن المئذنة كانت تستخدم فى وقت ما لأغراض أخرى غير الأذان ، كإرسال الإشارات إلى السفر ، أو إرشاد التائهين فى الصحراء ، أما كلمة مئذنة فمشتقة من لفظ (الأذان) .

أقدم المآذن

تقول كتب التاريخ أن أحمد بن طولون كان رجلا جادا ، لايضيع جزءا من وقته فى العبث أو اللهو ، وفى أحد الأيام ، كان يجلس مع بعض رجال دولته ، وكان الحديث حول المسجد الجديد الذى أزمع بناءه فى مدينته الجديدة التى اختطها « القطائع» ساد صمت ، أطرق ابن طولون ، وراح يلف ورقة حول أصبعه ، انتبه فجأة إلى أنهم ضبطوه فى لحظة عبث . أراد أن يبرهن لهم أنه كان منصرفا إلى عمل نافع يتدبره ، فثبت الورقة على وضعها حول أصبعه ، وقال بسرعة :

«اعملوا لى مئذنة على هيئة هذا المخروط . .» .

ربما تبدو هذه القصة مقنعة لتفسير هذا الشكل الغريب لمئذنة ابن طولون ، أقدم مآذن القاهرة ، لكن لو عرفنا أن ابن طولون قضى أول حياته



فى مدينة سامراء العراقية ، قبل أن يفد إلى مصر . وإذا لاحظنا مئذنة جامع سامراء القائمة فى الزيادة الشمالية للمسجد (تماما كمئذنة ابن طولون) التى لاتتصل بسائر مبنى المسجد ، تبدو كأنها منفصلة عنه ، ولاترتبط به إلا بواسطة قنطرة محمولة على عقدين متجاورين . وكلتا المئذنتين تتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها ساق اسطوانية يلف حولها من الخارج سلم دائرى عرضه حوالى ٩٠ سنتيمترا له سور دائرى أيضا ، هناك إذن تشابه بين مئذنة ابن طولون ومئذنة جامع سامراء ، وقد زرت كلا المئذنتين ، ولاشك أن كلا منهما توحى بالأخرى ، خاصة عند صعود السلم الدائرى ، والوصول إلى قمة أى منهما . الفرق أن سلم ملوية سامراء غير مسور أما سلم مئذنة ابن طولون فيحف به سور منخفض . ولاشك أن مئذنة سامراء كانت ماثلة فى ذهن ابن طولون والمئذنة التى نراها اليوم بنيت فى زمنين مختلفين ، نصفها الأسفل المربع ، والجزء الأسطوانى من البناء الأصلى . أما الجزء العلوى المكون من طابقين فقد أضافهما السلطان لاجين عام (١٢٩٦م) . ويقال أنه فعل ذلك نتيجة لنذر قطعه على نفسه عندما كان مطاردا ، واختبأ فى المسجد قبل اعتلائه كرسى السلطنة وكانت المئذنة وقتئذ مهدمة . تطل برثاء على المسجد الفسيح الساكن ، والذى عبر كل الأعاصير والتقلبات ووصل إلى زماننا سالما . .

الحاكم

بالقرب من نهاية شارع المعز لدين الله ، قبل وصولنا إلى بوابة الفتوح ، أحد أبواب القاهرة القديمة السبع يمتلئ الجو برائحة سوق الليمون والزيتون الأخضر ويسد الطريق أمامنا سور القاهرة القديم ، . تبدو سلالم الحصن الذى يطوق القاهرة ، كذلك أماكن وقوف الجند ، ومزاغل المراقبة ، فى الفراغ تعلو مئذنتا الحاكم بأمر الله ، وتحتهما يمتد أكبر مسجد فى مصر ، وأكثر المساجد إهمالا ورثاثة . فوق جزء من فنائه

يستقر بناء كالنشاز يضم مدرسة السلحدار الإعدادية . ثم أطلال وخرائب . وبرغم مظهر الإهمال فإن المكان يعبق برائحة تاريخ قوى لم يول بعد ، تاريخ الحاكم بأمر الله ، تلك الشخصية الفذة التى أثارت جدلا لم يهدأ بعد ، ترتفع جدران المئذنتين من الأرض ، كل منهما تبدأ بقاعدة مربعة ضخمة تميل جدرانها ميلا خفيفا مما يذكرنا بالأهرامات المربعات ماهما إلا معطفان من الحجر ، كل منهما يحيط إحدى المئذنتين الأصليتين . يرتفع المعطف الغربى ٢٤ مترا فوق أرض الشارع . ويتكون من جزئين أولهما يبلغ ارتفاعه ١١ مترا . والطابق الثانى يرتفع ١٤ مترا ، أما المعطف الشمالى فيزداد ارتفاع الطابق الأول فيه مترين . وهكذا يبلغ ارتفاعه ٢٦ مترا . ألا يذكرنا شكل المعطفين الحجريين بذلك الوصف الذى دونه عبد اللطيف البغدادى لمنارة الإسكندرية ، تلك الجدران المائلة . ربما تأثر المهندس الذى أشرف على بنائهما بشكل المنارة التى كانت قائمة فى ذلك العهد ولم يهدمها الزلزال بعد ، ربما كان قد تأثر بشكل الأهرامات المصرية ، هنا نرصد التميز الذى بدأ فى بناء المآذن المصرية والذى سيستمر تطوره حتى تكتمل كافة عناصره فى عصر السلطنة المملوكية . ندخل إلى المئذنة الشمالية من باب صغير يعلو سور القاهرة القديم الذى بناه بدر الجمالى وأخفى أحد أضلاع هذه المئذنة .

المئذنة من الداخل تتكون من قاعدة مربعة وجسم اسطوانى ، وعندما ندخل إلى المئذنة من فوق السور فإننا نصبح محاذين للجزء الاسطوانى ، سلم المئذنة يدور حوله ، فوق الجدران الخارجية للمئذنة نرى زخارف ، ونوافذ تحيط بها إطارات زخرفية تتكون من وحدات هندسية مجردة ، ووحدات زخرفية أساسها ورق النبات ، وفوق السلالم التى تصعد بنا إلى أعلى نلمح زخارف ورقية ، مما يوحى لنا بمدى الجهد الذى بذله المنمنمون والمزخرفون فى تزيين المسجد ، أثناء صعودنا تفجع آذاننا بأصوات نحيلة ، حادة منبعثة من داخل المئذنة ، إنها الوطاويط ، تعشش

فى الداخل ، تنهش جوف المئذنة ، وتلوث بأصواتها السكون النهارى الجليل الذى توحى به سيرة الحاكم صاحب المكان ويقال : إنها ضخمة الحجم الواحد منها فى زنة الأرنب ، نصل إلى سطح المئذنة ، نصبح بجوار الجزء العلوى ، إنه يتنافر مع بقية البناء ، لايمت إليه بأية صلة معمارية ، ولاعجب فقد بنى فى فترة متأخرة ، بالتحديد فى زمن بيبرس الجاشنكير أحد أمراء المماليك .

حدث فى سنة ١٣٠٣م زلزال عنيف هدم منارة الإسكندرية ، وهدم الجزء العلوى من مئذنتى الحاكم بأمر الله ، وقام الأمير بيبرس الجاشنكير بإضافة هذين الجزئين ، ينتصب القسم العلوى هنا من أربعة طوابق مثمنة . تحيط بالثلاثة العليا منها صفوف من المقرنصات . وتعلوها قبة المئذنة على شكل مبخرة ، إنه نفس شكل المئذنة التى تعلو مسجد بيبرس الجاشنكير والذى يقع فى مواجهة حارة الدرب الأصفر بالجمالية ، ويعرف هنا باسم زاوية بيبرس حيث كان يقيم الصوفية والفقراء يرددون الأذكار والأشعار ، فى الزمن النائى البعيد ، لكن البناء الأصلى ، فوق مسجد بيبرس يبدو متسقا ، أما هنا فوق مئذنتى الحاكم فإنه غريب عن البناء الأصلى ، لأنه من عصر مختلف ، وإذا تجاور زمنان مختلفان تنافرا ، واختلفا . يبلغ ارتفاع هذا القسم سبعة عشر مترا ، أى أن البناء يرتفع عن سطح الأرض ٤٦ مترا .

وفوق جبل المقطم ، بالقرب من مركز السماء تقوم مئذنة الجيوشى (٤٧٢هـ - ١٠٨٥م) فى الشتاء تبدو من خلال الضباب معلقة فى فراغ الكون ، وقد اختفى الجبل الذى تقوم إليه فى بحر من اللبن الهائش ، تبدو المئذنة وكأنها دعاء تجمد فى طريقه إلى أعلى ، أو ابتهال غامض خفى ، أو رغبة من المعبود فى الوصول الى الخالق ، إنها ثانى المآذن التى وصلتنا من العصر الفاطمى ، لقد اختفت مئذنة جامع الأقمر ، وكان قد بناها الوزير البطائحى فى سنة ١١٢٥م ، أما المئذنة الوحيدة التى وصلتنا

من القرن الثانى عشر ، فهى مئذنة مسجد أبى الغضنفر ، وتصور مئذنة الجيوشى مرحلة من تطور المئذنة المصرية ، فى أعلاها تلمح عنصرا هاما من المقرنصات فى صورتها الأولى . والإفريز الأدنى يشتمل على صف من العقود ، وتلك هى المرة الأولى التى تبدو فيها هذه الظاهرة فى عمائر القاهرة . إنها أقدم مئذنة فى ذلك الطراز المعروف باسم المبخرة ، وهو طراز استمر مستخدما حتى الربع الثانى من القرن الرابع عشر .

هكذا تتضح معالم المآذن المصرية الأولى . برج مربع ينتهى بشرفة وفوقه طابق آخر مربع ، كما يبدو فى مئذنة الجيوشى . لقد اختفى هذا الطابق فيما بعد ، واستبدل بطابق مثمن فى مئذنة أبى الغضنفر ، فتحت فيه تجاويف مضلعة الرءوس . وارتفعت فوق رقبة مثمنة الأضلاع تعلوها خوذة مضلعة ، وتلك التى عرفت باسم المبخرة . .

الباب الأخضر

بجوار الباب الأخضر لمسجد سيدنا وإمامنا الحسين عليه السلام فى القاهرة شق ضيق فى هذا الجدار القديم المتبقى من البناء الأصلى .

تقول الأسطورة «إن رأس الحسين طارت من كربلاء إلى هذا الموضع لمدة أربعين يوما تسبح بحمد الله ، وعندما استقرت هنا رست بجوار سيدة عجوز ، أخفت الرأس ، جاء جند يزيد إليها عندئذ اخذت رأس ابنها وقدمتها إليهم فداء لرأس الحسين . والحى المجاور للمسجد يعرف حتى الآن باسم حى أم الغلام ، أما المكان الذى استقرت فيه الرأس فلا يروح العطر منه أبدا . . فوق هذا الشق تقوم مئذنة المشهد التى شرع فى بنائها فى عصر صلاح الدين الأيوبى (٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م) ويبدو أن الذى أنفق على تشييدها رجل صالح يدعى أبو القاسم بن يحيى ، إذ يوجد نقش على قاعدة المئذنة نصه :

«بسم الله ، أوصى بإنشاء هذه المئذنة المباركة على باب مشهد الحسين تقربا إلى الله ورفعا لمنار الإسلام . الحاج إلى بيت الله أبو القاسم بن يحيى بن ناصر السكرى المعروف بالزرزور تقبل الله منه ، وكان المباشر لعمارتها ولده لصلبه الأصغر الذى أنفق عليها من ماله بغية عمارتها خارجا عما أوصى به والده المذكور وكان فراغها فى شهر شوال سنة أربع وستمائة . .» .

وماتبقى من المئذنة قاعدتها الأيوبية . أما جزؤها العلوى ، فقد تهدم ، واستبد به بناء عثمانى فى عصر الاحتلال التركى المتأخر ، ويتميز الجزء الأصلى من المئذنة بجوفاته المقرنصة الثلاثة التى تشغلها ثلاث حشوات مطولة تزخر بحشد من الزخارف النباتية المحفورة فى الجص ، من الطابع الأندلسى الذى نراه فى قصر الجعفرية بسرقسطة وفى المسجد الجامع بتلمسان . ويعلو كل حشوة طاقة معقودة مقرنصة . وتشغل الفراغين والواقعين بينهما قوقعتان مقرنصتان .

وإذا ما انتقلنا إلى شارع بين القصرين ، وفى منطقة الصاغة ، حيث سوق الذهب والفضة ، إذا رفعنا البصر سنجد مئذنة مدرسة الصالح نجم الدين أيوب . إنها المئذنة الوحيدة التى تبقت سليمة من العصر الأيوبى .

أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فى ٦٤٢ هـ (١٢٤١م) ، فى أعلى الباب ، بأسفل المئذنة لوحة تشير إلى الشروع فى بناء المدرسة نصها :

«بسملة . أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الأعظم الملك الصالح نجم الدين محمد بن أبى بكر أيوب فى سنة إحدى وأربعين وستمائة» .

فى تلك المئذنة نجد أن الجزء المثمن أصبح مستقلا وبارزا بعد أن كان مندمجا فى مئذنة الجيوشى فى مجموع البناء ، وأصبحت المبخرة أكثر

وضوحا ، وخلال نصف قرن تلا سقوط الدولة الأيوبية ساد نظام المباخر فى المآذن المصرية وهو طراز مصرى خالص لم يتكرر فى أى بلد آخر .

ونلاحظ أن شخصية المئذنة المصرية لم تتبلور ، ولم تتضح إلا فى العصور التى نعمت فيها مصر بالاستقلال ، الدولة الفاطمية ، ثم الأيوبية ، والسلطنة المملوكية . ومن مآذن العصر المملوكى الأول مئذنة المنصور قلاوون ، قبل أن نصل إلى بابها الصغير نعبر ردهة طويلة ، عالية السقف ، تذكرنا ببهو المعابد الفرعونية ، الهواء رطب ، إلى اليسار تقوم قبة قلاوون الرائعة ، التى استوحى فى تصميمها قبة مسجد الصخرة ، والتى يرقد تحتها الناصر والمنصور قلاوون ، نصل إلى الباب الصغير الذى يسلمنا إلى سلم دائرى من الحجارة ، يستدير حول جسم اسطوانى يمثل لب المئذنة ، يدور السلم ، تتخلل الجدران فتحات دائرية قصيرة نلمح منها سمك جدران المئذنة الذى يبلغ حوالى المتر ، نرى المدينة القديمة ، القريبة والمبانى الحديثة الشاهقة عند الأفق .

نصل إلى القاعدة المربعة ، حيث ينتابنا الإحساس بالعلو الشاق إذ يرتفع جسم المئذنة النحيل مايقرب من ارتفاع عمارة حديثة مكونة من اثنى عشر طابقا ، وإذ نستند إلى الحاجز الخشبى للشرفة نستطيع أن نلمح إفريز المقرنصات الذى يحيط بقمة القاعدة المربعة ، والذى يرى الباحثون فى زخارفه تأثيرات أندلسية ، تلك الزخارف تشبه زخارف مسجد إشبيلية ، قد يبدو هذا أكثر وضوحا فى الطابق الثانى من المئذنة ، وفى الطابق الأخير حيث نجد شبكة من المعينات الزخرفية ، ربمايرجع هذا إلى زيادة الصلات بين مصر والاندلس ، خاصة بعد ظهور مصر كأقوى دولة إسلامية إذ قضت على الخطر المغولى فى عين جالوت (٦٥٨هـ - ١٢٦٠ م)

وبروزها بوصفها القوة الرئيسية فى التصدى للخطر الصليبى فى الشام .

من فوق الطابق الثانى للمئذنة ، وبنظرة خاطفة نجمع فترة طويلة من الزمن ، أمامنا تعلو مئذنة مسجد السلطان برقوق ، بقامتها الرشيقة وطوابقها الثلاثة المثمنة وطبقتها الوسطى المزينة بالرخام على هيئة دوائر متقاطعة ، وهذه الزخرفة الرخامية تعد الأولى من نوعها فى المآذن المصرية .

يفصل مئذنة قلاوون عن مئذنة برقوق فراغ ليس بكبير إذا قسناه بالأمتار ، لكنه من عمر الزمن يبلغ مائة وعشرا من السنين ، وسط الفراغ ، نلمح مئذنة صغيرة أقل ارتفاعا ، إنها مئذنة الناصر محمد بن قلاوون التى تعلو مدرسته . والتى تعلو قاعدتها زخارف جصية رائعة . هذه الزخارف بها تأثيرات أندلسية أيضا . فى هذه الساحة تنتصب مآذن قلاوون وبرقوق ، كل منها تعبر عن عصر بأكمله ، ولكنها فى مجموعها تشكل متحفا متكاملا حيا لفن العمارة الإسلامية .

وبمرور الزمن يصبح التطور فى المآذن المصرية أكثر وضوحا . لقد تضاءلت القاعدة المربعة حتى أصبحت مجرد سند لجسم المئذنة وبرز الجزء المثمن ، كما نجد فى مئذنتى الماردانى وأقبغا (٧٤٠هـ - ١٣٤٠م) .

ومئذنتى شيخون (٧٥٠ هـ - ١٣٤٩م) وربما يرجع هذا إلى فيض من التأثيرات السورية التى طرأت على المآذن المصرية بواسطة صناع الشام المهاجرين . نلاحظ أيضا اختفاء المبخرة ، لقد حلت مكانها دائرة صغيرة من الحجر «جوسق» مسحوبة إلى أعلى . وكانت قمة هذه المآذن من الناحية الجمالية والفنية ، مئذنة السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى (٨٧٧هـ - ٨٨٩ هـ) وقد استمر هذا الطراز متبعا بقية العصر المملوكى ، وإن كنا نلمح بعض الاضطراب فى التطور . ويبدو هذا واضحا فى مئذنة السلطان الغورى حيث تتعدد الرءوس فنجد أربعا بدلا من واحدة ، وإذ نقف فى منتصف المسافة بين الغورى والجامع الأزهر نلمح التشابه بين

مئذنة الغورى والأخرى التى بناها بجامع الأزهر والتى يعلوها رأسان بدلا من أربع ، لابد أن المهندس شخص واحد ، أراد أن يحدث شكلا من الابتكار ، فاستحدث أربع رءوس للمئذنة بدلا من رأس واحدة ، ولكنه تطور مفاجئ ، لاينم عن أصالة ، أو تجديد يستند إلى أصول ثابتة .

مع الغزو العثمانى لمصر تتعرض المآذن المصرية لمحنة ، لقد بدأ الاحتلال التركى ، ومع الاحتلال يجيء الغازى محاولا فرض طرزه وأسلوبه ، وتبدو روح المقاومة فى البناء نفسه ، ينعكس الصراع حتى على الحجر .

القلم الرصاص

فى فراغ القاهرة تنتصب مآذن نحيلة ، تنطلق الى أعلى كالحراب ، تذكرنا بالمآذن السلجوقية ، أو مآذن استانبول ، نراها فوق مسجد محمد على بالقلعة والذى بنى فى القرن التاسع عشر ، إنه الطراز المعمارى للغازى ، مآذن تركية مسحوبة ، خالية من الزخارف ، متجهمة ، خالية . لاتوحى بالسلام والدعة والابتهال والمناجاة الصامتة ، تلك المعانى التى تتجسد فى المآذن المصرية الاصلية ، حتى التى تبدو فيها تأثيرات سورية أو أندلسية ، لاأدرى لماذا تذكرنى المآذن العثمانية بالحراب .

لكن يبدو الصراع الذى كان قائما بين الروح المصرية والمحتل العثمانى فى نماذج أخرى ، فى مسجد المحمودية الذى أنشأه محمود باشا والى مصر العثمانى (٩٧٣هـ - ١٥٦٠م) لقد تأثر المهندس بجامع السلطان حسن وجعل المئذنة بارزة عن المسجد ، أيضا شكل قاعدتها ، نرى هذا أكثر فى مئذنتى جامع البردينى (١٦١٦م) إذ تبدو المئذنة المصرية واضحة تماما ، كما كانت زمن المماليك الجراكسة . هنا نرى انعكاس الظروف بسرعة على العمارة ، فى زمن محمد بك أبو الذهب (١٧٠٣م)

زميل على بك الكبير الذى حاول الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، وفى مئذنته المواجهة لمآذن جامع الأزهر يبدو الطراز هنا مختلفا تماما عن مآذن العصر التركى ، إذ إنها تنتمى إلى الطراز السورى المربع ، وتنتهى قمتها بخمس رءوس ضخمة ، والاهالى فى منطقة الأزهر يقولون أن ثمة كنزا خبيئا فى هذه الرءوس ، ربما حاول المهندس أن يستوحى مآذن الغورى ذات الرءوس المتعددة ، لكن تستوقفنا ملحوظة غريبة فى تلك المئذنة ، إنها تشبه برج الكنيسة فى قامتها المستطيلة ، وفى التجاويف العلوية المفتوحة ، والتى تذكرنا بمكان الناقوس فى الأبراج الكنسية ، ولكن يبدو هذا التأثير مستوحى من المآذن السورية التى تأثرت بأبراج الكنائس عند نشأتها ، وخلال القرن التاسع عشر ساد نظام المآذن العثمانية ولكننا نلاحظ فى المساجد الحديثة محاكاة لمآذن العصور الوسطى المملوكية ، وليس هذا لأن تلك العصور شهدت قمة التطور للمئذنة المصرية ، ولكن لأن مآذن هذا العصر تعد متكاملة العناصر من الناحية الفنية ، والجمالية وأرقى ماوصلت إليه المآذن المصرية .

بيوت القاهرة القديمة

قاهرة القرون الوسطى ، الشوارع ضيقة غير مرصوفة ، متعرجة ، مبلطة بالحجارة المضلعة ، تصادفنا مساحات هائلة الاتساع ، غير منظمة الشكل ، تتفرع منها أزقة ضيقة يصعب فى بعضها أن يمر رجلان بجوار بعضهما ، المنازل متقاربة حتى إن الأسطح تكاد تتلاصق ،جانبا الزقاق الضيق يتكونان من جدران هذه المنازل ، تمتد الحصر من سطح إلى سطح ، صحيح أن الشارع الضيق يسبب بعض المشقة لكن هنا برودة منعشة تجىء من تيار الهواء البارد الذى يمر بين البيوت القريبة من بعضها ، إن طبيعة الجو الحار فى القاهرة حددت مدى اتساع الحوارى وطريقة بناء بيوتها كما سنرى بعد قليل ، البيوت مجموعة من الجدران الخالية من النوافذ ، بين الحين والحين يمر حمار يركبه واحد من الأهالى- الحمار وسيلة المواصلات الوحيدة الرئيسية- عندئذ يضطر الواقفون إلى إلصاق ظهورهم إلى الحائط ، بينما تلقى الجدران ظلالا رمادية تزيد البرودة .

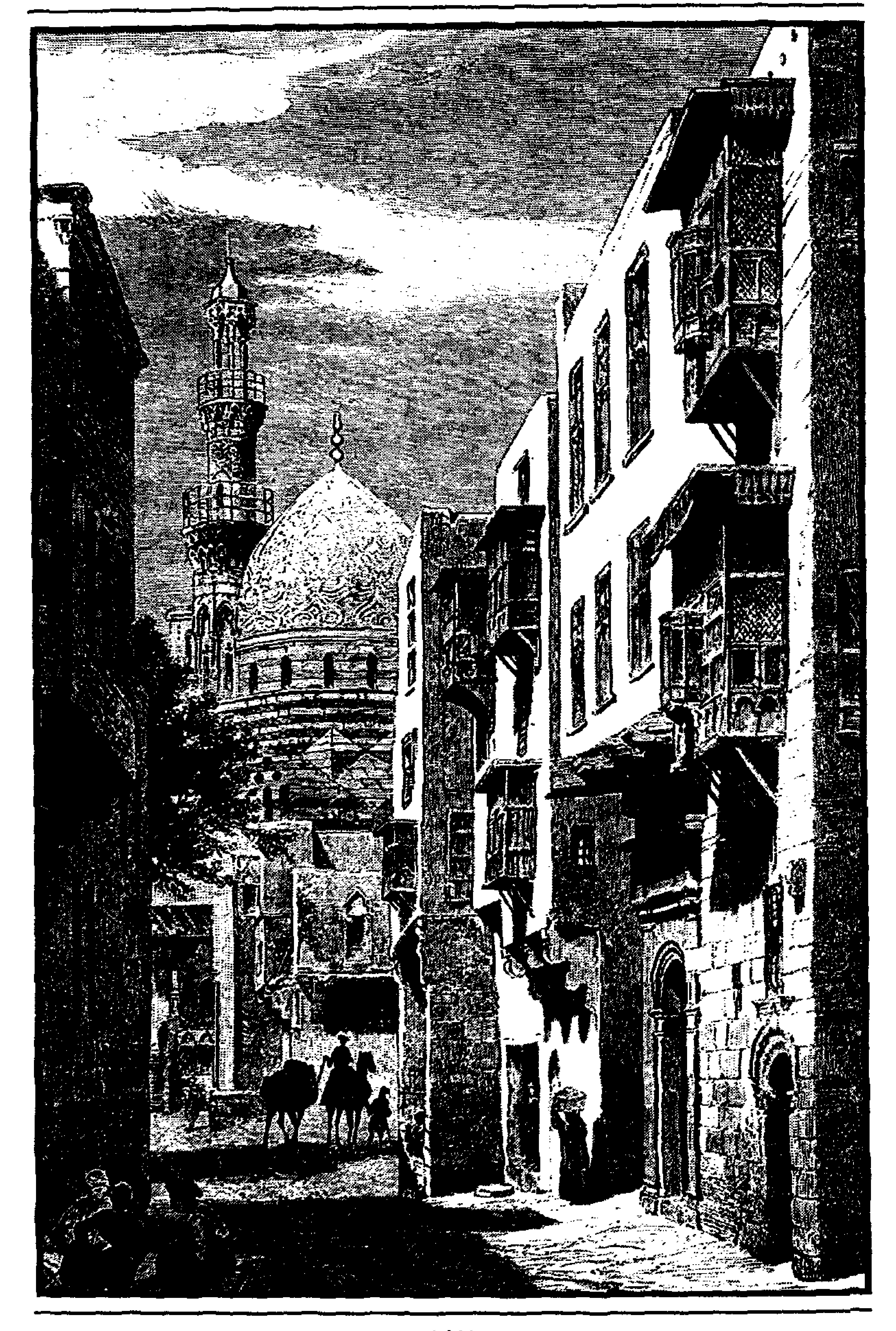
فى نهاية الزقاق جامع صغير ، لعله ضريح أحد الأولياء ، طليت جدرانه بمختلف الألوان من أصفر وأحمر وأزرق مما يضفى بعض البهجة على الحارة الصغيرة ، فى جدران المنازل الخارجية لاتلمح إلا المشربيات

التى تتشابه كثيرا ، إن المشربيات التى تطل على الطريق ليست فى جمال المشربيات التى تطل على الفناء الداخلى ، فالسكان عادة يحتفظون بالمشربيات الجميلة للنوافذ الداخلية للمنزل والتى تطل على الفناء أو الحديقة ، وهذا مانجده واضحا الآن فى قصر المسافر خانة وبيت السحيمى ، ومنزل زينب خاتون ، واسم «المشربية» مشتق من الفعل «يشرب» ثم استعمل للنوافذ المصنوعة من الأعمدة الخشبية الرفيعة المتشابكة ، لأن القلل كانت توضع عليها لتبريد الماء وفى أغلب الأحيان نجد رفا صغيرا يبرز إلى الخارج توضع عليه أوانى الفخار لتبرد بفعل الهواء وفى قصر المسافر خانة نجد طريقة أخرى لتبريد الماء ، فوق أحد أقسام البيت عدة رفوف رخامية تتخللها فجوات توضع فيها الأوانى لتبرد فى الهواء ، ويطلق على هذه الرفوف المثبتة فى تجويف واسع بالجدار اسم «مزيرة» .

والمشربية لاتسمح للجيران أن ينظروا ماوراءها . غير أنها تحتوى فى الوقت نفسه على مكان كاف يسمح بتخلل الهواء إليه ، فالمشربية مكان رطب للإنسان تماما كما هو لأوانى الماء ، كما أن الجالس فيها يمكنه رؤية المارة فى الطريق من حيث لايرونه ، مع هذا توجد نوافذ صغيرة مناسبة فى المشربية يمكن دفعها إلى أعلى فى مجار صغيرة محفورة فى الخشب إذا رغب أصحابها فى ذلك وكثيرا ماكانت نساء القاهرة الجميلات ينظرن من هذه النوافذ الصغيرة ليشترين شيئا من أى بائع جوال وليستعرضن جمالهن فى نفس الوقت . .

هانحن أما باب من أبواب هذه البيوت . .

الباب مقوس من أعلى ، مزخرف ببعض النقوش العربية ، وربما آية من القرآن الكريم ، نطرق الباب بمقبض نحاسى على هيئة كف آدمى ، قد تضطر إلى الانتظار طويلا حتى يسمعك من بداخل الدار ، يصادفنا ممر ينعطف فجأة بعد خطوتين ، يحول دون مشاهدة الفناء الداخلى ، فى



نهاية الممر نجد أنفسنا أمام حديقة جميلة تتوسطها نافورة مرصعة بالرخام الملون ، فى أقصى الفناء نلمح بئرا للمياه ، الهدوء مستكن وناعس فى الهواء حتى لتظن أنه لاأثر للحياة هنا ، الأبواب مغلقة غرف النساء معزولة فوق ، ينظرن إلى الفناء من خلال هذه المشربيات الدقيقة الجميلة ، يزداد إحساسك بالبعد عن ضجة الطريق وصخبه ، فعلا ، ماأبرع المهندس الذى بنى هذا البيت ، هنا لايمكن لجارك أن يراك ، لايمكن للضيف أن يرى الحريم ، يمكن عن طريق المشربيات ، وملاقف الهواء السماح لأكبر كمية هواء بالدخول ، وكمية ضوء قليلة .

لو دخلنا الغرف السفلية ، وتمكنا من دخول الحرملك ، نلاحظ أن الجو الحار لم يكن العامل الوحيد الذى أثر فى البناء وشكله ، إنها ظروف المجتمع المصرى أيضا ، وضع المرأة الاجتماعى ، جو العلاقات السائدة بين الأمراء وبعضهم ، وبين كبار رجال الدولة .

هذا كله ينعكس على البيت القاهرى القديم .

قصر المسافرخانة «حارة درب الطبلاوى بالجمالية» .

بيت السحيمى «الدرب الأصفر بالجمالية» .

بيت مصطفى جعفر «شارع المعز لدين الله وناحية الدرب الأصفر» .

قاعة محب الدين«بيت القاضى بالجمالية» .

قاعة الأمير بشتاك «شارع المعز لدين الله » .

منزل جمال الدين الذهبى «حارة خوش قدم بالغورية .» .

منزل السنارى «السيدة زينب» .

هذه بعض البيوت القاهرية القديمة التى بقيت حتى زماننا هذا ، مجموعة لايوجد مثيلها فى أى عاصمة فى أى بلد أو مدينة بالعالم

قاطبة ، وإلى جانب أنها تضم تراثا معماريا وفنيا وثقافيا خطيرا ، فإنها تقدم لنا صورة صادقة للحياة فى المجتمع المصرى .

إننا نجد تنوعا واختلافا فى نوعية وطراز هذه البيوت ، صحيح أنها تبدو متشابهة ظاهريا لكنها تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ، هاهى الفخامة والاتساع فى قصر المسافرخانة (شيد عام ١٧٧٩م- ١١٩٣هـ) فيه أجنحة متعددة ومنشآت مختلفة ، وبرغم هذه الضخامة فإن مانراه اليوم ليس جزءا تبقى من السراى الأصلى ، والتى بنيت على مرحلتين ، الأولى عام ١١٩٣ هـ وبناها محمود محرم أحد كبار التجار المصريين ، أما المرحلة الثانية فأنشأها ابنه عام ١٧٨٩م . . أننا نجد الرقة والجمال المتواضع الرفيع وجو الأسرة المصرية فى بيت السحيمى ، الذى بناه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى سنة ١٠٥٨هـ - ١٦٤٨م ، وعندما انتقلت ملكية المنزل فى سنة ١٧٩٧م - ١٢١١هـ إلى الشيخ إسماعيل شلبى أنشأ الجزء البحرى الحالى من البيت ويضم القاعة الكبيرة ، والقاعة الأرضية ذات الفسقية الرخامية النادرة ، والحجرة العلوية الجميلة المكسوة بالقيشانى ، أما البساطة وقلة الزخرفة مما يوحى بآثار من بخل تاجر حريص فنجده فى منزل جمال الذهبى شهبندر تجار الغورية أيضا بيت مصطفى جعفر والسنارى .

إن كل بيت من هذه البيوت يتميز ببعض خصائص غير موجودة فى البيوت الأخرى ، تنفرد المسافرخانة بأغرب وأطرف ماوصل إلينا فى عمارة البيوت المصرية ، الجزء المخصص للثور الذى يدير الطاحونة ، إن ضخامة البيت وعلوه ، حتمت أن توجد طاحونة ترفع الماء من أسفل ، وقد وضع المهندس المصرى هذه الطاحونة فى الطابق الثانى ، ويصل إليها الثور المخصص لإدارتها عن طريق سلم صنع خصيصا له ، بحيث يمكنه النزول أو الطلوع بسهولة كافية ، توجد أيضا بالمسافر خانة أضخم مشربية

وصلت إلينا من البيوت المصرية القديمة ، وهى التى تمثل واجهة المبنى القبلية المطلة على الفناء الداخلى ، أيضا يوجد فيها حمامان ، حمام صيفى لاتستعمل فيه غير المياه الباردة ، وحمام شتوى يتم تسخين الماء فيه بطريقة معقدة بواسطة مواسير من نفس مواد البناء تحت الأرض ، كانت تقوم بعمل السخان الكهربائى الحديث أما الهواء فتجده فى أقصى نقطة بالبيت ، عن طريق «ملاقف الهواء» أى فتحات واسعة فى أعلى نقطة بالبيت تدفع الهواء إلى أقصى نقطة فيه بحيث يغمر البيت جو شبيه جدا بالبرودة التى تحدثها أجهزة تكييف الهواء ، يوجد أيضا عدد من الأبواب السرية التى تبدو كأنها جزء من الجدار الخشبى وعندما تفتح تجد سلالم تؤدى إلى الفناء أو الحديقة الخلفية الصغيرة ، أو إلى حجرة أصغر ، نحار فى سبب وجود هذه الأبواب ربما كانت لسهولة حركة الحريم بعيدا عن الغرباء عندما كان البيت مملوكا لمحمود محرم ، أو لأسباب غامضة ربما كانت سياسية عندما تحول البيت إلى مكان للضيوف الكبار فى عهد محمد على ، ومن هنا جاء اسمه المسافرخانة .

فى بيت السحيمى لانجد فيه هذه الغرف المعقدة المتداخلة كما فى المسافرخانة ، إنه بيت بسيط جميل ، فيه عذوبة وسماحة جو الأسرة المصرية ، تمضى غرفة كاللحن الهادئ العذب ، تتدرج فى انتظام ، كل منها تؤدى إلى الأخرى عندما نقف فى الغرفة التى كانت مخصصة لقراءة القرآن الكريم فى رمضان ، وللسهرات أوانى الماء الرخامية فى الأركان ، المقاعد العالية ، تملؤها بالخيال بهؤلاء الأجداد والمشايخ تغمر روحنا رائحة هذه الأيام البعيدة المطوية فى الزمن ، تطالعنا النوافذ الصغيرة المخصصة للحريم ، ينظرن منها دون أن يراهن أحد ، نشعر بجو الأسرة وعدم الحرية الذى كانت تعيش فيه جداتنا ، كانت الحريم

محصورة فى هذه القاعة الجميلة المحاطة بالمشربيات فى بيت السحيمى ، أو فى الغرف العلوية بمنزل جمال الدين الذهبى ، إن غرف الحريم دائما فى الطابق الثانى ، قريبة من الحمام ، ودورة المياه دائما يضعها المهندس عالية عن الهواء حتى يضيع أى أثر للروائح الكريهة ، والبيوت المصرية القديمة انفردت بدورات المياه الخاصة فى الوقت الذى لم تكن أوربا تعرفها ، لقد كان جنود الحملة الفرنسية يعجبون جدا إذ يرون المصريين يدخلون فى بيوتهم إلى هذه المقاصير الفسيحة التى يقضون فيها حاجاتهم .

إن غرف الحريم هذه لاينفذ إليها غير رب البيت ، وكلمة حريم تعنى محرم على الغريب محلل للسيد نفسه والدهاليز المؤدية إلى الحريم لاتمضى فى مستوى واحد بل تهبط فجأة كدرجة السلم لتستمر من جديد ، فلو مشى فيها أحد الغرباء فى الظلام وكان جاهلا بمواضع البيت لسقط ، عندئذ يكتشف أمره بسهولة ، لقد كانت حياة جداتنا مثيرة للكآبة والملل ، كانت تدور حول المأكل ، والملبس ، والنوم والجلوس على الديوان ساعات كثيرة ، والاستغراق فى الأحلام ، ومحاولة إرضاء الزوج ، وكسب محبته وقصرها على الواحدة منهن ، ويقول ستانلى لين بول فى كتابه عن القاهرة ، إن امرأة انجليزية سألت إحدى القاهريات كيف تمضى وقتها؟ فأجابت : «إننى أجلس على هذه الأريكة ، فإذا ما انتابنى الملل نهضت لأجلس على تلك» .

فى الفناء المتسع لقصر المسافرخانة ، هنا حيث الهدوء ، أصوات العصافير المعششة فى أعالى البيت تحيطنا علامات التجديد الذى تم أخيرا فى القصر لتحويله إلى بيت الفنانين ، إن الفنان الشاب عز الدين نجيب هو المسئول حاليا عن النشاط الثقافى فى المسافر خانة ، وله خبرة عريضة فى قصور الثقافة الجماهيرية لكن الأمر هنا يختلف ، إن الظروف

التى تحيط بالمسافرخانة غير الظروف التى يعمل فيها أى جهاز للثقافة الجماهيرية ، إن المسافر خانة فى مكان يصعب الوصول إليه لمن كان غريبا عن الحى ، حتى أهالى الحى لايعرفها منهم غير قليلين ، وقديما كانت المسافر خانة بيتا مهجورا تحيطه الخرافات ، يقول : إنه من الضرورى جدا قبل تحويل المسافرخانة إلى مركز ثقافى أن يتم ربط أهالى الجمالية بهذا الأثر العظيم ، لابد أن يعى أهالى الحى تاريخ هذه الآثار المهمة الموجودة بينهم ، هنا تدب الحرارة فى الحجارة الرمادية وتنطق بآلاف الأشياء .

فى مواجهة الحديقة ، نلمح عامودا رومانيا بديعا يحمل السقف الخشبى الرائع الذى لايوجد مثيله . فوق السقف توجد القاعة الرئيسية بالدور العلوى أرضيتها مفروشة بالرخام الخردة وصدرها مكسو بالقيشانى ، وفى حجرات البيت نلتقى بالفنانين الذين يقيمون حاليا فيه ، عبد الوهاب مرسى الذى ينعكس الجو المحيط به فى أعماله انعكاسا واضحا ، وقد استطاع عبد الوهاب أن يعيد ملامح الحياة القديمة فى غرفته البديعة بفرشها بأثاث قديم أيضا : وسائد وحشايا تماثيل ما كان موجودا فى الأصل .

كما نلتقى بالفنانين جمال محمود ، مصطفى الفقى ، أحمد نبيل ، صبرى منصور ، محمد حسنين ، محمد مصطفى ، الدكتور رمزى مصطفى ، حسين سليمان . والحقيقة أنه قبل أن يتم تحسين البيت وإصلاحه ، والاهتمام به من جانب مصلحة الفنون الجميلة ، كان البيت مهددا بالزوال ، وكانت ظروف الإقامة فيه تكاد تكون مستحيلة ، ومع هذا فقد عرف الطريق إليه الفنانون ، عبد الوهاب مرسى ، وأحمد نبيل ، ومصطفى الفقى ، وصبرى منصور .

وينوى الفنان عز الدين نجيب إقامة عدة معارض فنية بالقصر ، وتقديم مواد ثقافية يتم من خلالها تعريف الأهالى بتاريخه وتاريخ الجمالية ، والآثار التى تحويها ، ويوجد فى المنطقة عدد كبير من الشباب المثقف لابد من ربطه بالبيت ، وكثيرون منهم على استعداد للتعاون مع الفنانين ، وعندهم الوعى الكامل بأصالة منطقتهم ، وقد بادر ثلاثة من الشباب الجامعى فى حارة درب الطبلاوى إلى المساهمة فى نشاط القصر ، وهم أحمد حسنى ، وحسانى ، ومحمود شمس الدين ، وينوون تركيز نشاطهم فى فترة الإجازة الصيفية ، يقول عزالدين نجيب : سيتم تحويل البيت إلى مركز ثقافى حى ، أيضا سيتم تنظيم زيارات للمثقفين لنعرفهم على البيت وعلى المنطقة ، وهذا يحدث فعلا الآن .

غير أننا نلاحظ أن كثيرا من المثقفين الذين يجيئون إلى الحى ، يتجولون فيه بخلفية ملخصها أن كل مايراه شىء غريب ، الناس تحف من القرون الوسطى ، يقف بعضهم ، يشير إلى سلة أو قلة أو حزمة ثوم موضوعة على نافذة ويصيح ، ياسلام شايف اللقطة ، إن هذا يزيد الفجوة بين المثقفين وبين الأهالى ، يقول عز الدين : إن مثل هؤلاء ليس لديهم الإحساس بالأصالة المتمثلة فى تاريخ الحى الناتج عن جهلهم به ، يستحيل التعاون مع مثل هؤلاء ، إننا نجد صورة أخرى ، كثير من المثقفين الذين يدركون تاريخ مصر وعظمته وأصالته بدأوا يرتبطون بالحى عن طريق ترددهم على البيت وبقية الآثار ، إن جذورنا تمتد هنا وتتأصل فى هذه المنطقة العريقة ، والمرجو أن يتحول المسافر خانة إلى مركز ثقافى يجمع الفنانين التشكيليين والأدباء يستلهمون من خلاله تاريخ مصر ويعبرون عنه فى أعمالهم .

الحقيقة أن الجهد الكبير الذى قامت به وزارة الثقافة أثناء تولى الدكتور ثروت عكاشة أمورها فى إصلاح المسافر خانة وبيت السحيمى

وبقية البيوت الأثرية يستحق التقدير ، كان من الممكن أن تتلاشى هذه المبانى فى خلال سنوات قليلة ، وكاد يحدث هذا بالفعل بالنسبة للمسافر خانة التى انتزع منها خلال السنين الماضية الكثير من أخشابها الرائعة ، ويكفى أنك لو تأملت بعض عشش الفراخ فوق أسطح بيوت درب المسمط ، ودرب الطبلاوى ، لوجدتها مصنوعة من أخشاب ، مشربيات توافق نفس الطراز المصنوع منه نوافذ المسافر خانة ، وإننا نرجو أن تلقى بقية المبانى الأثرية ، نفس العناية ، أيضا حى الجمالية ككل ، فى مواجهة عمليات الهدم التى تقوم بها بعض الجهات الأخرى تحت حجة التوسع والتجميل وبالذات فى حى الجمالية الذى تواجه شخصيته الأصيلة الآن خطرا فادحا بعمليات الهدم التى تزحف فيه كسرطان الدم . إننى أنصح السادة الإداريين الذين أصدروا قرارات إدارية لهدم بعض أجزاء الحى أن يعرفوا جيدا تاريخ مصر ، وأن يقرأوا البحث الرائع الذى قدمه المستشرق الفرنسى جاك بيرك عن «حى الجمالية »وأن يعرف الأجنبى عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا فهذه والله العظيم مصيبة .

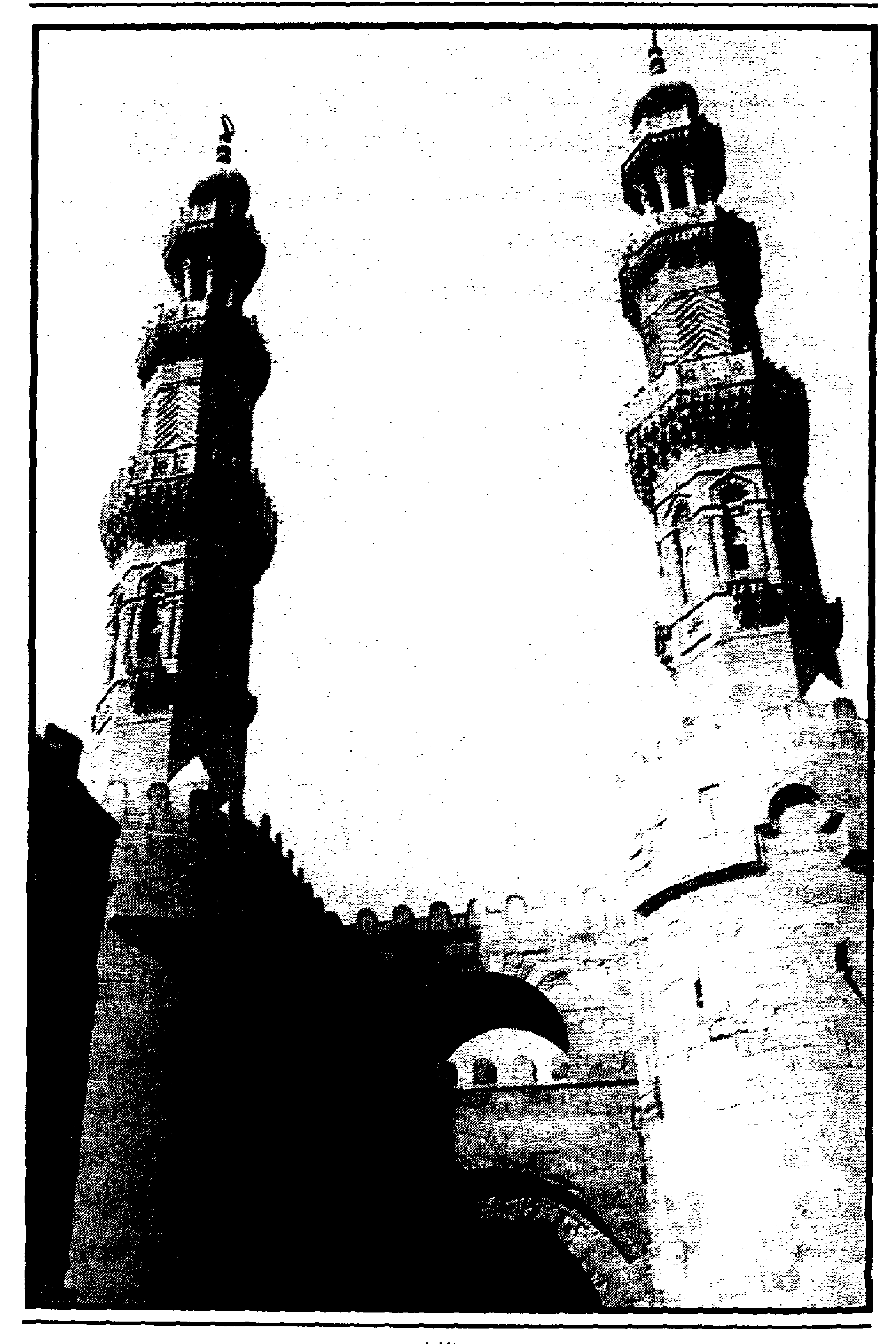


البـاب الدامـى

« . . منذ عشرات السنين فقد باب زويلة أهم وظائفه ، فلم يعد يمثل أحد مداخل القاهرة بعد أن اتسعت المدينة ، وامتدت مبانى الأهالى خارجها فيما تلى العصر الفاطمى من حقب ، ثم بطل تعليق رءوس المتمردين عليه منذ أوائل القرن الماضى ، حتى متولى حسبة القاهرة الذى كان يتخذ مكانا مجاورا له لم يعد يجلس فى نفس المكان لأن الوظيفة نفسها بطلت منذ القرن الماضى ، ولم تترك أثرا إلا على ألسنة بعض الناس الذين نسبوا الباب إلى المتولى ، فصار اسمه باب المتولى ، مابقى لباب زويلة حتى يومنا هذا قيمة مستمدة من عمره الضارب فى الزمن لمدة ألف سنة ، وبقايا اعتقاد قديم لدى بعض نساء العامة أن من لاتحبل ، تستطيع أن تدق مسمارا وتعقد عليه بعض الخيوط ، عندئذ قد تتحقق أمنيتها ، وتنجب ولدا ، غير أن باب زويلة لازال يحتفظ بعلامات من الوظيفة التى ظل يمارسها لأطول فترة من الزمن ، إنه المكان الذى كانت تعلق عليه الرءوس ، وإذا دققت النظر فقد تلمح بقايا دماء جفت منذ قرون ، فى هذا الموضع علقت رءوس فلاحين فقراء ، وأغراب ، وأعداء ، وسلاطين حكموا مصر .

مع الفتح الفاطمى لمصر جاءت قبائل مغربية عديدة ، احداها كانت تسمى «زويلة» عبد الله المهدى (٢٩٧هـ- ٣٢٢هـ - ٩٠٩ - ٢٣٣) .

وعندما جاءت قبيلة زويلة احتلت جزءا كبيرا من القاهرة ، مكان الآن حارة اليهود بشارع الموسكى ، إليها ينسب هذا الباب الذى كان أحد ثمانية أبواب اختها جوهر الصقلى فى السور الذى أحاط به القاهرة ، ويبدو أن باب زويلة كان فى البداية مكونا من جزئين متجاورين ، وعندما جاء المعز لدين الله إلى القاهرة مر من أحد القسمين ، فتفاءل الناس بذلك ، وأهملوا المرور من القسم الثانى الذى قيل عنه أن من مر منه لم تقض له حاجة ، واستمر الأمر حتى سد ، وفى العصر الفاطمى كانت القاهرة مقصورة فقط على سكنى الخلفاء ، وكبار رجال الدولة ، وكان المواطن المصرى لايستطيع اجتياز أبواب القاهرة الملكية إلا بتصريح خاص ، عاشت أسوار القاهرة الذى بناها جوهر الصقلى ثمانين عاما ، كانت من الطوب اللبن ، ولم تعد صالحة للأغراض الدفاعية ، فما أن استوزر المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى حتى أنشأ سورا آخرا من أمير الجيوش بدر الجمالى حتى أنشأ سورا آخرا من الحجر ، بعد أن مد مساحة القاهرة بمقدار ١٥٠ مترا إلى شمال السور القديم ، وحوالى ثلاثين مترا إلى الشرق ، ومثلها إلى الجنوب ، ويقول المقريزى : إن بدر الجمالى استعان بثلاثة أشقاء أصلهم من مدينة الرها بشمال العراق فى بناء هذا السور وبواباته ، وكان باب زويلة هو البوابة الرئيسية فى السور الجانبى ، وهو المتبقى حتى الآن ، إلى جانب ثلاث بوابات وصلن إلى عصرنا من البوابات الأصلية ، باب الفتوح ، بوابة النصر ، بوابة البرقية ، ويقول المقريزى :« وقد أخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن الشرق أنه لم يشاهد فى مدينة المدائن عظمة باب زويلة ، ولايرى مثل مئذنتيه اللتين عن جانبيه ، ومن تأمل الأسطر التى كتبت على أعلاه ، من خارجه فإنه يجد فيها اسم امير الجيوش والخليفة المستنصر ، وتاريخ بنائه ، وقد كانت المئذنتان أكبر مما هما الآن بكثير ، هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ المحمودى الذى بنى الجامع داخل باب زويلة ، وعمل على البدنتين ومنارتين ، والمئذنتان قائمتان حتى الآن ، خلال العصر الفاطمى لم يستخدم باب زويلة مكانا لتعليق رءوس المتمردين ، لقد كان أحد أبواب المدينة المقدسة ولاتسجل المراجع التاريخية أى حادثة أعدام تمت عند



الباب ، ويبدو أن طبيعة العصر الفاطمى وماحفل به من استقرار كانت لاتتيح فرصا كثيرة لمظاهر الشنق العلنية ، صحيح أن ثمة اضطرابات عديدة وقعت ، وكثيرا من القتلى راحوا خلال المعارك بين الأطراف المتنازعة ، ولكن تعليق الرءوس بشكل علنى لم يسجله لنا التاريخ كما سيحدث خلال العصور التالية ، وإذا رحلنا مع المؤرخ ابن إياس فى كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» فسنجده يسجل أول حادثة صلب علنية فى النصف من شعبان سنة ٦٦٥هـ ، عندما شن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى حملة لإبطال الحشيش ، وإضراب الخمارات ومنع العاهرات ، فى تلك الأثناء ظفر والى الشرطة بشخص يسمى ابن الكازرونى ، وكان سكرانا ، فأشهره فى القاهرة ، وعلق الجرة والقدح فى عنقه ، وصلبوه على باب النصر ، لم يصلب على باب زويلة ، ويبدو أن الصلب كان يتم فى الأماكن الظاهرة للناس بدون تخصيص مكان معين لذلك ، وأحيانا كان يتم على باب القلعة نفسها كما حدث فى شهر ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ ، عندما وقعت فتنة بين الأمراء والسلطان ، وتم القبض على خمسة أمراء هم الأمير أرغون شاه ، والأمير صرغتمشى ، والأمير بيبغا الساقى ، والأمير بشتاك الكريمى ، والأمير أرغون العمرى الضرير ، تم إعدامهم ، وعلقت رءوسهم على باب القلعة ، ولكن يبدو أن مثل هذا الشرف لم يكن يحظى به إلا الأمراء ، وذوى المراتب والقصد من تعليق رءوسهم على باب القلعة هو إرهاب الأمراء الباقين ، ولاعلاقة للشعب بالأمر إذن . . لماذا تعلق الرءوس على باب النصر أو باب زويلة؟

الخناقة

فى سنة ٦٩٤هـ ، وفى يوم عاشر المحرم ، ركب جماعة من المماليك تحت الليل ، وفتحوا باب سعادة ، وهجموا على اصطبلات الناس ، وأخذوا خيولهم ، فلما طلع النهار أرسل الأمير كتبغا قبض على من فعل ذلك من المماليك ، وقطع أيديهم ، وطاف بهم القاهرة ، ثم صلبهم على باب زويلة ووسط منهم جماعة (أى قسم أجسادهم بالسيف إلى نصفين ، نصف علوى وآخر سفلى) تلك أول حادثة صلب يخبرنا بها ابن إياس

فى كتابه ، تتم على باب زويلة ، ويبدو أننا لن نسمع منذ الآن فصاعدا إلا عن مكان واحد تتم فيه هذه المهام ، هو باب زويلة ، وهكذا أصبح من نصيب هذا الباب أن يكون مقرا للرءوس المقطوعة ، ليبث الذعر والخوف فى النفوس ، بينما نجد الباب المقابل له ، والذى يقع عند نهاية الطريق ، باب الفتوح ، يمثل الباب الرسمى للمدينة فعنده تبدأ مواكب السلطان أثناء عودته ، أو تنتهى أثناء خروجه ، وكان السفراء يقبلون الأرض أمامه ثلاث مرات قبل دخول المدينة متوجهين إلى القلعة ، مقر حكم السلطان .

فى سنة ٧٣٩هـ ، ظهرت بالقاهرة امرأة تسمى الخناقة ، اشتهر أمرها بين الناس ، فكانت تحتال على الأطفال والنساء ، وتخنقهم ، وتأخذ ماعليهم من الثياب ، فلما شاع أمرها ، وبلغ السلطان ، رسم لوالى القاهرة أن يقبض عليها ، فلا زالوا يتبعونها حتى قبضوا عليها ، وشنقوها على باب زويلة ، وفى مثل هذه المناسبة يتجمع الناس للفرجة ، ويبلغ الزحام أشده عند باب زويلة الذى يبدو أن اختياره لهذه المهمة تم نتيجة لكثافة حركة الناس عنده ، إنه الباب المؤدى إلى أشد مناطق القاهرة ازدحاما ، ثم إنه يتوسط مجموعة من الأسواق المتتالية التى لاتخلو من الرواد ليلا أو نهارا ومنه يخرج الناس متوجهين إلى مناطق القاهرة الجنوبية التى كانت عامرة بالناس ، كما أن أى متجه إلى القلعة لابد أن يمر به ، سواء كان أميرا ، أو سفيرا أجنبيا ، كان الباب صرة القاهرة ، وعنده لم تتوقف الدماء عن التدفق . .

القتل ظلما

وكثيرا ماكانت تختفى المأساة وراء بعض الذين عرفت رءوسهم الطريق إلى باب زويلة ، فى رجب سنة ٧٨٢هـ ، أرسل الأتابكى برقوق مرسوما إلى خليل بن عرام نائب الإسكندرية ليقتل الأمير المملوكى بركة الذى كان مسجونا ، وعندما انتشرت أخبار القتل ثار مماليك بركة على الأتابكى برقوق ، فأنكر برقوق أنه أمر بقتله ، وأرسل من أمر بالقبض على خليل بن عرام نائب

الإسكندرية الذى راح يصيح ، والله ماقتلته إلا بمرسوم الأتابكى برقوق وقد سرق المرسوم منى ، بينى وبينكم الله ،لكن أمور السياسة لاتعرف الهزل ، ولامجال كما يبدو للأخلاقيات فيها ،لقد أمر برقوق بقتله ، فدقت المسامير فى كفيه ، وأركبوه على جمل ، ونزلوا به من القلعة ، وهنا هجم عليه مماليك بركة وقطعوه ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا قلبه ، ثم علق مابقى منه على باب زويلة ، يقول ابن إياس : إن هذه الواقعة صارت مثلا عند المصريين ، «نعوذ بالله من حمول ابن عرام» ، ويورد ابن إياس شعرا مناسبا للواقعة :

مخالط السلطان فى محنة

يرتقب الأوقات فى عكسه

إن سره أسخط خلافه

أو ساءه خاف على نفسه

ومن الملاحظ أن معظم الأمراء الذين يتآمرون على السلطان كانوا يشنقون أو يعدمون بعيدا عن باب زويلة ، إما فى بيوتهم أو القلعة ، أو يرسلون إلى سجن الإسكندرية الذى كان بمثابة منفى أيضا للسلاطين المخلوعين ، ولم يسجل التاريخ أن سلطانا قد قطعت رأسه وعلقت على باب زويلة من الذين خلعوا من السلطنة ، باستثناء واحد فقط حدث فى إحدى اللحظات الحاسمة فى التاريخ ، عندما علق رأس السلطان الشهيد طومان باى ، بعد قطعه على مرأى من الأهالى ، بواسطة الجنود العثمانيين الذى غزوا مصر ، وحولوها من سلطنة مستقلة إلى ولاية تابعة ، وكان ذلك من عجائب الدهر ، لقد قاومهم طومان باى حتى الرمق الأخير ، ثم علقت رأسه فوق باب زويلة ، وأعيد تمثيل المشهد فى المقياس أيام السلطان المنتصر سليم العثمانى ، عندما صنع المخايل ديكورا يشبه باب زويلة ، وصور إعدام السلطان طومان باى ، وانقطاع الحبل به مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك وأنعم على المخايل بمائتى دينار ، وألبسه قفطان مخمل مذهب ، ودعاه إلى استامبول ليتفرج ابنه على ذلك .

وكان باب زويلة يشهد تعليق رءوس بعض الأمراء أحيانا ، كما حدث فى شوال عام ٨١٨ هـ ، عندما علقت رءوس بعض الأمراء الصغار الذى تآمروا مع الأمير قايتباى ضد السلطان المؤيد ، ويبدو أن باب زويلة كان قد صار ستارا للرعب ، فعند تعيين شخص اسمه صدر الدين العجمى فى منصب الحسبة فى محرم سنة ٨٢٣هـ ، يذكر لنا المؤرخ ابن إياس أن الأمير ططر ، أحد كبار رجال الدولة وقتئذ قال له :

«لاتظلم أحدا من السوقة وإلا شنقك على باب زويلة . .» .

وأحيانا كان الباب الدامى يشهد نهايات بعض الأحداث الغريبة . .

ثورة العبيد

فى شهر ذو القعدة سنة ٨٤٩هـ ، قام جماعة من العبيد السود بتعدية النيل إلى بر الجيزة ، وأقاموا فى الخلاء ، ونصبوا خيما ، وعلقوا على إحدى الخيام الكبيرة سنجقا ، وجعلوا لهم سلطانا ، ووزيرا ، ودوادارا ، وجعل سلطانهم يجلس على دكة ويحكم بين العبيد ، ويطلب من العبيد من هو معاد لهم ، ويأمر بإعدامه بين يديه ، ثم أصدر عدة قرارات بتعيين أمير كبير وصاحب حجاب ، وأرباب وظائف ، باختصار بدًا ينشئ نظاما موازيا لنظام السلطنة بما فى ذلك نائب الشام ، ونائب طلب ، ونواب لجميع البلاد ، يقول ابن إياس :

«فلما بلغ السلطان ذلك انحصر إلى الغاية ، وصار العبيد يقطعون الطريق على الناس ، وينهبون المغلوب ، ويأخذون خراج المقطعين وضيافتهم ، فعين السلطان لهم تجريده ، فتوجهوا إليهم فى المراكب ، فتقاتلوا معهم وكسروا سلطانهم وشنقوهم ، وسجنوا جماعة منهم وهرب الباقون ، ثم إن السلطان نادى فى القاهرة بأن كل من عنده عبد كبير يطلع به إلى باب السلسلة ويقبض ثمنه» .

أمر السطان بإعدام قادة هذه الثورة ، ونفى مابقى من العبيد إلى بلاد العثمانيين وأنهى وجود العبيد «الشناترة» من مصر ، وكثيرا ماكانت

تعلق رءوس العربان فى صحارى مصر على البوابة ، وكان بعض الذين يلقون حتفهم على تلك البوابة قد ارتكبوا حوادث طفيفة للغاية ، ونلاحظ تكرر ذلك بعد الغزو العثمانى لمصر عام ٩٢٢هـ ، إذ يشنق ملك الأمراء خاير بك فلاحا فقيرا لأنه اقتلع عودين من خيار الشنبر (نبات طبى) وطوال الاحتلال العثمانى تتكرر حوادث الشنق ، والإعدام ، بجوار البوابة لأتفه الأسباب ، حتى يذكر لنا الجبرتى معلقا ، «مع أن الزيادة سارية فى المبيعات والمشتريات من غير إنكار» ، لكنه الظلم الفادح ، ولامعقولية لماجرى خلال هذا العصر ، إلى جانب ذلك فإن بعض الذين سلكت حياتهم طرقا غير عادية ، كانوا أحيانا يلقون مصيرهم فوق هذه البوابة الدموية . .

الصعود والهبوط

فى يوم الإثنين الثالث والعشرين من محرم سنة ٩٠٩هـ ، أمر السلطان الغورى ، بشنق على بن أبى الجود على باب زويلة ، فشنق ، وظل جثمانه معلقا لمدة ثلاثة أيام ، كان على بن أبى الجود قد وصل إلى أعلى مناصب الدولة ، تولى نظارة الأوقاف وعدة مناصب أخرى هامة فى الدولة ، منها ديوان الوزارة ، والاستادارية ، وأصبح متصرفا فى أمر المملكة ، وأظهر الظلم الفاحش بالديار المصرية ، فخاف الناس منه ودخل فى قلوبهم الرعب الشديد منه ، وكان على هذا أصله من العامة ، وكان أبوه نجارا اسمه المعلم حسن ، ثم بدأ يصنع الحلوى وسمى نفسه «أبو الجود» ، واتخذ له مكانا أمام حمام شيخو ، واستمر حتى مات ، عندئذ حل مكانه ابنه على ، الذى كان يقلى الشبك بيده ، ثم بدأت رحلة صعوده عندما التزم بتوريد مال معين على أحد المناطق الصغيرة ، وهجر بيع الحلوى ، ثم التحق بوظيفة صغيرة عند تغرى بردى الاستادار ، ثم انتقل للعمل مع الأمير طومان باى ثم انتقل للعمل مع الأمير الغورى قبل أن يتولى السلطنة ، فلما أصبح سلطانا أصبح مقربا منه ، وجاء على

الناس بالظلم ، ويبدو أن البعض صار يدس له عند السلطان حتى وقع المحظور فى رمضان سنة ٩١٨ هـ ، عندما تغير خاطر السلطان عليه ، وتلك العبارة «تغير خاطر السلطان» يوردها ابن إياس ، وسائر المؤرخين عندما ينقلب مزاج السلطان على أمير مقرب ، أو صديق له ، فيتبدل حال الأخير عندئذ ، وينقلب ، لقد قبضوا على حاشية على ابن أبى الجود ، وأحاطوا على موجوده (أى على ثروته) ، وسلمه السلطان إلى موظف جديد صاعد هو الزينى بركات بن موسى ، ليعاقبه ، ويظهر ماخفى من أمواله ، ثم قام السلطان بضربه بنفسه ، ثم سلمه إلى الوالى ليواصل تعذيبه ، ثم أمر بإعدامه ، ثم . . استقر جثة هامدة فوق باب زويلة .

معتقدات

وأحاط الناس باب زويلة بالعديد من المعتقدات ، فقد اعتقد الكثيرون أنه مركزا لإقامة القطب المتولى ، ويقول إدوارد لين فى كتابه «المصريون المحدثون» أن بعض المشايخ أخبروه بوجود القطب المتولى الذى يراقب الأولياء جميعهم ، مثل النقباء والأنجاب ، وكثيرا مايظهر القطب ، لكنه لايعرف ، وهو يظهر دائما متواضعا ، رث الثياب ، ولايشتد فى مؤاخذة من يخالف الدين أو يناصره بالتقوى ، ومع أنه يختفى دائما ، فإن أماكن وجوده معروفة ، لكنه قليلا مايظهر فيها ، والمعتقد أن القطب يكون فوق الكعبة ، وهو يصيح مرتين فى الليل قائلا : «ياأرحم الراحمين» . ويسمع المؤمنون حينئذ ذلك الدعاء من مآذن الكعبة ، إن سطح الكعبة هو المركز الرئيسى الذى ينطلق منه القطب ، لكن بوابة زويلة هى مكانه المفضل فى القاهرة ، ومن هنا أصبح الناس يسمونها «بوابة المتولى» وحتى الآن يطلق عليها ذلك الاسم ، ويقرأ المارة الفاتحة عند مرورهم بها ، ويتصدق البعض على الشحاذين الجالسين هناك ، ويذكر الجبرتى فى حوادث شهر رمضان سنة ١١٢٣ هـ ، أن واعظا روميا جاء وجلس فى أحد المساجد ، وراح يهاجم مايفعله المصريون عند

ضرائح الأولياء من إيقاد شموع وقناديل ، وتقبيل أعتابهم ، وقال : إن ذلك كفر ، وهاجم وقوف الفقراء عند باب زويلة فى ليالى رمضان ، وتسبب فى فتنة كبيرة بالقاهرة ، ويصف إدوارد لين أحد الشحاذين الذين كانوا يجلسون عند الباب ، ويقول : إن الناس كانت تعتقد أنه من خدام القطب ، ويدق المصابون بالصداع مسمارا فى الباب لفك السحر ، أما المصابون بوجع الأسنان فيخلعون سنا ويولجونها فى أحد الشقوق ، أو يلصقونها به بأى حال آخر ، وكثيرا مايحاول بعض الفضوليين الاختباء وراء الباب ، آملين عبثا اختلاس النظر إلى القطب ، فى لحظة من لحظات ظهوره النادرة ، ويصف ستانلى لين بول [1] معتقدات الناس فى القطب المختفى عند الباب ، ويقول : إن له قدرة عجيبة فى التنقل من مكان إلى آخر مختفيا عن الأنظار ، والمؤمنون يسبحون أثناء مرورهم بالباب ، بينما يدفع الفضول غيرهم إلى النظر خلف الباب لعلهم يرونه ، ويستنكر ستانلى لين بول مايقوم به القاهريون من دق للمسامير ، والتماس العلاج عند البوابة ، ويبدو أن من كان يرتبط بالبوابة يصبح مقدسا ، فى أحداث سنة ١١١٥هـ ، يذكر الجبرتى موت الشيخ المجذوب أحمد أبو شوشة خفير باب زويلة وكانت كراماته ظاهرة ، وكان يضع فى فمه مائة إبرة ، ولاتعوقه عن الأكل ، والشرب ، والكلام .

وتذكر مراجع تاريخية أخرى أن سبب تسمية البوابة بالمتولى كان لوجود متولى حسبة القاهرة على مقربة من المكان ، ولكنى أرجح السبب الأول الخاص بإقامة القطب المتولى ، خاصة وأننى سمعت الكثير من روايات أهالى المنطقة ومعتقداتهم فى البوابة حتى يومنا هذا .

لقد احتلت هذه البوابة موقعا فى الأدب المصرى ، فثمة رواية كاملة تدور حولها ، كتبها محمد سعيد العريان ، وتجرى أحداثها خلال السنوات الأخيرة للسلطنة المملوكية المصرية ، قبل زوالها على أيدى

(١) سيرة القاهرة ـ ستانلى لين بول ـ ص ٢٤

العثمانيين ، وفى ألف ليلة وليلة نجد باب زويلة مسرحا لإحدى حوادث النشل ، وتدور « السكرية »أحد أجزاء ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة فى حارة تقع ملاصقة لبوابة زويلة .

وحتى الآن لاتزال البوابة العتيدة ، تقوم فى وسط البيوت التى تزاحمت حولها ، وكادت تخفى معالمها ، رمادية بأحجارها ، قانية بتاريخها ، يلفها غموض وإبهام لكثرة مانسج حولها من أساطير ، لكن أبرز مايتعلق بها ، أن الآلاف لاقوا حتفهم هنا فوقها ، بعضهم من أفراد الشعب المصرى المغلوب على أمره . وآخرون ارتكبوا جرائم قد تكون صغيرة أو كبيرة ، وأمراء متمردون ، وأسرى انتهت حياتهم فى ذلك المكان ، وسلطان واحد ، شنق وهو يدافع عن آخر ماتبقى فى سلطنة مصر المستقلة . .

. . نحن الآن فى القرن العاشر الهجرى . . السادس عشر الميلادى .

على مهل ينزل الليل فوق القاهرة أبواب الحارات أغلقت وتجمع خلفها السكان يتسامرون . بعض المقاهى لاتزال ساهرة مضاءة بنور القناديل أما شارع الصليبة وهو الشارع الرئيسى فى قاهرة ذلك الزمان . . فالدكاكين لاتزال مفتوحة ، لم تغلق أبوابها بعد ، دكاكين المشبك والحلوى والأطعمة المختلفة ، والحرفيون الذين يستكملون أعمالهم التى لم يتسع لها النهار . بين الحين والحين يعبر الطريق مملوك يركب جوادا ، أو كوكبة من حرس السلطان الخاص . لايتوقفون إنما يتجهون إلى ميدان الرميلة ، حيث يصعدون إلى القلعة بينما يعلو صوت طبل وأبواق نحاسية ، أحد الأمراء يدق الطبل أمام داره ، ويجب أن نعرف أنه كلما علا صوت الطبل وكثر ، دل هذا على مكانة ومقدار الأمير .

عموما . . واضح أن الجو وديع . مستقر لم تحدث اليوم فتن بين الأمراء ، لم تقع مشاجرات ، فى الأسواق ، القاهرة آمنة ، إنها إحدى

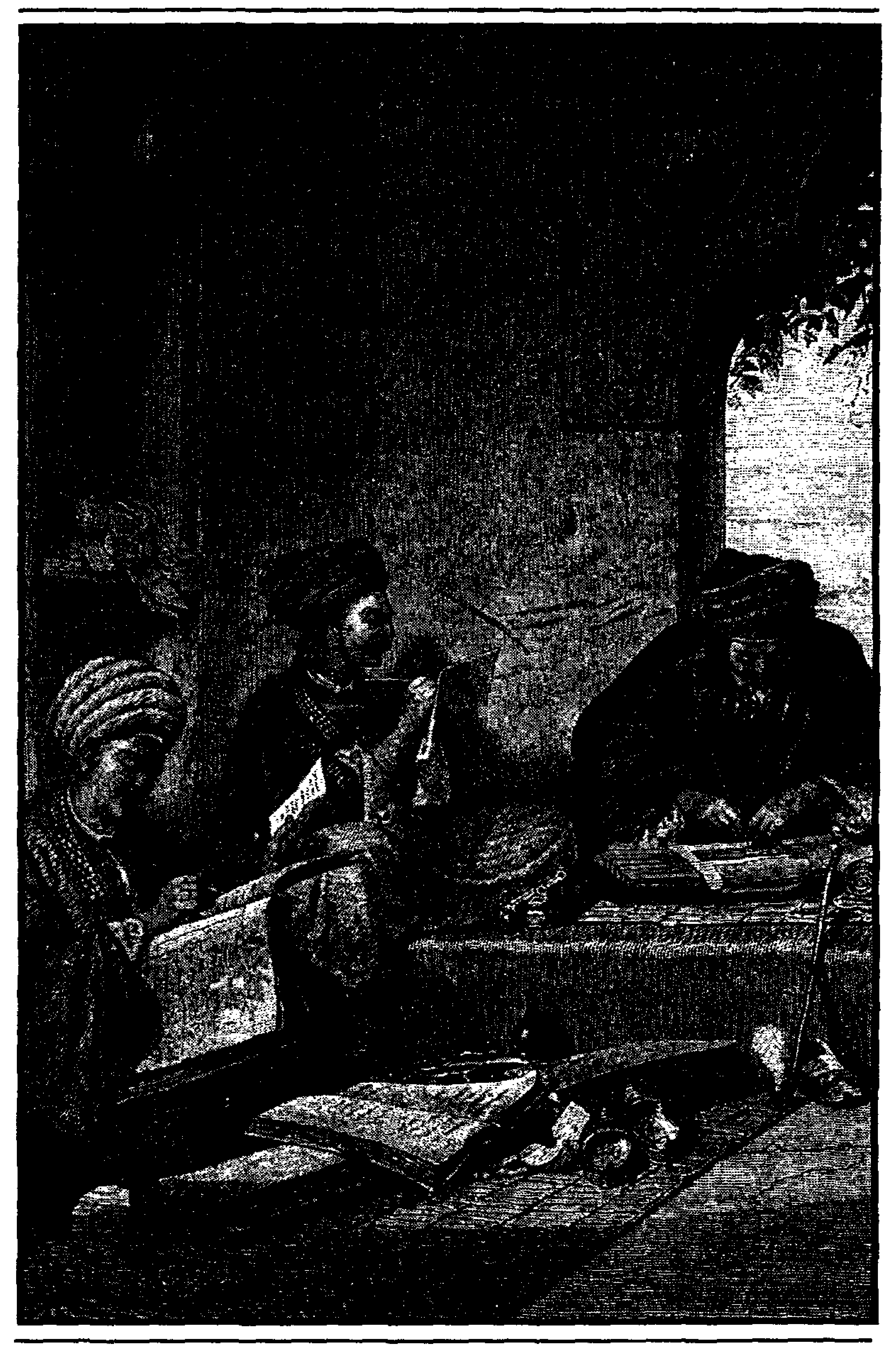
الليالى الهادئة التى تخللت حكم السلطان الغورى ، إذن ، لنمض عبر الطرقات إلى ميدان الرميلة « القلعة حاليا» ، نصعد إلى البلاط السلطانى ، فى الطريق إلى القلعة نلمح القاهرة فى الغروب ، إن القاهرة تبدو فاتنة من فوق هذا المرتفع ، ومصدر الفتنة كثرة المآذن الرشيقة ، كل منها يتكون من ثلاثة أدوار أو أربعة من الشرفات ، وتبدو المآذن وكأنها مضفورة بالخضرة الجميلة التى تتحلى بها أشجار النخيل الكبيرة التى تنمو فى حدائق المدينة ، وهذا جميعه يخلق جوا من التناسق الرائع .

إننا الآن نتجه إلى قلب قلعة السلطان التى تبلغ فى اتساعها مساحة مدينة (أورليان) نمر بساحة بها نحو خمسمائة مملوك فى تشكيل عسكرى ، ثيابهم طويلة بيضاء ، قبعاتهم مستديرة خضراء وسوداء ، ثم نمر بساحة أخرى بها نحو خمسين موسيقيا بآلات مختلفة ، ونسير فى عدد من الممرات ذات القباب بين صفين من المماليك ، يواجه كل منها الآخر حاملين فى أيديهم الرماح .

مجالس السلطان الغورى

ندخل الآن إلى قاعة (الدهيشة) ، حيث تقام السهرات السلطانية ، بريق الفضة والذهب يكاد يأخذ أبصارنا ، الأرض كلها مغطاة بالسجاد الثمين ، هنا لابد أن ننحنى ، السلطان الغورى يجلس فوق مرتفع مغطى بالسجاد الحريرى ، وأمامه على الأرض سجادة لاتقل مساحتها عن عشرين قدما مربعة ، ملابسه من الحرير الأصفر ، وعلى رأسه عمامة مصنوعة من نسيج رفيع من الهند ومشكلة على هيئة ست قمم ، اثنتان إلى الأمام واثنتان إلى اليمين ، واثنتان إلى الشمال ، الحاضرون الليلة كبار العلماء والأدباء فى السلطنة ، الشيخ حسين جلبى ، والشيخ شمس الدين السماديسى ، والشيخ حسين بن محمد الحسينى ، وهو الذى ألف كتابا قيما بعد أن جمع فيه مادار فى هذه السهرات .

قبل أن تبدأ الجلسة ، نطيل النظر إلى السلطان الأشرف قنصوه الغورى ، إنه طويل القامة ، غليظ الجسد ، ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، لايظهر الشيب بلحيته إلا قليلا ، واضح من ثيابه أنه يميل إلى الأبهة فى أصابعه خواتم الياقوت الأحمر ، والفيروز والزمرد ، والماس ، نعرف أنه مغرم بشم الرائحة الطيبة ، واضح هذا من تلك الرائحة الناعمة الجميلة التى تملأ المكان ، وهنا لندع



ابن إياس ، المؤرخ المصرى العظيم ، وشاهد العصر ، يقدم لنا وصفا لمزايا السلطان الغورى .

يقول ابن إياس :

«كان الغورى رضى الخلق ، يملك نفسه عند الغضب ، وكان له اعتقاد زائد فى الصالحين والفقراء ، وكان ماسك اللسان عن السب فى شدة غضبه ، وكان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وله نظم باللغة التركية ، وكان قريبا من الناس يحب المزاح والمجون فى مجلسه ، غير كثيف الطبع فى ذاته ، وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولاتكبر نفس .» .

وبالتأكيد ، هذه صفات تدل على رقة الطبع ، وحب الحياة ، ويمكننا الاطمئنان جدا إلى وصف مؤرخنا ابن إياس ، ويؤكد هذا أن جميع الحوادث فى تاريخ السلطان الغورى تجسد وصف ابن إياس ، بالإضافة إلى جرأة مؤلفنا التى كانت لاتدعه يجامل السلطان فعندما كان يأتى عملا فيه ظلم للخلق من جانب الغورى ، كان ابن إياس ينقده بجرأة تدعو للإعجاب ، إن السلطان الغورى الذى يتصدر الآن قاعة الدهيشة ، لايدر ملك مصر وحدها ، إنما الأقطار التى تتبعها أيضا ، أى الشام ، وبلاد العرب ، وبعض الجزيرة الفراتية ، وبلاد العواصم وهى الجزء الجنوبى من آسيا الصغرى ، وفى عهده كانت الأساطيل المصرية التى وصلت إلى سواحل الهند تتصدى للبرتغاليين الذين نجحوا فى الوصول إلى المحيط الهندى عن الطريق الجديد الذى اكتشفه فاسكودى جاما عبر رأس الرجاء الصالح ، وكان بعض أمراء الهند يستنجده على الفرنج فيرسل الأساطيل والجند فى الحين بعد الحين ، بالإضافة إلى هذا كان السلطان الغورى يواجه الدولة العثمانية الوليدة ، التى دأبت على التحرش بحدود مصر .

كانت الفترة تنبئ بوقوع أحداث جسام ، وبالتأكيد فإن هذه الأمور

كلها تشغل بال السلطان الغورى ، تضج بها المكاتبات اليومية ، والرسائل إلى الولاة ، وأمور الجيش ، لهذا لابأس من عقد هذه السهرات ، لتخفيف الواقع الصلب . .

سهرات السلطان عديدة ، والمسائل التى تناقش فيها متنوعة ، لهذا آثرنا إعادة صياغة المسائل التى طرحت فى هذه السهرات ، فى ثلاث سهرات ، خصصنا لكل منها موضوعا شبه موحد ، ودليلنا ومرشدنا إلى مضمونها هو الشريف حسين بن محمد الحسينى ، الذى واظب على حضور السهرات ، وتدوين ماطرح بها ، وسجل هذا فى كتاب أسماه «نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية» ، والكتاب الثانى اسمه «الكوكب الدرى فى مسائل الغورى» .

لم يتبق الكثير على بدء السهرة الأولى ، والتى خصصناها للألغاز التى طرحت . .

السهرة الأولى:

والشيخ عبد الرازق ، هو الذى أم المصلين الليلة فى صلاة العشاء ، يبدأ المجلس بطرحه لغزا صيغ شعرا . . قال الشيخ عبد الرازق :

ألا فأخبرونى أى شىء رأيتمو
من الطير فى أرقى الأعاجم والعرب
فيؤكل مطبوخا لذيذا وتارة
فيؤكل مشويا إذا اشتد فى اللهب
وليس له أيد ، وليس له فم
وليس له رجل وليس ذنب
وليس له مخ وليس دم
وليس له عظم وليس له زغب

وهنا قال السلطان : هو البيض . .

وقبل الاسترسال فى السهرة ، يحق لنا إن نبدى ملاحظة ، فكما سبق القول اعتمادنا الأول والأخير هنا على الكتابين السابق ذكرهما ، ولكن يبدو أن كلا المؤلفين وكلاهما شيخ جليل ، قد جاملا السلطان أكثر من اللازم ، فالسلطان هو الذى يحل الألغاز كلها ، وهو الذى له القول الفصل فى المسائل الفقهية ، ورأيه هو الناقد . ولكن ماذا نملك ، لانستطيع إلا العودة لنسجل ماأعقب حل اللغز الخاص بالبيض . .

قال أحد الشيوخ الحاضرين :

هناك حكاية مناسبة لهذا اللغز ، إذا اجتمع جماعة من الشعراء فى خدمة سيف الدولة وقصدوا إيذاء المتنبى ، فقالوا : إننا نبيض فى هذا المجلس ، وكان مع كل واحد منهم بيضة مخفية ، فلما جاء دور المتنبى صاح صيحة الديك ، فقال السلطان : ماهذا ؟ قال : لابد لهذه الدجاجات من ديك . وهنا طرح اللغز الآتى :

وميت يقبر طعمه عند رأسه
إذا ذاق من ذاك الطعم تكلما

يقوم ويمشى ناطقا بفصاحة
ويأوى إلى القبر الذى كان قيما

وأطرق السلطان لحظة ثم قال : (هو القلم) .

ثم تتابعت الالغاز :

خليلان ممنوعان من كل لذة
يبيتان طول الدهر مجتمعان

إذا أمسيا كانا على الناس حارسا

وعند طلوع الفجر يفترقان ؟؟

قال السلطان : هو الباب . .

اللغز الرابع :

وذى سفر لايحب المقام

ولا يسأم السير فى كل حال

يبيد الليالى فى مره

وتضنيه فى مرهن الليالى

قال : هو القمر .

اللغز الخامس :

وآكلة بغير فم وبطن

لها الأشجار والحيوان قوت

إذا أطعمتها نعشت وعاشت

وإن أسقيتها ماء تموت

قال : هى النار .

وهنا قال أحد مشايخ الحاضرين حكاية تناسب المقام :

قيل لكسرى أنو شروان ، إن فى عسكر سلطان السودان والحبش أربعمائة ألف رجل فقال أنو شروان لهم : لاتخافوا لأن النار القليلة تفنى الحطب الكثير ، وقيل أيضا للإسكندر : إن فى عسكر دارا ملك الفرس ثلاثمائة ألف رجل ، فقال الإسكندر الأكبر : بكثرة الغنم لاتخوفوا القصاب .

وهنا أصغى السلطان ليستمع إلى اللغز السادس :

أتى بلغــــز ثلاثى يعــــجـــزنى
وظن ذلك بحـــــرا لست أسلكه
وقـال فسـره شـمس الدين قلت لا
مولاى لغزك ليس الشمس تدركه

قال : هو القمر .

وهنا دخل الشيخ ابن النحاس ، بعد أن حيا السلطان وجلس ، قال :

«كنت فى خدمة قاضى كاتب السر ، فقال لى : تعالى إلى تفرج على كسر النيل ، وأنا ما رضيت ، لأن مولانا السلطان هو البحر الكبير ، وبحر النيل فى هذه الليلة وهذا البحر ، بحر مولانا السلطان لانرى منه إلا جبر الخواطر» .

وهنأ الحضور بعضهم فالليلة تم كسر السد المقام عند فم الخليج ، لقد أوفى النيل ، ثم ألقى اللغز السابع :

مـــــاسم شىء حـــســن شكله
تلقـــــه عند الناس مـــخــــزونا
نراه مـــــعــــــدودا فـــــإن زدته
واوا ونونا صـــــــار «مـــــوزونا»

قال : هو الموز .

اللغز الثامن :

لى جمع أصحاب أعشقهم وأهواهم
ولاأشتهى قط أنظرهم ولاادراهم
ماطاب لى عيش فى الدنيا برؤياهم

قال السلطان : هم الأسنان .

السهرة الثانية

نحن الآن فى قاعة الأُشرفية ، إحدى القاعات الرائعة فى قلعة الجبل ، الحضور لم يتغيروا ، الخليفة والعلماء وكبار رجال السلطنة ، وإمام الصلاة كان الليلة الشيخ كمال الدين البرقوقى ، السلطان يتصدر القاعة ، مملوكان يقفان فوق رأسه ، يحملان رمحين من الذهب الخاص ، بين الحين والحين تهب نسمات خفيفة . الليلة هواؤها عليل ، لاعجب ، فالوقت خريف ، وسهرة الليلة تعد بالكثير فما سيدور الآن ، يتناول النوادر والحكايات والعظات والعبر .

بعد أن قرأ الشيخ البرقوقى البسطة ، قال :

«والله مافى الدنيا أحسن من الأدب ، والأدب جوهرة والعقل معدنها ، كان السلطان محمود يلعب الشطرنج مع صاحبه إياس ، كان يقول له : ياسيدى العب . ياأمير العب ، فقال إياس : يامولانا السلطان مأأنا مستحق لهذا التعظيم ، فقال له السلطان ، قصدى مداومة لسانى على الكلام المليح ، واجتناب الكلام القبيح .

وهنا أبدى الحضور استحسانهم ، وقال الشيخ السماديسى :

«حدث أن ملك الهند فقد سمعه وصار أصم ، فاشتد حزنه لما دخل عليه أهل مملكته لتعزيته فى سمعه ، قال حزنى ليس بسبب إصابتى ، بل بسبب أنى مأأقدر على سماع استغاثة المظلوم ، ولكن إذا ماذهب سمعى لم يذهب بصرى ، لهذا أمرت أن يلبس كل مظلوم ثوبا أحمر حتى إذا رأيته عرفت أنه مظلوم فأقربه منى وأنصفه . .

وهنا قال السلطان الغورى :

«قال النبى صلى الله عليه وسلم ، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» . . فى هذه اللحظة وصل الشيخ سعيد ، أحد ندماء السلطان ، وكان مشهورا بخفة دمه ، واطلاعه الواسع على النوادر ،

والحكايات ، وبعد أن قبل الأرض بين يدى السلطان جلس مسلما على أصحابه ، ثم قال :

«سمعت الآن حكاية ظريفة أرى ألا أحرمكم منها . . » نظروا إليه ضاحكين ، استمر الشيخ سعيد . .

«ركب أحد أثرياء الهند مع الوزراء فلما وصلوا إلى زريبة البقر ، وجدوا البقر يصيح ، فسألوا الثرى وكان اسمه الخواجا محمود ، مايقول البقر ؟ !

فقال : البقر يقول لى ، اخرج من بين الحمير وتعالى عندنا . .

وضج المجلس بالضحك ، اهتز كرش السلطان الغورى ، وبعد أن هدأ قال :

«ذكرنى هذا بحادثة جرت مع السلطان قلاوون ، إذ ادعت جماعة محبته حبا شديدا ، فقال لهم : إن كنتم تحبوننى ارموا أرواحكم فى القصر ، فقالوا : باسم الله ، وجروا من أول سطوح القصر إلى نهاية أطراف القصر ، ووقفوا قائلين : «يامولانا السلطان محبتنا لك إلى هذا الوضع ، فمن يزيد علينا قدما فالمحبة له . .»

وعلت ضحكات المشايخ والأمراء ، وصفق بعضهم طربا واستحسانا ، ومن بين الحضور علا صوت الشيخ السماديسى :

«قرأت أن بعضهم سأل أفلاطون ، ماعلة ملوحة البحر ؟ !

فقال لهم : بينوا لى فائدة العلم بهذا حتى أبين لكم علته . .

وارتسمت على الوجوه ابتسامات خفيفة ، وهنا قال الشيخ سعيد :

«تعرفون ابن عثمان طبعا ، حدث أنه أمر ناصر الدين- وناصر الدين يماثل جحا عند العرب- أن يشوى له إوزا ، فشوى وأكل منه رجلا ، فسأل السلطان عن رجل الإوز ، فقال مايكون للإوز غير رجل واحدة ، فسكت السلطان ، وبعد قليل ركب السلطان ومعه الشيخ ناصر الدين

وبالصدفة قابلوا إوزا يقف على رجل واحدة ، فقال ناصر الدين للسلطان : انظر كل واحدة منها برجل واحدة ، فدق السلطان الطبل ، فمدوا أرجلهم ، قال السلطان للشيخ ناصر الدين : لقد أكلت رجل الوز وكذبت ، بسرعة قال ناصر الدين : يامولانا أنت لم تدق طبلك ساعتها حتى يمد الوز المشوى رجله الملتم . .

وهنا قال السلطان ضاحكا . .

«والله تذكرنى ياشيخ سعيد بقول أحد الحكماء : الهزل فى الكلام الملح فى الطعام . . وعلا صوت الشيخ البرقوقى بنادرة :

«قرر السلطان محمود بقاء اسمه إلى يوم القيامة ، فقيل له ، ابن العمارات التالية ، فقال ، تخرب بعد ثلاثمائة أو أربعمائة سنة ،استقر رأيه على تأليف الكتب باسمه . فأمر شاعره الفردوسى بنظم ملحمة طويلة اسمها «الشاه نامه» ووعد الفردوسى بقطعة ذهب إزاء كل بيت ، فلما أتم الفردوسى الملحمة ، قال الوزير للسلطان محمود ، يكفيه قطعة فضة فى كل بيت ، وكان عدد الأبيات ستين ألفا ، فأرسل السلطان ستين ألف قطعة فضة إلى الفردوسى ، وكان لحظتها فى الحمام ، فأعطى صاحب الحمام عشرين ألف كأجرة له ، وشرب خمرا بعشرين ألفا ، وأعطى الباقى بقشيشا لمن جاء بها ، فلما سمع السلطان بهذا ، أمر بقتله ، واختفى الفردوسى ، وأنشد يهجو السلطان وأضاف الهجاء إلى ملحمة (الشاه نامه) ،وعندما اطلع السلطان على هجاء الفردوسى اغتاظ جدا وأمر بقتل الوزير الذى أشار إليه بإبدال الذهب بالفضة ، وأرسل ستين ألف قطعة ذهبية إلى مدينة الفردوسى ، فلما وصلت القطع الذهبية إلى باب المدينة كان تابوت الفردوسى يخرج من الباب الآخر ، فعرضوا الذهب على ابنته لكنها رفضت ، فأمر السلطان بصرف القطع الذهبية على العمارة لأجل روح الفردوسى . .» .

قال السلطان الغورى متمهلا :

أذكر هنا قول على بن أبى طالب رضى الله عنه : شرف الشخص بالعلم والأدب ، لا بالأصل والنسب . .

مصمص القوم شفاههم ، وسادت لحظة هدوء ، قطعها الشيخ سعيد بضحكة عالية ، قال بعدها :

سمعت أنه كان هناك رجل طويل الأنف ، مدح نفسه عند جماعة بأنه رجل متحمل للمكاره ، قيل له لولا صبرك على المكاره لما قدرت أن تحمل هذا الأنف ستين سنة . .

هنا زعق الأمير يشبك زعقة هائلة ، صاح : «احترم نفسك ياشيخ سعيد . . اكتسى وجه الشيخ لونا أصفر ، ولاحظ الحضور أن أنف الأمير كبير حقا ، وابتسم بعضهم ابتسامات خفيفة ، حتى السلطان الغورى نفسه ، نظر الشيخ مذعورا إلى السلطان مستجيرا به ، أشار السلطان : «اهدأ يايشبك . . الشيخ سعيد لايقصد . .

نظر الأمير إلى السلطان ، قال والغضب فى صوته . . «والله لولا وجودك يامولانا» . .

هنا علا صوت الشيخ برقوقى . .

«اهدأوا ياجماعة ، أذكر قول سيد العرب والعجم ، صلى الله عليه وسلم ، سيد الكلام العربية ، وسيد كلام العربية القرآن ، وسيد الجبال طور سيناء ، وسيد البلدان مكة ، وسيد السودان لقمان ، وسيد فارس سلمان ، وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال ، وسيد القوم خادمهم . .

قال السلطان الغورى ، بصوت عميق . .

قرأت فى أخبار السلطان محمود أنه خرج ليلا فى زى فقير ، فرأى عجوزا مهمومة فقال : ماسبب همك!؟

قالت يجىء جندى ويزنى ببنتى كل ليلة ، قال : مالباسه وزيه !؟ قالت كذا وكذا ، ومضى السلطان وجمع الأخبار حول حقيقة هذا الشخص ، وفى الليلة التالية خرج السلطان متخفيا أيضا ، لكنه يحمل سيفه ، جاء إلى بيت العجوز ، قال ياعجوز اطفئى السراج ، وقتل الجندى الذى دخل قاصدا الاعتداء على ابنتها ، ثم قال السلطان : هل عرفت من هو !؟ قالت لا . . لم أعرفه ، قال السلطان : هذا ابنى ، وأنا السلطان محمود ، وقد أمرتك بإطفاء السراج حتى لا أنظر وجهه فأرحمه . .

أبدى الحاضرون استحسانا ، وقال الشيخ الدميرى : إصلاح الرعية أحسن من كثرة الجنود والمملكة . .

وهنا انفض المجلس ، وأذن السلطان الغورى للحضور بالانصراف ، على أن تكون السهرة التالية مخصصة للمسائل العلمية ، والفقهية ، وعلى الطريق النازل إلى المدينة ، مشى العلماء والامراء إلى اصطبل الخيول السلطانية ليركبوا إلى بيوتهم ، بينما النسيم يهفو من ناحية النيل فوق المدينة النائمة فى دعة .

السهرة الثالثة:

بدأ السلطان الغورى بتوجيه السؤال الأول إلى الحضور :

- ماالحكمة فى الكسوف والخسوف؟

قال الشيخ كمال الدين :

- هما آيتان من آيات الله ، كما ورد فى السنة .

أجاب الشيخ السماديسى إجابة ثانية ، وكانت له معرفة بالعلوم :

- سبب الخسوف حيلولة الأرض بينه وبين الشمس ، والقمر مظلم ، فيبقى القمر بلونه الأصلى أسود .

قال الأمير طغلق ، المسئول عن تشييد المبانى السلطانية :

– هذا مخالف لقوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نورا) . .

وهنا سأل السلطان الغورى . .

– ماالفرق بين الضوء والنور . .

قال الشيخ السماديسى . .

– الضوء هو النور الغالب القاهر المحرق بخلاف النور ، فإنه يطلق على غير المحسوس أيضا . . كنور القلب ، ونور الإيمان ، بعكس الضياء . .

سكت السلطان الغورى لحظة ، أطال النظر إلى سقف القاعة المنقوش بنقوش دقيقة ، أغصان متشابكة ، مطلية بالذهب ، مطعمة بالصدف والفيروز ، فوق القاعة والقلعة والمدينة تعلو السماء الليلية مرصعة بالنجوم . .

سأل السلطان :

– ماسبب خضرة لون السماء؟

قال الأمير يشبك :

– إنما جعلها خضراء لتكون مناسبة للبصر ، لأن الأطباء يأمرون بإدمان النظر إلى الخضرة ليكون فيه قوة للبصر ، وقيل من خضرة أشجار الجبل المذكور . .

بعد لحظات ، سأل الشيخ البرقوقى :

– قال أحد السلاطين القدماء ، معنى العيد فى اللغة هو السرور ، فسرور المسلمين لذهاب رمضان محير ، وهو الشهر الذى تغلق فيه أبواب جهنم ، وتفتح أبواب الجنة؟؟ .

فالقياس ألايفرح المؤمن بذهاب مثل هذا الشهر !!

وهنا أجاب السلطان الغورى :

- فرح المؤمنون لأجل أنهم أدوا هذه الفريضة أداء كاملا ووصلوا إلى درجة الصائمين الكاملين ، بسبب انتهاء شهر رمضان . .

سأل الشيخ السماديسى :

- رجل مكره على سب النبى فالأولى له أن يرتد باللسان أو يصبر على الضرب حتى الموت؟ !!

قال السلطان الغورى :

- الأولى الصبر ، لو وقعت أنا ، والعياذ بالله ، مجبورا ، مكرها على سب النبى ، أختار الموت ولا أسب النبى . .

قال الأمير يشبك :

قال تعالى« ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، ظاهر الآية يدل على أن المختار السب!!

قال السلطان :

- المراد من الآية الكريمة الرخصة فى الجملة لا أن السب واجب عليه ، ولكن المفروض عدم السب نهائيا ، والصبر على الضرب كما ذكره النووى فى الروضة . .

قال الشيخ سعيد بصوت عال :

- إذا دخل أربعون نفسا على مولانا السلطان ، الذى دخل أولا أخذ دينارا ، والذى دخل ثانيا أخذ دينارين . . والذى دخل ثالثا أخذ ثلاثة دنانير ، إلى الشخص الأربعين فقد أخذ أربعين دينارا ، إذن كم يكون المجموع . .؟

قال السلطان :

- المجموع سبعمائة وثمانون . .

وعاد الشيخ سعيد يسأل :

- إذا وقع من يد شخص لؤلؤة فابتلعتها نعامة ، فما الحكم فى . .؟

قال السلطان الغورى :

- إذا كانت قيمة اللؤلؤة أكثر تذبح النعامة ، وإن كانت قيمة النعامة أكثر من اللؤلؤة تترك .

وهنا سأل السلطان . .

- من بنى الأهرامات ؟

قال الأمير يشبك . .

- ذكر الشيخ جلال الدين السيوطى أن الأهرامات بنيت قبل الطوفان ، لأنها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس ، وقيل بناها شداد بن عاد ، وقيل سوريد بن صهلوق ، وكان ملكا لمصر ، وقد رأى حلما فى منامه ملخصه أن الأرض انقلبت بأهلها وفنى كل شىء ، وعندما استيقظ جمع كهنته فتنبأوا بالطوفان ، فأمر عندئذ ببناء الأهرامات وملأها بجميع ماكتبه الحكماء فى العلوم ووضع فيها أصناف الأسلحة ، والأدوية والعقاقير ، وعين لكل هرم حارسا حتى لايقترب منها أحد قط ، وقيل إن الأهرام عليها كتابة معناها «أنا سوريد الملك بنيت الأهرام فى ست سنين ، فمن أتى بعدى وزعم أنه مثلى فليهدمها فى ستين سنة ، والهدم أيسر من البناء . .»

وعند هذا الحد من حديث الأمير يشبك عن الأهرامات ، نفارق السهرة عائدين إلى المدينة ، فالسهرات تطول ، ولكن الموضوعات لاتخرج عما أوضحناه سابقا ، وأثناء نزولنا إلى القاهرة عائدين من قلعة الجبل

يتردد فى أذهاننا حديث الأمير يشبك ، بالطبع لم يكن التاريخ الفرعونى معروفا لأهالى العصر ، لكن كانت الآثار القائمة فى الوادى ، تحير الأهالى برموزها ورسومها ، من هنا صاغ الشعب تاريخا أسطوريا لمصر ، يمتزج فيه الخيال باللاوعى الجماعى للشعب المصرى والذى يختزن أحداث التاريخ القديم ولكن فى صورة أسطورية لاعلاقة لها بالواقع والتاريخ الحقيقى . .

لاتفارقنا هيئة السلطان الغورى ونحن نفارق عصره ، هذه الفترة التى تثير الخيال الإنسانى ، بكل ماحوته من مواكب سلطانية ورياضة المماليك وألعابهم فى الساحات ، واحتفالات الأهالى ، والمواسم ولهو الشعب وإيقاع حياته اليومية ، وكدحه وكده من أجل صناعة الحضارة .

كانت فترة حكم السلطان الغورى آخر سنى هذا العصر الزاهى البراق ، عصر السلطة المملوكية ولنذكر فى نهاية هذه السهرات ، أن السلطان الغورى ، خرج مدافعا عن ملكه ، وعن مصر ، فى جيشه المملوكى ، متصديا للعثمانيين فى مرج دابق ، وأنه حارب ولكن الخيانة هزمته ، فسقط شهيدا ، ولم يعثر على جثته ، ولم يدفن حتى الآن فى قبر ، هذه القبة الشهيرة التى تقوم فى مدخل شارع الغورية ، والتى أنفق عليها وبناها ليدفن فيها ، ولكنه مات شهيدا غريبا فى سهول حلب . .

النشـــو

يفصلنا عن شرف الدين عبد الوهاب النشو سبعة قرون هجرية ، مات الرجل منذ زمن بعيد ، ولكنه لازال يسعى بيننا ، هذا ماتقوله سيرته وأفعاله ، وماتقوله سيرة وأفعال الكثيرين ممن يعيشون حولنا الآن .

والنشو لم يكن بطلا من أبطال التاريخ ، إنما كان رجلا عاديا ، بدأ حياته بخدمة الأمراء فى زمن السلطان الناصر بن محمد بن قلاوون . كان مستخدما عند ابن هلال الدولة شاد الدواوين ، وكان يتردد عليه كثيرا ويبالغ فى خدمته ، واستخدمه ابن هلال الدولة فى الأشغال ، وأثناء ذلك تزوج الأمير أنوك ابن السلطان من ابنة الأمير بكتمر الساقى ، وبدأ السلطان يفكر فى شخص يعينه لخدمة ابنه ، ولابد أنه فكر فى النشو ، كان النشو قد وقف بين يديه أكثر من مرة ، وتحدث إليه ، وعندما كان يتكلم إلى السلطان كان يركز كل حواسه ، ومواهبه حرصا على أن يترك أثرا فى نفس السلطان ، فى صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة هجرية ، التحق النشو بخدمة الأمير أنوك ، وكان هذا أول صعوده . .

أصبح النشو قريبا من السلطان بحكم موقعه الجديد ، وصار يتردد كثيرا على القلعة ، يخلو إلى السلطان ،ويحادثه فى أمور الدولة ، ويبدى الحرص البالغ على أموال السلطان ، ومصالحه ، وسير العمل فى الدواوين ، وفى أثناء إبدائه والحرص ، كان يرمى عبارات هنا وهناك فى حديثه فى البداية كان يلفظها بحذر ، ثم لاحظ أن أذنى السلطان

مصغيتان إليه فزاد من الدس والوقيعة ، وكان مظهره يساعده ، إنه طويل القامة ، مليح الوجه ، حلو التقاطيع ، برىء السمات ، أثر كلامه فى نفس السلطان حتى بات مقتنعا أن النشو بحرصه عليه يمكنه أن يحصل له مالا كثيرا ، فأصدر مرسوما بأن يتولى النشو نظارة الخاص ، أى يكون مسئولا عن أموال السلطان وممتلكاته ، وهذه وظيفة هامة جدا ، ولكن النشو لم يهدأ ، ولم يتوقف ، أخذ يتحدث إلى السلطان عن أولاد موظف كبير اسمه التاج إسحق ، راح يحدثه عن الأموال التى جمعوها بالباطل ، وكرههم له ، وكان أحد هذين الولدين قد تولى وظيفته فى نفس اليوم الذى عين فيه النشو ناظرا للخاص ، وهو شرف الدين موسى ، لم يمض إلا عشرون يوما فقط ، وعمل كلام النشو عمله فى السلطان ، فأصدر مرسوما بعزل شرف الدين موسى من نظر الجيش ، وأمر بالقبض عليه ، وعلى شقيقه ، ومصادرة ثروتيهما ، وكان أسلوب السلطان الناصر قلاوون غريبا فى ضرب موظفيه ، لقد استدعى ابن هلال الدولة ، وأسر اليه أن يمضى ليحاصر بيوت أولاد التاج إسحق بمجرد دخول الأمراء البلاط ، وبالفعل دخل الأمراء ، وكبار موظفى الدولة - وبينهم شرف الدين موسى - إلى السلطان ، عندئذ التفت السلطان إلى القضاء وأخذ فى الثناء على شرف الدين ، وقال فى آخر كلامه :

«أنا رأيت هذا وعملته كاتبى» .

فى هذه اللحظة بالذات كان الجنود يحيطون بيته ، وبيت شقيقه ، وعندما خرج من البلاط ، واتجه إلى مقر وظيفته ، كانت العيون تحيطه بالرهبة ، ألم يثن عليه السلطان علنا ، ولكنه ما أن جلس بديوان الجيش حتى بلغه أن الحوطة قد وقعت على بيته ، وأن رسل الديوان ، على باب الجيش ، وبلغ الخبر أيضا إلى أخيه علم الدين ، وفى العصر صعد ابن هلال الدولة بأوراق الحوطة (كشوف جرد المحتويات) وهى تشتمل على أشياء كثيرة جدا ، منها على سبيل المثال ، أربعمائة سروال لزوجة

علم الدين ، أمر السلطان بتسليم الأخوين إلى ابن هلال الدولة للتحقيق معهما ، والتوصل إلى الثروات المخفية ، وأحضرت آلات التعذيب ، من أسواط ، ومعاصير وسئل موسى عن صندوق ذكر أنه أخذه من تركة أبيه ، فيه من الجواهر والذهب مايبلغ مائة ألف دينار ، وكان النشو قد أفضى إلى السلطان بوجود هذا الصندوق ، فأنكر ذلك ، وأقسم الأيمان المغلظة ، فرق له ابن هلال الدولة ولم يعذبه ، وهنا استنكر النشو ذلك ، وأخذ على ابن هلال الدولة هذه الرقة مع أن الرجل هو أول من استخدمه ، وهو ولى نعمته ، واضطر ابن هلال الدولة إلى التضييق على موسى ، لينتزع منه كل ماالديه ، إن النشو الآن لايقيم وزنا لابن هلال الدولة ، إنه يتحدث إلى السلطان رأسا ، والكلام يخرج من فمه إلى أذنى السلطان رأسا ، كما أنه لم يكن يدع فرصة إلا ويظهر فيها إخلاصه وولاءه ، عند عودة السلطان من الحج ، تولى النشو الإشراف على مظاهر الاحتفال ، خرج الناس للقاء الناصر ، وغلقت الدكاكين والأسواق ، وجمع النشو من الأمراء الأبسطة ، والمنسوجات الحريرية الثمينة المشغولة بالذهب ، وبسطها فوق الأرض أمام القلعة ، وحتى مقعد السلطان ، وتمضى الأيام ، ونفوذ النشو يقوى ، ويتزايد ، يقول المقريزى فى كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» :

«وفى هذا الشهر كثرت مصادرات النشو للناس ، فأقام من شهد على التاج إسحق أنه تسلم من المسكين الترجمان صندوقا فيه ذهب وزمرد وجوهر مثمن ، فرسم لابن الحسنى بعقوبة موسى بن التاج إسحق حتى يحضر الصندوق ، وطلب النشو ولاة الأعمال وألزامهم بحمل المال ، وبعث أخاه لكشف الدواليب بالصعيد وتتبع مواشى ابن التاج إسحق ، فقدم قنغلى والى البهنسا وقشتمر والى الغربية وفخر الدين إياس متولى المنوفية ، وعدة من المباشرين فتسلمهم ابن هلال الدولة ليستخلص منهم الأموال .

كان النشو إذا اضطهد شخصا فإنه يتتبعه حتى يدمره تماما ، ويتتبع أى إنسان يمت إليه . . هكذا فعل مع موسى بن التاج إسحق .

يستعين بالأشخاص

ذوى السمعة السيئة والأشرار

بدأ النشو يعتمد على أقاربه ، وأرسل أخاه واسمه المخلص إلى الصعيد فى مهمة ، عاد منها ليقدم إليه تقريرا عن ثروات مباشرى الوجه القبلى ، وطلع النشو إلى السلطان ، راح يغريه بهم جميعا ، ويتحدث عن إتلافهم مال السلطان ، وهنا صدر مرسوم بالحوطة على جميع مباشرى الوجه القبلى . واعتقالهم ، وطلب النشو تجار القاهرة ومصر ، وطرح عليهم عدة أصناف من الخشب والجوخ والقماش ، بثلاثة أمثال قيمتها ، كان يبيع بضائع السلطان بأسعار مرتفعة جدا ، وهكذا يحصل له على أموال طائلة ، فى الوقت الذى بدأ هو بتكوين ثروته ولكن فى حذر شديد ، وكان السلطان الناصر يصدر أحيانا بعض المراسيم التى تتسم بالخير ، وهكذا أصدر مرسوما بمسامحة الأمراء فى الأموال المدينين بها للديوان ، ولكن النشو لم ينفذ هذا المرسوم وألزم مباشرى الأمراء بتسديد هذه الأموال ، وركب إلى السلطان ، وأوضح له قيمة الأموال التى يمكن أن تضيع نتيجة لهذه المسامحة ، وأن مال السلطان يضيع ويتبدد ، وأن الدواوين تسرق بحجة مسامحة الأمراء ، وتأثر السلطان بما سمعه ، ومكن النشو من عمل مايختاره ، وألا يسامح أحدا بشىء مما عليه للديوان ، وشق ذلك على بعض الأمراء ، فراجع الأمير قوصون السلطان ، ولكنه لم يجبه إلى شىء ، عندئذ كف الأمراء عن السؤال ، وعظم النشو فى أعين الناس .

واستعان النشو بالأشخاص ذوى السمعة السيئة ، استدعى الشمس بن الأزرق وكان ظلوما غشوما ، فكتب له أسماء أرباب الأموال من التجار ، وفرض عليهم قماشا بثلاثة أمثال قيمته . يقول المقريزى :

«وعمت مضرة النشو الناس جميعا ، وانتهى إليه عدة من الأشرار ، ونموا على الكافة من أهل الوجه القبلى والوجه البحرى ، ودلوه على من عنده شيء من الجوارى المولدات لشغف السلطان بهن ، فحملت إليه عدة منهن يطلبهن من أربابهن ، وسعوا عنده بأرباب الأموال أيضا ، فدهى الناس منه بلاء عظيم» .

وبين الحين والآخر ، كان كبار رجال الدولة يفضون بشكواهم إلى السلطان ، ولكنه كان ينهرهم ، ويبدى الثقة بالنشو ، وأذن له فى عمل مايختار ، وأن يتصرف فى أمور الدولة كما يشاء وألا يبالى بأحد ، ووعده بتقوية يده ، وتمكينه ، ومنع من يعارضه ، بل إن السلطان استدعى إخوة النشو وأقاربه ، وعينهم عند كبار الأمراء ، فجعل المخلص أخ النشو مباشرا عند الأمير سيف الدين الناق ، واستخدم أخاه رزق الله عند الأمير ملكتمر الحجازى ، واستخدم صهره ولى الدولة عند الأمير أرغون شاه ، وخلع عليهم .

انبسطت يد النشو ، واشتدت وطأته ، واستدار ليضرب أول شخص أحسن إليه ، وكان بداية صعوده التفت إلى ابن هلال الدولة نفسه .

ابن هلال الدولة

يلزم بيته بتدبير من النشو

أخذ النشو فى التدبير على ابن هلال الدولة ، رتب عليه أنه آخذ من مال السلطان جملة ، وأنه أهمل فى المحافظة على أمور السلطان ، وأنه بسببه ضاع مال كثير ، وانتدب لتحقيق ذلك ثلاثة ، أمين الدولة ابن قرموط المستوفى ، والشمس بن الأزرق ناظر الجهات ، وشخص ثالث اسمه لؤلؤ الحلبى ، وحدد يوما للمواجهة ، بالطبع رتب النشو كل كبيرة وصغيرة ، وواجه ابن هلال الدولة بأنه أهمل الأمور ، وبرطل «رشا»

بالأموال ،ولم يستمع السلطان إلى الباقين ، بل أمر ابن هلال الدولة أن يلزم بيته ، وعين شخصا آخر بدلا منه فى وظيفته ، وأمر بدر الدين لؤلؤ الحلبى باستخلاص الأموال ، قبض على ابن هلال الدولة ، وصودرت أمواله ، وهكذا أجهز النشو على ولى نعمته ، والذى كان وجوده يذكره بأيام الزمن القديم عندما كان موظفا صغيرا فى خدمته .

ثم اختار النشو شخصا قاسيا ، غتيتا ، هو إيدكين الأدكش لولاية القاهرة ، وبدأ نشاطه بمهاجمة البيوت ، ومصادرة الأموال ، وصار يتنكر فى الليل ويمشى فى أزقة القاهرة ،فإذا سمع صوت غناء أو شم رائحة خمر هاجم المكان وأخذ من أهله أموالا طائلة طبقا لأحوالهم ، وكان النشو يوجهه ، وينفذ أغراضه من خلاله ، ولما تزيد أمر إيدكين ، طلع الأمير قوصون وشكاه إلى السلطان ، وهنا تغير السلطان على قوصون وقال له :

«أنتم كلما وليت أحدا ينفعنى أردتم إخراجه ، ولو أنه من جهتكم لشكرتم منه كل وقت» .

وفى الحال أصدر مرسوما بأن يتولى إيدكين ولاية مصر ، إلى جانب القاهرة ، ولم يجمع الولايتين أحد قبله ، وعظم أمر إيدكين ، فى أحد الأيام خرج من القاهرة إلى قرية النخيلة بالوجه البحرى ، وكانت منتزها للناس ، هاجمها وقت الغروب فما قبض على أحد إلا وسلبه ثيابه وتركه عاريا ، عرى البلدة كلها عن بكرة أبيها ، وجمع أموالا كثيرة .

غير أن إيدكين لم يستمر طويلا فى منصبه ، ففى أول سنة خمس وثلاثين وسبعمائة هجرية عزل ، ونفى إلى الشام ، وكان السبب سعاية عدد من كبار الأمراء ضده عند السلطان .

وفى نفس الوقت لاحظ النشو أن مستوفى الدولة أمين الدين قرموط يكثر من الاجتماع بالسلطان ، فخاف عاقبة ذلك ، مع أنه هو الذى قدمه

إلى السلطان ، وبدأ يتكلم فى حقه ، وقال إنه جمع كثيرا من مال السلطان لنفسه ، فقبض عليه ، وعلى جماعة معه ، وعوقب قرموط وضرب بالمقارع سعيا لاستخلاص أربعين ألف دينار منه ، ولكنه صمد للضرب ، عندئذ قيل إنه جلد ، وأنه لن يعترف إلا إذا ضرب ابنه أمامه ، وجاءوا بولده وبدأوا بضربه فلما أشتد البلاء بقرموط ضرب نفسه بسكين فى حلقومه محاولا الانتحار ، ولكنهم انتزعوها منه ، واستمر تعذيبه ، وتعذيب ابنه .

فى هذه الفترة قدم الأمير تنكر ، نائب الشام يوم الأربعاء الحادى عشر من رجب (٧٣٥هـ) ، وسعى عند السلطان ليفرج عن ابن هلال الدولة ، وساعده الأمير قوصون ، وبالفعل استجاب السلطان لهما ، وأفرج عن الرجل ، وكان النشو مسافرا إلى الإسكندرية ، وعند عودته فوجئ بالخبر ، وشق عليه الإفراج عن ابن هلال الدولة ، وطلع بالخبر ، وشق عليه الافراج عن ابن هلال الدولة ، وطلع إلى السلطان ، وراح يتحدث عن ابن هلال الدولة وخطورته ،ومال السلطان إليه ، فأمر الوالى بإحضاره إلى القلعة ، وخرج الوالى إلى ابن هلال الدولة ، سبه ولعنه ، وأبلغه عن السلطان أنه متى اجتمع به أحد شنقه ، فنزل وأقام بالقرافة منقطعا عن جميع الناس ، واستمرت سعاية النشو فى الناس ، اتهم والى دمياط بأنه خرب أساسا قديما فى البحر بين البرجين ، كانت عليه طلسمات تمنع ماء البحر المالح عن ماء النيل ، حتى تلفت الطلسمات وغلب البحر على النيل ، فتلفت بساتين كثيرة ، وأن الوالى نال من ثمرة هذه الحجارة أموالا طائلة ، واعتقل والى دمياط ، وعذب ، واستخرج منه وجمع أموالا كثيرة .

وقبض النشو على امرأة موسى التاج ، عاقبها وهى حامل عقوبة شديدة على إحضار المال حتى طرحت مافى بطنها ولدا ذكر .

كان النشو يستخدم شرار الخلق ، وكانت له نساء عجائز يتجسسن فى البيوت الكبيرة ، وحدث أن إحدى هؤلاء النسوة أبلغته عن أولاد ابن الجيعان ، وأنه يسعى فى نظر الجيش ، والآخر يسعى ليتولى نظر الخاص ، عندئذ طلب النشو كاتب الاصطبل منهم ، وطلب منه أن يكتب حساب الاصطبل ، فامتنع ، ورد عليه بكلام خشن عندئذ سعى النشو عليه عند السلطان حتى قال له السلطان :

«لم لاتعمل حساب الاصطبل ، وتعطيه الناظر؟ - يقصد النشو .

فقال :

«ياخوند : بدل أن تطلب حساب الصبى والمقاود ، اطلب حساب الذهب الذى يدخل إلى خزائنك» .

وأغلظ فى حق النشو ، وعندما قابله ، قال له : «ونعمة مولانا السلطان أظهر فى جهتك مائتى ألف دينار» .

وهنا قامت قيامة النشو ، وانفض المجلس على ذلك فما زال النشو بأولاد ابن الجيعان حتى سلمهم إلى لؤلؤ فعاقبهم حتى هلكوا ، وصودرت ثرواتهم ، ولم يكتف النشو بذلك ، بل قبض على أقاربهم ، وصادر أموال عدد من أصحابهم .

مملوك السلطان

فى هذه السنة ٧٣٥هـ ، كثر شغف السلطان بمملوكه الطنبغا الماردينى شغفا زائدا ، لدرجة أنه قرر أن ينشئ له مسجدا يحمل اسمه ، واختار موقعه خارج باب زويلة ، وكان لابد من إزالة عدد من البيوت بعد شرائها ، طلب السلطان النشو وكلفه بتحقيق ذلك ،عندئذ استدعى النشو أصحاب البيوت ، وابتاعها منهم بنصف قيمتها ، وتم بناء المسجد والذى لازال قائما حتى الآن .

وفى نفس هذه السنة جرت محاولة للتخلص من النشو عن طريق الوقيعة ، إذ كتبت رقعة إلى السلطان تذكر ظلم النشو ، وتسلط أقاربه على الناس وكثرة أموالهم ، وعشق صهره لغلام تركى ، استدعى السلطان النشو ، وبعد أن قرئت عليه القصة قال : أنا أعرف من كتبها ، وحلف على براءة أقاربه من هذا الشاب ، وبكى ثم انصرف .

وحاول عدد من الأمراء أن ينبهوا السلطان إلى ثروة النشو الطائلة ، لكنه لم يستجب لهم ، ولم يصدقهم ، كان النشو يحرص دائما على أن يبدو أمام السلطان فى مظهر الفقير المعدم حتى تزداد ثقة السلطان به ، ولكى يؤمن السلطان بفقره كان يقترض من كبار موظفى الدولة المتصلين بالسلطان ، مبالغ صغيرة من المال بين الحين والآخر ليوهمهم أنه لايملك شيئا ، أرسل ذات يوم إلى رئيس الأطباء يطلب منه مائة درهم بحجة أن ضيفا نزل عنده وليس لديه مايكرمه به ولكى تجوز حيلته على السلطان انتهز فرصة وجود كبير الأطباء عنده ذات يوم ، وشكا فقره للسلطان ، وقد أمن رئيس الأطباء على هذه الدعوى بحكم ماوقع بينه وبين النشو من قبل وأمعن النشو فى تصرفاته التى لحقت الخاصة والعامة على السواء ، فتدخل فى تجارة السلع الضرورية للحياة من لحم وفول وأقمشة يشترى منها باسم السلطان كميات كبيرة بأسعار رخيصة ثم يبيعها للناس بأثمان عالية .

وهنا لندع المقريزى يحدثنا من خلال كتابه «السلوك» عن وقائع النشو .

رسالة تتضمن الوقيعة

فى النشو وأقاربه

فى يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الأول ٧٣٦ هـ عزل الأمير سيف الدين بغا عن الدوادارية ، واستقر عوضه سيف الدين ، كاجار الماردينى ،

ثم أخرج بغا على أمرة عشر بصفد ، فى ليلة الجمعة سادس ربيع الآخر ، وسببه أن بعض تجار قيسارية جهاركس طرح عليه النشو ثيابا بضعفى قيمتها كما هى عادته ، فرفع قصته ، للسلطان على يد بغا ، وأحضر بغا بين يديه فشكا حاله ، فاستدعى السلطان النشو بحضور التاجر وقال له : كم تشكو الناس منك : اسمع مايقول هذا عنك من طرح القماش عليه بأغلى الأثمان ، فقال «ياخوند : هذا مايشتكى من أمر القماش لكنه عليه للسلطان مبلغ ثلاثين ألف دينار ، وقد هرب منى وأنا أتطلبه ، وهذا المبلغ من إرث جارية تزوجها التاجر وهى من جوارى الشهيد الملك الأشرف خليل ، ماتت عنده وخلفت نحو ألف دينار ومابين جواهر وغيرها ، فأخذ الجميع ولم يظهر على السلطان شىء» .

ثم التفت النشو إلى التاجر وقال له :

«بحياة رأس السلطان : ماكنت متزوجا بفلانة؟» يعنى الجارية المذكورة ، فقال :« نعم» فأمره السلطان أن يسلمه لابن صابر المقدم حتى يستخلص منه المال ، فأخذه ابن صابر وشهره بالقاهرة وعاقبه بالقيسارية مرارا حتى أخذ منه مبلغ خمسين ألف درهم ، ثم تحول النشو على بغا ، وراح يقول عنه أنه مرتش ، وكان السلطان يكره الرشوة ، فأثر فيه كلام النشو ، فأخرجه ، وسعى النشو أيضا بطقتمر الخازن حتى غير السلطان عليه .

. . وفى ليلة الثلاثاء ثالث عشر رجب قبض على ابن هلال الدولة ، وعلى ناصر الدين محمد ابن المحسنى ، وأخرجا إلى الإسكندرية بسعاية النشو .

واشتدت وطأة النشو على الناس ، وابتكر مظلمة لم يسبق إليها وهى أنه ألزم أهل الصاغة ودار الضرب ألا يبتاع منهم أحد ذهبا ، بل يحمل الذهب جميعه إلى دار الضرب ، ليصك بصكة السلطان ، فجمع من

ذلك مالا كثيرا للديوان ، ثم تتبع النشو الذهب المضروب فى دار الضرب ، فأخذ ماكان للتجار والعامة ، وعوضهم عنه بضائع ، وحمل ذلك كله للسلطان ، وانحصر ذهب مصر بأجمعه فى دار الضرب ، فلم يجسر أحد على بيع شىء منه فى الصاغة ولا فى غيرها ، ثم إن السلطان استدعى منه بعشرة آلاف دينار ، فاعتذر عنها فلم يقبل عذره ونهره فنزل النشو وألزم أمين الحكم بكتابة ماتحت يده من مال الأيتام ، وطلب منه عشرة آلاف دينار قرضا فى ذمته ، فدله على مبلغ أربعمائة ألف درهم لأيتام الدواداري تحت ختم بهاء الدين شاهد الجمال ، فأخذها منه وعوضه عنها بضائع ، ثم بعث النشو إلى قاضى القضاة تقى الدين محمد بن أبى بن عيسى الأخنائى المالكى فى تمكينه من مال أولاد (الأمير) أرغون النائب ، وهو ستة آلاف دينار ، وكانوا تحت حجرة فامتنع وقال : «السلطان مايحل له أخذ مال الأيتام» . فرد عليه « السلطان إنما يطلب المال الذى سرقه أخوك من خزانة الخاص حيث كان ناظرها ، فإن الحساب يشهد عليه بما سرقه من الخزانة» . وقام فى فوره إلى السلطان ، ومازال به حتى بعث إلى القاضى يلزمه بحمل المال الذى سرقه أخوه من الخزانة ، ويقول له «أنت إيش كنت من مملوكى؟» فلم يجد قاضى القضاة بدا من تمكين النشو من أخذ المال .

. . فى ذى القعدة من نفس السنة ، سقط طائر حمام بالميدان ، وعلى جناحه ورقة تضمنت الوقيعة فى النشو وأقاربه ، والقدح فى السلطان بأنه أخرب دولته ، فغضب السلطان من ذلك غضبا شديدا ، وطلب النشو وأوقفه على الورقة وتنمر عليه لكثرة مايشكى منه ، فقال : «ياخوند : الناس معذورون : وحق رأسك لقد جاءنى خبر هذه الورقة ليلة كتبت . وهذه فعلة المعلم أبى شاكر بن سعيد الدولة ناظر البيوت ، كتبها فى بيت الصفى كاتب الأمير قوصون ، وقد اجتمع هو وأقاربه» ، وأخذ النشو يعرف السلطان بما كان من أمر سعيد الدولة فى أيام بيبرس الجاشنكير

وأغراه به حتى طلبه ، وسلمه إلى الوالى علاء الدين على ابن حسن المروانى ، فعاقبه عقوبة مؤلمة ، وطلب السلطان الأمير قوصون وعنفه على فعل الصفى كاتبه ، فطلبه قوصون وهدده ، فحلف بكل يمين على براءته مما رمى به ، فتتبع النشو عدة من الكتاب وجماعة من الباعة ، وقبض عليهم بسبب ابن شاكر ، ونوع العذاب عليهم بيد الوالى ، وخرب دورهم بالمحراث ، وقبض النشو على الموفق هبة الله ابن سعيد الدولة ، ثم أفرج عنه بعناية الأمير أقبغا عبد الواحد . وعذب ابن الأزرق ناظر الجهات .

أرباب الدواليب
يتضررون من سطوة النشو

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

.. وفيها أجدبت زراعة الفول ، فألزم النشو سماسرة الغلال ألا يباع الفول إلا للسلطان فقط ، فتضرر أرباب الدواليب(المقصود بالدواليب جميع الآلات المستخدمة فى الزراعة والصناعة ، وهذه الآلات كانت تدور بالأبقار ، والأبقار تعتمد على أكل الفول .

وفيها صادر النشو جماعة من أرباب الدواليب بالوجه القبلى ، وأخذ من محتسب البهنسا وأخيه مائتى ألف درهم وألفى أردب غلة ، فرافع ابن زعازع من أمراء الصعيد أولاد قمر الدولة عند النشو ، فاقتضى رأيه مصادرة ابن زعازع لكثرة ماله ، وأوقع الحوطة على موجودة ، وكتب إلى والى البهنسا ليعاقبه أشد العقوبة ، فلف والى البهنسا على أصابعه الخروق وغمسها فى القطران وأشعل فيها النيران ، ثم عراه ولوحه على النار ، حتى أخذ منه ماقيمته ألف ألف وخمسمائة ألف درهم ، ووجد له أربعمائة فرجية بفرو ، ومائة وعشرين جارية وستين عبدا ، ثم كتب عليه حجة بعد ذلك بمائة ألف درهم ، واحتج النشو بمصادرته بأنه وجد كنزا .

وفيها ارتفع سعر اللحم لقلة جلب الأغنام حتى بيع الرطل بدرهم وربع ، وسبب ذلك أن النشو كان يأخذ الغنم بنصف قيمتها ، فكتب إلى نائب الشام ونائب حلب بجلب الأغنام ، ثم إن النشو استجد للسواقى التى بالقلعة أبقارا ، وأحضر أبقارها التى ضعفت وعجزت مع الأبقار التى ضعفت بالدواليب ، وطرحها على التجار والباعة بقياسر القاهرة ومصر وأسواقها حتى لم يبق صاحب حانوت إلا وخصه منها شىء على قدر حاله . فبلغ كل رطل منها درهمين وثلث ، ورميت تلك الأبقار على الطواحين والحمامات كل رطل بمائة درهم ولاتكاد تبلغ عشرين درهما فبلى الناس من ذلك بمشقة وخسارة كبيرة .

واتفق أن النشو أغرى السلطان بموسى بن التاج إسحق حتى رسم بعقوبته إلى أن يموت ، فضرب زيادة على مائتين وخمسين شيبا (الشيب سير السوط أى الكرباج) ، حتى سقط كالميت ، ثم ضرب من الغد أشد من ذلك ، وحمل على أنه قد مات ، فسر النشو بذلك سرورا زائدا ، وذهب ليرى موسى وهو ميت فوجد به حركة ، وفى أثناء ذلك طلب السلطان الأمير لؤلؤا فأخبره بأن موسى قد بدأ يئن ، وبعد ساعة يموت ، فرسم ألا يضرب بعد ذلك ، فشق هذا على النشو .

وفيها قل فرو السنجاب من الأسواق ، وذلك لقلة جلبه ، فأمر النشو بأخذ ماعلى التجار من الفرجيات ذات الفرو ، فهوجمت حوانيت التجار والبيوت حتى أخذ ماعلى الفرجيات من السنجاب ، فبلغ النشو دعاء التجار عليه فسعى عند السلطان عليهم ، ونسب إليهم أخذ الربا ، وقال : إن عندهم كميات كبيرة من الأخشاب والحديد واستأذنه فى بيعها عليهم ، فأذن له السلطان فنزل وطلب تجار القاهرة ومصر وكثيرا من أرباب الأموال ، ووزع عليهم من ألف دينار ، كل واحد إلى ثلاثة آلاف دينار ليحضروا بها ويأخذوا عنها صنفا من الأصناف ، فبلغت الجملة خمسين ألف دينار ، وضرب من تخلف منهم بالمقارع ، ويبدو أن أحد هؤلاء التجار

كان على معرفة بالست حدقة زوجة السلطان وأم ابنه أنوك ، فذهب إليه وشكا النشو ، وقال : إن الخشب الذى فرضه عليه قيمته الحقيقة ألفا درهم ، وطلب منه النشو ألف دينار ثمنا له ، عندئذ تحدثت السيدة حدقة إلى السلطان فى ظلم النشو للناس ، فطلب السلطان النشو ، وأنكر عليه ذلك ، وتجهم له ، فانصرف النشو وهو فى حالة شديدة من الغيظ ، وبدأ يدبر انتقاما من ذلك التاجر ، استدعى رجلا واتفق معه على الانتقام من التاجر ، ذهب الرجل إلى التاجر وسأله فى قرض مبلغ من المال ، فأخذ التاجر يشكو مما به من إلزامه بألفى دينار من ثمن خشب طرحه عليه النشو ، فقال له الرجل : «أرنى الخشب فإنى محتاج إليه» ، فلما رآه أعجبه واشتراه منه بفائدة ألف درهم فى الشهر ، أمتلأ التاجر فرحا ، وأشهد عليه بذلك ، ومضى الرجل ليأتى بثمن الخشب ، عاد إلى النشو وأخبره بما تم ودفع إليه بنسخة المبايعة ، فقام من فوره إلى السلطان وأعلمه انه نزل ليرفع الخشب من حاصل التاجر فوجده قد باعه بفائدة ألف درهم فطلب السلطان التاجر وسأله عما رماه عليه النشو ، فاغتر البائس وأخذ يقول : «ظلمنى وأعطانى خشبا بألفى دينار يساوى ألف درهم» فقال له السلطان : «وأين الخشب؟» قال : « بعته بالدين» ، فقال النشو : «قل الصحيح فإن هذه معاقدتك بيعه» ، فلم يجد بدا من الاعتراف ، فحنق عليه السلطان وقال «ويلك ، تقيم الغاثة» تستغيث «وأنت تبيع بضاعتى بفائدة؟» ثم أمر النشو بضربه وأخذ الألف دينار منه مع مثلها ، وعظم النشو عند السلطان ، ثم عبر السلطان إلى نسائه وسبهن وعرفهن ماجرى ، وقال :

«مسكين النشو ماوجدت له أحدا يحبه كونه ينصحنى ويحصل مالى» .

وفى نفس السنة شكا المماليك من تاجر كسوتهم ، فطلب السلطان النشو وألزمه بحمل كسوتهم من الغد ، ومعها مبلغ عشرين دينار فنزل

النشو وألزم الطيبى ناظر المواريث بتحصيل خمسة آلاف دينار ، وبعث المقدمين إلى الأسواق ففتحوا حوانيت التجار وأخذوا كسوة المماليك وحوائجهم وأخفافهم ونعالهم وغير ذلك ، وأخذوا مركبا فيه عدة بضائع طرحوها على الناس بثلاثة أمثال قيمتها ، وأحيط بتركة نجم الدين محمد الأسعودى ، وقد مات وترك زوجة وابنة وابنا . . وأخذت كلها ، وأخذت وديعة من تركته لأولاده أيتام تحت حجره ، مبلغا نحو خمسين ألف درهم ، وأنفقت فى يومها على المماليك والخدام ، وفتحت قيسارية جهاركس ، وأخذ منها مقاطع الشرب «قماش رفيع من الكتان» برسم الكسوة ، فارتجت المدينة بأهلها ، وترك كثير من التجار حوانيتهم وغيبوا ، فصارت مفتحة ، والأعوان تنهب لأنفسها ماأرادت ، فلم ير يومئذ بالقاهرة ومصر إلا باك أو صائح أو نائح ، فكانا يومين شنيعين ، وعول أرباب الحوانيت على رفع مافيها وخلوها ، فعرف النشو السلطان ذلك فنودى «من أغلق حانوته أخذ ماله وشنق» ففتحوها . .

نعم . .

لم يبق فى مصر إلا باك أو صائح أو نائح .

هكذا فى بساطة وقوة يلخص المقريزى ماوصل إليه حال الناس تحت سطوة النشو ، وتمضى السنوات حافلة بظلمة ، يمضى النشو إلى الأقاليم فيصادر الأموال ، وإذا أفرج عن إنسان يشق هذا عليه ، ولايهدأ له بال حتى يعيده مرة إخرى الى السجن ، وفى هذا الخضم تجرى محاولة لاغتيال النشو ، إذ حدث فى يوم الإثنين ثانى عشر رمضان أن اعترضه فارس ، ضربه ، فأخطأ سيفه رأس النشو ، جرح كتفه فقط ، فغضب السلطان غضبا شديدا ، ولم يحضر السماط ، وأرسل الأطباء لمعالجة النشو ، وأغلظ على الأمراء بالكلام ، ومازال يشتد ويحتد حتى عاد القصاد بسلامة النشو فسكن ما به .

وتجىء سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ولايكف النشو ، ولا يهدأ ، يسعى فى الناس بالشر ، ولا ينجو من أذاه أمير أو طحان ، وعندما يبلغه أن الوعاظ يدعون عليه من فوق منابر الجوامع ، يسعى السلطان حتى يمنع الوعاظ جميعا من الوعظ ، وتستمر الأحوال على ماهى عليه فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، يأخذ النشو مال الأقباط مع أنه كان فى الأصل قبطيا ثم أسلم ، ويستولى على حلى النساء ، يقول المقريزى :

«وفيها كثرت مصادرة النشو للناس من أهل مصر والقاهرة والوجه البحرى والقبلى ، حتى خرج فى ذلك الحد»

ولكن لكل أول آخر ، ولكل بداية نهاية . .

النهاية

سنة أربعين وسبعمائة .

فى يوم الاثنين ثانى صفر قبض على النشو ، وعلى أخيه شرف الدين رزق الله ، وعلى أخيه المخلص ، ورفيقه مجد الدين وعلى صهره ولى الدولة .

كيف ؟

لنصغ إلى المقريزى محدثنا عن هذا الزمن البعيد . .

« . . وسبب ذلك أنه لما أسرف النشو فى الظلم بحيث قل الجالب للبضائع وذهب أكثر أموال التجار لطرح الأصناف عليهم بأغلى الأثمان ، وطلب السلطان منه يتزايد ، خاف النشو العجز فرجع عن ظلم العامة ، إلى التعرض إلى الخاصة ورتب مع أصحابه ذلك .

وكانت عادته فى كل ليلة أن يجمع إخوته وصهره ومن يثق فيه للنظر فيما يحدثه من مظالم فيدله كل منهم على داهية ، ثم يفترقون وقد أبرم للناس بلاء يعذبهم الله به من الغد على يده ، فكان مما اقترحه أن رتب

أوراقا تشتمل على فصول يتحصل فيها ألف ألف دينار عينا ، وقرأها على السلطان ، ومنها التقاوى السلطانية المخلدة بالنواحى من الدولة الظاهرية بيبرس والمنصورية قلاوون فى إقطاعات الأمراء والأجناد وجملتها مائة ألف أردب . سوى مافى بلاد السلطان من التقاوى ومنها الرزق الإحباسية على الجوامع والمساجد والزوايا وغير ذلك وهى مائة ألف فدان (وثلاثون ألف فدان) .

ويمضى المقريزى فى سرد تفاصيل ماخططه النشو مع أقاربه للإضرار بكبار الأمراء وكان ماتفتق عنه ذهنه ، هو إلزام متولى كل إقليم باستخراج التقاوى من أرضه وحملها إلى خزائن السلطان ، ثم تباع من جديد إلى الناس بمعرفة الخاصة السلطانية ، انزعج الأمراء من هذا القرار ، وقال أحدهم للسلطان :«ياخوند والله إن النشو لضرك أكثر مما ينفعك» .

ويبدو أن السلطان أمعن الفكر ، وأحس أن النشو مكروه لدى الجميع ، ولم يكن اتخاذه القرار سهلا ، فكتب إلى الأمير تنكر نائب الشام يستشيره فى الأمر ، ويخبره أن النشو أصبح مكروها من الجميع ، ولكنه يخدم السلطان وينفعه ، وأجاب الأمير تنكر مؤيدا سوء سيرة النشو ، وختم خطابه قائلا :« ورأى السلطان فيه أعلى» .

وكثرت الأوراق التى كانت تلقى إلى السلطان وتحوى ذما للنشو ، ومما قيل فى بعضها :

أيا ملكا أصبح فى نشوة
من نشوة الظالم فى نشيه
انشيته فلتنشئن ضغائنا
سترى غباوتها بصحبة غيه
حكمته فحكمت أمرا فاسدا

وتوحـــشت كل القلوب لفـــحـــشـــه

ســـتـــرى بوارقـــهـــا إذا مـــا أظلمت

وتحكمت أيدى الزمـــــان ببطشـــــه

ولتندمن ندامــــة كـــســـعـــيـــه

يومـــا إذا ذبح الخـــروف بكبـــشـــه

وقرأ السلطان فى ورقة أخرى :

أمـــعنت فى الظلم وأكـــثـــرته

وزدت يانشــــو على العـــالم

تـرى مـن الظـالم فـــــيكم لنـا

فـلـعـنـة الـلـه عـلـى الـظـالـم

وحدث أن مرض الأمير يلبغا ، وكان السلطان يثق فيه ، فأقام عنده حتى يطمئن عليه ، وخلال حديثهما قال يلبغا : «ياخوند : قد عظم إحسانك لى ووجب على نصحك ، والمصلحة تقضى بالقبض على النشو ، فالأمراء جميعا يكرهونه ، ويكرهونك لحبك إياه ، ومامن مملوك من مماليك إلا يترقب غفلة منك ليقضى عليك انتقاما منك لأنك تركت هذا الشخص يعبث بمصالح الناس» .

وبكى يلبغا ، وبكى الناصر ، وقام من عنده مبلبل الخاطر ، ليصدر أمرا بالقبض على النشو .

يقول المقريزى:

«وطلب السلطان المقدم ابن صابر ، وأسر إليه أن يقف بجماعته على باب القلعة وباب القرافة ، ولايدعوا واحدا من حواشى النشو وأقاربه وإخوته أن ينزلوا ، وأن يقبضوا عليهم كلهم ، وأمر السلطان الأمير بشتاك

والأمير برسبغا الحاجب أن يمضيا إلى النشو ، ويقبضا عليه وعلى أقاربه فخرج بشتاك وجلس على باب الخزانة وطلب النشو من داخلها ، فظن النشو أنه جاء لميعاده مع السلطان حتى يحتاطا على موجود أقبغا عبد الواحد ، فساعة ماوقع بصره عليه أمر مماليكه بأخذه إلى بيته من القلعة ، وبعث إلى الأمير ملكتمر الحجازى فأخذ أخاه رزق الله وأخذ أخاه المخلص وسائر أقاربه ، فطار الخبر إلى القاهرة ومصر ، فخرج الناس كأنهم جراد منتشر» .

خرج الناس كالجراد المنتشر!!

لحظة مدببة فى مسار الزمن ، عندما ينتهى الكابوس العام ، فيسرى الأثر إلى كل إنسان ، البعيد ، الدانى ، الكبير ، الصغير ، لحظة الخلاص ، عندما يندفع الإنسان إلى خارج بيته ، يظن أنه بمفرده ، وإذا بالجميع فى الشارع ، هكذا خرج الناس كالجراد المنتشر عندما سمعوا بخبر القبض على النشو وزمرته ، وفى القلعة جلس السلطان ولازال فى نفسه شك ، إنه يقول للأمراء :

«وكم تقولون النشو نهب أموال الناس! الساعة ننظر المال الذى عنده» .

فى القاهرة يعم الفرح ، أغلقت الأسواق ، واتجه الجميع إلى ميدان الرميلة تحت القلعة ، كما يتجهون إلى ميدان التحرير فى العصر الحديث ، أو ميدان العتبة ، أو إلى منشية البكرى (ليلة التاسع من يونيو ١٩٦٧ ، وليلة وفاة عبد الناصر) ، جاء الليل والناس لم تنصرف بل أوقدوا الشموع ، يرفعون على رءوسهم المصاحف ، وينشرون الأعلام ، وهم يضجون ويصيحون استبشارا وفرحا بقبض النشو ، والأمراء يشيرون إليهم أن يكثروا مما هم فيه ، وقضوا الليل كله على ذلك ، وفيه زاد النيل بعد توقفه ، فقال علاء الدين الشاعر :

في يوم الإثنين ثاني الشهر من صفر
نادى البشير إلى أن أسمع الفلكا
ياأهل مصر نجا موسى ونيلكم
طغا وفرعون وهو النشو قد هلكا

صباح الثلاثاء ، نودى فى القاهرة :

«بيعوا واشتروا واحمدوا الله على خلاصكم من النشو» .

صباح الثلاثاء أيضا انتحر شقيق النشو ، وأخرجوه فى تابوت امرأة حتى دفن فى مقابر الأقباط خوفا عليه من العامة ، وتمت الحوطة على أموال النشو ، النشو الذى كان يتظاهر بالفقر والحاجة ، والذى كان السلطان يظن حتى آخر لحظة أنه لايمتلك شيئا ، فماذا وجدوا عند النشو؟ ، فى بستان بجزيرة الفيل وجدوا أمه وامرأته وأخته وولديه ، ومعهم ستون جارية ، ومائتا جنيه (كيس من جلد البعير) وعصير عنب ثم حمل الأمراء ثروة النشو إلى السلطان ووضعوها بين يديه ، وضعوا خمسة عشر ألف دينار ذهب ، وألفين وخمسمائة حبة لؤلؤ قيمة كل حبة مابين ألفى درهم إلى ألف درهم ، وسبعين فصا بلخش قيمة كل فص مابين خمسة آلاف درهم إلى ألفين ، وقطعتى زمرد فاخر رطل ونيف وستين حبلا من لؤلؤ كبار زنة ذلك أربعمائة مثقال ، ومائة وسبعين خاتم ذهب وفضة بفصوص مثمنة ، وكف مريم مرصع بجوهر ، وصليب ذهب مرصع ، وعدة قطع زركش سوى حواصل لم تفتح ، فخجل السلطان لما رأى ذلك ، واستمر الأمراء ينزلون كل يوم لإخراج حواصل النشو ، فوجد له من الأوانى الصينى والبلور والتحف السنية الشيء الكثير ، ثم وجدت عنده مائتى برميل مملوئين بالملوحة «سمك مملح» وثمانين بالجبن ، وأحمالا كثيرة من بضائع الشام ولحما كثيرا من لحم الخنزير ، وأربعة آلاف جرة خمر ، سوى مانهب ، ووجد له أربعمائة

بدلة قماش جدد ، وثمانون بدلة مستعملة ، وزراكش ومفرجات (عباءات) ، وستون قفطانا نسائيا ، ومناديل زركش عدة كثيرة ، ووجد له عدة صناديق بها قماش سكندرى كان قد صنع لحساب ملكة المغرب ولكنه اختلسه وكثير من قماش الأمراء الذين ماتوا أو قبض عليهم ، ووجد له مملوك تركى كان النشو قد خصاه هو واثنين معه ماتا ، ثم وجدوا لإخوة النشو ذخائر نفيسة ، منها لصهره ولى الدولة صندوق فيه مائة وسبعون فص بلخش ، وست وثلاثون مرملة (ظرف كان يوضع فيه الرمل الذى يستخدمه الكتاب لتجفيف الكتابة) مكللة بالجواهر الرائعة وإحدى عشر عنبرية مكللة باللؤلؤ كبار ، وعشرون طراز زركش ، وغير ذلك مابين لؤلؤ ومنظوم وزمرد ، وكوافى زركش ، وقدر الجميع بأربعة وعشروين ألف دينار .

وفى نهاية هذه السنة ٧٤٠ هجرية ، مات النشو واندثر أمره ، مات النشو عام ٧٤٠ هجرية بالتحديد يوم الأربعاء ثانى ربيع الآخر .

لكن بعد انقضاء سبعة قرون على اختفائه ، هل يمكن القول أنه اختفى من حياتنا . . ؟ !!

السلطان الطفل

« . . فلما كان يوم الأحد سابع وعشرين ذى القعدة من سنة إحدى وتسعمائة ، توفى الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى ، دفن فى اليوم التالى ، رحل بعد أن حكم مصر والديار الشامية تسع وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرين يوما ، كان سلطانا عظيما ، شهما ، وقورا ، وافر العقل ، سديد الرأى ، يتروى فى الأمور قبل وقوعها ، شجاعا ، فارسا قديرا ، وكان عصره من العصور الزاهية .

بعد وفاته صار السؤال المطروح : من بعده يلى الحكِام؟ كان هناك عدد من المماليك يتربص بكرسى السلطنة ، مثل الأمير قنصوه خمسمائة ،

وكرتباى الأحمر ، ولما كان انقضاض أحدهم على السلطة سيفجر الصراعات والحروب ، فقد جرت العادة فى مثل هذه الأحوال على تولية أحد أبناء السلطان حتى لو كان طفلا رضيعا . وبمضى الأيام تتم الغلبة لمن هو أقوى . هكذا وقع الاتفاق على سلطنة ابن السلطان . بايعه الأمراء من غير موافقة والده الذى كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وتلقب بالناصر ، كان عمره أربعة عشر عاما وأشهر ، يقول ابن إياس : «ولو كان قايتباى واعيا لما مكن الأمراء بأن يسلطنوا ولده ، ولاكان ذلك قصده» . . ويبدو أن الأب كان يعرف ابنه جيدا ، المهم أحضرت شعائر الملك ، وهى الجبة السوداء ، وقد فصلت على قده ، ولفت له عمامة لطيفة مناسبة له ، وقدمت إليه فرس النوبة بالسرج المذهب والكنبوش ، ومشى السلطان حتى جلس على سرير الملك ، وهكذا تولى أمر مصر والديار الشامية ، حدث عمره أربعة عشر عاما ، دون البلوغ .

. . تأسف الناس على موت قايتباى ، وخرجوا إلى جنازته ، حتى إن ابن إياس يقول : « وكانت جنازته مشهودة بخلاف من يموت من الملوك» ، ولم يستبشر الناس خيرا بالسلطان الجديد ، ويبدو أن ظاهرة الحاكم القوى الذى يعقبه سلسلة من الحكام الضعاف تتكرر فى التاريخ المصرى ، نجدها فى العصر الفرعونى ، رمسيس الثانى مثلا يموت ، ويخلفه اثنى عشرة من الرعامسة ، لايتوقف عندهم أحد ، خوفو الذى شيد الهرم الأكبر ، ثم خفرع الأقل حجما حتى فى هرمه ، ثم منقرع ، ثم ملوك آخرين غير معروفين ، وفى تاريخنا الحديث بدأت الأسرة العلوية بمحمد على باشا الكبير ، وانتهت فى القرن التاسع عشر بالخديوى توفيق الخائن ، والجبان ، الذى نكب مصر بالاحتلال الإنجليزى .

هكذا جاء الناصر ابن الرابعة عشر مخلفا لأبيه قايتباى العظيم ، كان جميل الهيئة ، مليح الشكل ، ولكنه هذا النوع من الجمال الذى يخفى فى طياته القبح الداخلى ، والشر ، والقسوة الزائدة ، لم يشعر بحزن كبير

على والده ، إنما راح يمعن النظر فرحا فى السلطة التى أصبحت فجأة بين يديه ، الأمراء الكبار يقبلون له الأرض بين يديه ، الخليفة يمشى منكس الرأس ، الكل يسعى إليه ويطلب وده ، لاشىء يحول دون تحقيق رغباته ، فى نفس الوقت عظم أمر الأتابكى قنصوه خمسمائة إلى الغاية حتى إنه لم يصل مع السلطان صلاة عيد النحر ، ولاصلاة الجمعة ، وفى بداية عام اثنين وتسعمائة شعر السلطان أن الكل يتربص به ، فأحضر المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الأمراء والعساكر ، ولم يطلع قنصوه خمسمائة ولم يحلف فى بداية الأمر على الولاء للسلطان ، ولكنه طلع بعد أيام وحلف أيمانا غير صادقة ، ويبدو أن السلطان الغلام شعر ببعض الاطمئنان بعد القسم ، لم يكن شىء يحول دون تحقيق شهواته ، بدأ طيشانه يظهر ، فى أحد الأيام قبض على امرأة ، وضربها بين يديه بالمقارع ، وأمر بإشهارها على حمار وفى عنقها زنجير حديد ، وهذا شىء لم يحدث قط من قبل ، أن تضرب امرأة بين يدى سلطان ، بل إنه ضربها بنفسه ، وبدا متلذذا بالضرب ، مستمتعا به ، ثم بدأ فى النزول من القلعة ومصاحبة الأوباش ، واللعب معهم ، وتدخين الحشيش ، وإتيان الرذائل ، واضطر الأمراء إلى إحاطته بإربعة من الحاشية لمنعه من النزول واللعب مع أولاد العوام ، وصار الأمير تانى بك الجمالى يبات عنده كل ليلة فى القلعة ليمنعه من ذلك ، ولكن رغبات السلطان كانت أقوى ، وشهواته أعنف ، وطيشه أعظم ، ولم يكن يهتم بمظاهر السلطنة ، وفى ربيع الأول (٩٠٢هـ) أقام السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وكان أول احتفال عام يقيمه ، ويحضره ، جلس بين الأمراء ، وفجأة اعتراه النعاس ، واضطر الأمراء إلى رش الماء على وجهه حتى يفيق ، فى هذه الفترة بدأت الأطماع تتحرك ، فى جمادى الأولى تزايدت الشائعات بوقوع فتنة كبيرة ، وفى مثل هذه الحال تغلق الأسواق ، تقفر الطرقات ، ويقبع الناس خلف جدران بيوتهم ينتظرون

نتيجة الصراع ، وللمرة الثانية يحضر السلطان المصحف العثمانى ويحلف الأمراء والجند عليه ، ولم تمض عدة أيام حتى تحرك الأمير قنصوه ، ركب بعساكره ، وملك باب السلسلة ، ثم جلس وأرسل يستدعى أمير المؤمنين الخليفة المتوكل ، والقضاة الأربعة ، وسائر الجند ، فلما تكامل المجلس تشاوروا فى خلع السلطان الناصر وسلطنة قنصوه ، وبالفعل ، قرروا خلع السلطان ، تشاوروا فى ذلك ، وكتبوا محضرا ، وشهد فيه الكثيرون ، وبويع الأمير قنصوه بالسلطنة ، وتلقب بالأشرف أبى النصر ، وقبل له الأمراء الأرض والعسكر قاطبة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، ولم يتبق له إلا أن يركب فرس النوبة ، ويلبس الجبة السوداء ، والعمامة السلطانية ، وتحمل على رأسه القبة والطير ، والأهم من ذلك كله صعوده إلى قلعة الجبل ، وجلوسه على سرير الملك ، والاستيلاء على القلعة فى العصر المملوكى كان هو الفيصل فى الصراع ، كان سقوطها يعنى استلام السلطة بشكل كامل ، ويعكس ذلك مركزية السلطة الشديدة فى مصر ، ولكن وقعت عجائب ، وغرائب ، كما يقال :

ستقضى لنا الأيام غير التى غدت

ويحدث من بعد الأمور أمور

كل الأمور مهيأة:

أرسل السلطان الجديد بعض الأمراء إلى القلعة للقبض على الملك الناصر ، ولكن جماعة من مماليك أبيه تعصبوا له ، وتصدوا للأمراء ، وكان على رأسهم خال السلطان الناصر ، ودار القتال فى القلعة ، واستمر حتى يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة ، فى هذا اليوم أصاب قنصوه سهم سقط مغشيا عليه ، فحمله الغلمان على أكتافهم ، وبقى لباسه بدكته ظاهرا للناس ، ورأسه مكشوفة ، وهكذا فقد السلطان الجديد

هيبته ، واختفى فى القاهرة ، فلما انكسر نزل مماليك السلطان الغلام ، ونهبوا الأمراء والخليفة ، وخطفوا عمائم القضاة ونوابهم وفى اليوم التالى طلع الخليفة والقضاة إلى القلعة ، لتهنئة السلطان الغلام بانتصاره ، وبايع الخليفة السلطان الغلام مرة ثانية بعد أن كان قد خلع منها ، أنعم السلطان على خاله الذى صار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار السعى لأرباب الوظائف من بابه ، وبعد عدة أيام ظهر الأمير قنصوه مرة أخرى ، ولكن لم يتحمس الجند للوقوف معه ، فاضطر للهرب مرة أخرى خارج القاهرة ، ولم يمض وقت طويل حتى قتل ، غير أن تمرد قنصوه جعل السلطان الغلام مهددا باستمرار . حتى إن بعض المماليك اقترحوا تغيير لقب السلطان ، ولقبوه بالملك الأشرف على لقب أبيه ، واحتج بعض الأمراء ، وكيف يكون ذلك وقد خرجت المناشير إلى كل البلاد باللقب الأول ، ولكن المماليك صمموا ، وعند ذلك نودى فى القاهرة أن السلطان تغير لقبه ، إلى الملك الأشرف ، فتعجب الناس من ذلك ، وصار الخطباء فريقين بعضهم يخطب باسم الملك الناصر ومنهم من يخطب باسم الأشرف ، وقع الاضطراب فى كل شىء ، وهجم المنسر على سوق باب اللوق وسوق تحت الربع ، وقطع العربان الطرق فى الريف ، وبرغم اضطراب الأحوال ، فإن السلطان الغلام لم يتعظ ولم يثب إلى رشده ، بعد انتهاء الفتنة اندفع فى سلوكياته أكثر قوة ، وأشد .

اختار السلطان الغلام عددا من اللصوص ، والأوباش ، فصاحبهم ، ولازمهم وصنعوا له مركبا صغيرة ، جعل فيها حلوى وفاكهة وجبن مقلى ، وكان ينزل بنفسه فى المركب ، ويبيع كما يبيع الباعة فى بركة الرطلى زمن فيضان النيل ، وكان يقلد أصوات الباعة ، ويبدو مسرورا بتمثيله دور البائع ، ثم يظهر لمن يلعب معهم فجأة القسوة ، يذكرهم بأنه السلطان ، وإذ يرى رعبهم منه يضحك ، يضحك مسرورا ، وفجأة أمر بالقبض على سبعة من أهل الفساد الذين كانوا يلعبون معه ، أدخلهم

إلى الحوش فى وسط القلعة ، أمر بقيدهم ، ثم استدعى المشاعلى (المكلف بإعدام الناس) ، وطلب منه أن يعلمه كيف يوسطهم ، فراح المشاعلى يعلمه ذلك أمام رفاقه فى اللعب ، وهو يختلس النظر بين الحين والحين إلى وجوههم مستمتعا برعبهم ، ثم تقدم منهم ، أمسك بالسيف ، وبدأ بأن قطع أيديهم ، ثم قطع آذانهم ، ثم قطع ألسنتهم بيده ، وكلما علت صرخاتهم ، كلما ازداد قسوة ، وازداد متعة ، وبعد أن وسطهم جميعا ، دخل إلى قاعة الملك ليدبر أمور الدولة ، لقد رأى الذعر الإنسان ، وأشبع عينيه فرأى الدماء ، إنه يريد ان يرى ذعر الحيوانات ، أمر بإحضار عدد منها وقطعها بيده ثم أمر بإحضار عدد من الحيات السامة ، فقطعت بحضوره ، وبعد انتهاء تقطيعها أهدى من قاموا بهذا العملية الخلع والهدايا .

العيد

الأمور تضطرب ، يجىء الصيف ويشتد الحر ، يعز وجود السقايين ، يتكالب الناس على الجمال التى تنقل المياه من النيل حتى إنهم تخانقوا بالعصى ، يتزايد أذى المماليك ، ينزلون إلى الأسواق ويعترضون المارة ، يخطفون العمائم ، وخطف العمائم من الامور الشائعة فى هذا الزمان ؛لأن الناس اعتادوا وضع نقودهم فى لفات القماش التى تحيط بالعمامة ، إلا من مفتقر تماما ، والسلطان كلما تقدم به السن لايعقل ولاتدركه حكمة ، فى يوم التاسع والعشرين من شهر رمضان عام ٩٠٢هـ ، يأمر السلطان بأن تدق الكوسات فى القلعة ، يقول لمن حوله «أنا أعمل العيد فى الغد من هذا الشهر إن رأوا الهلال أو لم يروا» ، لما أشيع ذلك بين الناس ركب قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا وطلع إلى القلعة ، فاجتمع بالسلطان وراح يشرح له أن العيد لايكون شرعا إلا إذا رؤى الهلال ، وشق الأمر على السلطان ، غضب ، كيف لاينفذ ما ارتآه ، كيف لاتتحقق رغباته حتى وإن بدت مخالفة للشرع ، للدين ، أليست

خيوط السلطة كلها فى يده ، هم بعزل القاضى فى ذلك اليوم ، فى اليوم التالى كان الخميس ولم يظهر الهلال ، فجاء العيد يوم الجمعة ، وكان السلطان يخشى فى أعماقه مجىء العيد يوم الجمعة ، بسبب اعتقاد ساد فى مصر خلال العصور الوسطى ، وحتى الآن بين الطبقات الشعبية ، وهو أنه إذا جاء العيد يوم الجمعة ، وأقيمت الصلاة فيه مرتين كان ذلك إيذانا بزوال الحاكم عن قريب ، جاء العيد يوم جمعة ، ولم يخرج السلطان إلى الصلاة ، ولم يطلع الأتابكى تمراز إلى القلعة ، ولا بقية الأمراء المقدمين ، ولم يكن السلطان فى موقعه ، إنما كان فى قاعة البحرة يقضى العيد مع الأوباش واللصوص .

يقول ابن إياس:

«وكان الناصر فى تلك الأيام فى غاية الطيشان . .»

وينتهى عام ٩٠٢ هـ ، ويعلق ابن إياس :

«وقد خرجت هذه السنة على ماشرح فيها من الفتن والأفكار ، والفساد ، وخراب البلاد ، ووقع فيها الغلاء وتشحطت الغلال ، وقتل فيها من الأمراء نحو من خمسين أميرا ، مابين مقدمين ألوف وطبلخانات وعشرات ، وقد تقدم ذكر ذلك عند وقوع كل حادثة ، من أوائل هذه السنة إلى أواخرها ، حسبما أوردناه من الوقائع ، وقتل من الجند والعرب نحو من ألف إنسان فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . .» .

سلطان فى الرابعة عشر ، مراهق ، شاذ ، مامن شىء يحول دون رغباته الحسية ، ينزل بين الحين والحين إلى تربة أبيه مع أصحابه اللصوص وفى الليل يأتى بما لم يسمع بمثله ، يقول ابن إياس :

«وفيه نزل السلطان وبات فى تربة أبيه ، وحصل منه تلك الليلة عدة مساوئ لاينبغى شرحها» .

وفى هذه الأيام يجىء الطاعـون ، ومـات من الأطفـال والممـاليك والعبيـد والجوارى عدد كبير ، واستـمر المماليك فى أذاهم للسلطان استخفوا به ، وجاروا على الناس بخطف القماش من الدكاكين والبضائع من الأسواق ، وصاروا يستخفون بالسلطان والأمراء ، حتى قيل إن بعض المماليك كان راكبا على فرس حرون ، فصادف جنازة فى وجهه ، فجفل منها فرس ذلك المملوك ، فسقط إلى الأرض ، فخرج خلفه وهاش على الحمالين الذين يحملون الميت ، فهربوا بعد أن ألقوا الميت على الأرض ، فلما هربوا راح يضرب الميت حتى شفى غليله!

كل تفاصيل الحياة تصبح قبيحة ، إذا كان الحاكم قبيحا ، عرفنا ذلك جيدا فى مصر ، طوال تاريخها البعيد ، والقريب ، أما السلطان الغلام فـلاه ، لايعبأ ، غـارق فى طيشـه ، ينزل إلى بولاق فى مولد سيـدى إسمـاعيل الإمبابى ، رحمة الله عليه ، يعبر النيل فى قارب ، ومعه بعض أولاد عمه ،أوقد حراقة نفط هائلة «صواريخ» وبات هذه الليلة فى المركب ، ثم تكرر منه ذلك عدة ليالى أخرى ، ثم صار يركب بنفسه فى كل ليلة بعد العشاء وأمامه فانوسين وأربعة مشاعل ، وعدد من العبيد السود ، وإذ يرى أى إنسان فى الطريق يناديه ، ثم يسأله بصوت هادئ ، ويتحاور معه ، وفجأة يأمر بإمساكه ثم ينزل من فوق جواده ويقطع أذنيه وأنفه بيده ، أو يقتله ، وهكذا قتل من الناس عدد لايحصى فى مدة بسيطة ، وكان إذا مر بدكان ولم ير عليه قنديلا يسمر الدكان ، وهو واقف بنفسه عليها حتى تسمر ، كان السلطان أثناء مشيه فى الاسواق ينظر إلى البيوت فإذا لمح امرأة جميلة هجم عليه ، اقتحمه واغتصب المرأة أمام زوجها وأخيها ، فى إحدى الليالى دخل حارة الروم ، هجم على دار إبراهيم مستوفى ديوان الخواص ليلا وقبض على ولده أبى البقا وأراد قتله ، فألقى والده نفسه عليه وافتداه بألف دينار ، كان السلطان الطفل - الذى أصبح مراهقا بشعا- قد بلغه أن زوجة أبى البقا جميلة ، فهجم

عليه بسببها ، فأخفوها منه ، فجرى منه ذلك ، مرة أخرى سمع عن امرأة جميلة ، فاقتحم طاقة بيتها ، واغتصبها ، وضرب زوجها بالمقارع وسط بيته ، وقطع دائرة فرجها بيده ، ونظمه فى خيط أعده لنظم فروج النساء ، فى يوم آخر أمسك بجارية جميلة ، أغلق عليها الباب ، ربطها وفى قسوة بشعة راح يسلخ جلدها ، راحت أمه تتشفع لها ، ولكنه لم يستجب لطرقاتها فوق الباب ، واستمر حتى سلخ الجارية تماما ، وحشا جلدها ثيابا ، وخرج يظهر لمن بالباب قدرته على السلخ ، راح يصيح :

«إن الجلادين لايستطيعون أن يفعلوا مثلما فعلت» ونتوقف عن سرد فظاعاته مع النساء .

ويمضى عام آخر من سنوات العذاب التى عرفتها مصر ، ولندع شيخنا ابن إياس يعلق :

«وقد خرجت هذه السنة على الناس وهم فى أمر مريب ، وقد وقع بها الغلاء والفناء ، والمصادرات للناس ، وجور السلطان فى حق الناس ، كما تقدم ، وأذى المماليك فى حق الرعية ، وقد صارت الناس فى غاية الاضطراب وماكفى هذا كله ، حتى فشى فى الناس داء يقال له الحب الفرنجى (الزهرى) أعاذنا الله منه ، وقد أعيى الأطباء أمره ولم يظهر هذا بمصر قط سوى فى أوائل هذا القرن ، ومات به من الناس مالايحصى ، انتهى ذلك .

ولكن أيام السلطان المجنون لم تنته بعد . . .

فى غمار الاستمتاع بالسلطة وسكرتها ، تبدو الأوضاع مستقرة هادئة ، ويخيل للحاكم أنه سيقضى بقية عمره يحكم ويفسق ، ولن يردعه رادع ، وفى مصر كانت تمر فترات يبدو فيها الواقع آسنا ، كريها ، ومامن حركة إيجابية تواجه البغى ، وفجأة يتفجر الواقع عن مفاجأة لاتخطر على بال ، ربما يتحرك شخص واحد ، يفتدى أمته بنفسه ،

فيجهز على الطاغية ، وهكذا يتبدل الواقع إلى الأفضل ، وقد يهب الشعب كله الذى ظن القريب والبعيد أنه مات ، وأنه لن يتحرك .

جاءت سنة ٩٠٤ هـ ، والأحوال سيئة للغاية ، والمماليك طالبين الشر مع السلطان ، فلما كان يوم الإثنين ثالث عشر ربيع الأول ، نزل السلطان من القلعة وتوجه إلى بر الجيزة ، لم يصحبه أحد من الأمراء ، حتى ولاخاله ، نصب هناك خيمة وأرسل أحضر أبو الخير لاعب خيال الظل المشهور ، وجوق مغانى ، وأقام ثلاثة أيام وهو فى أرغد عيش ، وأثناء عودته مر على الطالبية ، وكان الأمير طومان باى الدوادار هناك ، خرج الأمير وعزم عليه فلم ينزل عنده ، فخرج إليه بجفنة فيها لبن فاخر ، فوقف السلطان وهو راكب على فرسه ، فقدموا له الجفنة اللبن والمعلقة فمد يده إلى الجفنة وأكل من اللبن ، فبينما هو يأكل والأمير طومان باى ماسك لجام فرسه ، فلم يشعر إلا وقد خرج عليه كمين من الخيام التى هناك نحو من خمسين مملوكا ، وهم لابسون آلة السلاح ، فاحتاطوا به ، وعاجلوه بالحسام قبل الكلام .

وقتل أشر قتلة ، مثلوا به كما مثل بالمئات .

وهنا لنصغى إلى شيخنا ابن إياس :

« . . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحوا من سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما ، وكانت أيامه كلها فتن وشرور ، وحروب قائمة ، وماكان الأشرف قايتباى قصده أن يتسلطن ولده خوفا عليه من ذلك» .

ويسدل الستار على فترة حالكة من تاريخ مصر الطويل .

خاير بك

« . . فى ذلك اليوم البعيد المتوارى الآن فى أعماق التاريخ ، شرع السلطان الغورى يصيح محاولا لم شمل عساكره بعد أن دارت الدوائر وصارت الكفة راجحة إلى جانب السلطان سليم العثمانى ، «ياأغوات ، هذا وقت الشدة ، هذا وقت المروة ، قاتلوا وعلى رضاكم» .

ولكن لم يسمع له أحد قولا ، وصاروا ينسجون من حوله شيئا بعد شىء ، وفوق الغبار الذى غطى سهل «مرج دابق» خيم شبح الخيانة الكئيب المقزز ، لقد عرف على الفور أن بعض أمراء المماليك كانوا على صلة بالسلطان سليم ، ومنهم خاير بك نائب حلب الذى كان يقود الميسرة لقد كان موالسا على السلطان الغورى فى الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وظهرت خيانته مبكرة ، كان أول من هرب من القادة ، والحقيقة أن خيانته بدأت قبل موقعة مرج دابق بكثير ، كان على صلة بالعثمانيين ، يراسلهم بأحوال مصر ، ويكشف أسرارها ، ولايحدد لنا ابن إياس التاريخ الذى بدأ فيه تجنيده للعمل إلى جانب العثمانيين وهذا طبيعى فتاريخ الجواسيس والخونة يلفه الغموض دائما ، ولكن يبدو أن «تجنيد » خاير بك للعمل إلى جانب العثمانيين قد تم عندما تولى نيابة حلب ، وتلك منطقة تقع عند حدود السلطنة

المملوكية وتحاذى السلطنة العثمانية ، ويبدو أن خاير بك لم يمر بمرحلة معاناة طويلة فى رحلة خيانته ، إذ إننا نلاحظ مايمكن أن نسميه الشعور باللا انتماء إلى الوطن عند كثير من المماليك الذين انتزعوا من أوطان بعيدة وجىء بهم إلى مصر ، ويبدو هذا اللا انتماء واضحا فى سلوك السلطان الغورى عند نزوله من القلعة وخروجه على رأس الجيش المصرى لصد العثمانيين إذ أخذ كل مايملكه من أموال وتحف وجواهر وسلاح نادر فوق عشرات البغال ، كان المال هو الوطن الحقيقى ، لاننكر أن العديد من أمراء المماليك ارتبطوا بمصر ، واعتبروها وطنهم ، وبعضهم استشهد من أجلها ، وفيما بعد كان العثمانيون يطلقون عليهم «الأمراء المصرية» لكن ظاهرة اللاانتماء كانت واضحة أيضا فى البعض ، وتتجسد فى هؤلاء الأمراء الخونة الذين خامروا على سلطانهم ، وتسببوا فى ضياع السلطنة المصرية التى كانت تحمى البحرين والحرمين ، وتحويل مصر التى تباهى بملكها الملوك إلى مجرد ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وكان خاير بك أشهر خونة ذلك الزمان .

كان خاير بك جركسيا أباظى الجنس [1] وكان أبوه اسمه ملباى الجركسى ، قدمه مع إخوته الأربعة إلى السلطان قايتباى ، وهكذا أصبحوا من مماليكه ، أقام خاير بك القلعة ثم أخرج له السلطان خيلا وقماشا وعمار من جملة المماليك الجمدارية ثم بقى خاصكيا دوادار سكين ، ثم بقى أمير عشرة فى سنة إحدى وتسعمائة فى دولة الملك الناصر بن الأشرف قايتباى ، ثم بقى أمير طبلخاناه فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى . وأرسله فى مهمة إلى الخوندكار أبى يزيد ابن عثمان السلطان العثمانى عام ثلاثة وتسعمائة« ومن المحتمل أن يكون قد

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٢٠٤- ص٤٨٣ الجزء الخامس

بدأ صلاته السرية بالعثمانيين خلال هذه الزيارة» . استمر خاير بك فى الترقى حتى أصبح حاجب الحجاب فى بداية سلطنة الغورى ، ثم عين سنة عشر وتسعمائة نائبا ، وحتى هزيمة السلطان الغورى فى مرج دابق لانسمع أخبارا عن خاير بك ، ولاتطالعنا مواقف بارزة له ، ولانجد اسمه فى بدائع الزهور إلا عند ذكر أرباب الوظائف بالدولة ، ولكن خاير بك يطفو على سطح التاريخ من قاع الخيانة ، لقد مرت حياته حتى مرج دابق بمرحلة ، وتبدأ المرحلة الثانية بانضمامه إلى السلطان سليم حتى دخوله القاهرة . أما المرحلة الثالثة فتبدأ منذ تعينه نائبا للسلطنة العثمانية بمصر وتنتهى بموته . .

انضم خاير بك إثر الهزيمة مباشرة إلى السلطان سليم العثمانى ، يقول ابن إياس :

«ومن كان موالسا على السلطان فى الباطن وهو خاير بك نائب حلب ، فإنه أول من كسر عسكر السلطان هو ، وهرب من ميسرة السلطان حتى انكسر فتوجه إلى حماة ، فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وأخلع عليه وصار من جملة أمرائه ، ولبس زى التراكمة : العمامة المدورة والدلامة وقصص ذقنه ، وسماه ابن عثمان خاين بك ، كون أنه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان فسماه بذلك ، فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك نائب حلب وتوجهوا صحبة العسكر إلى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله وملك هولاكو ملك التتار مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم فصار ابن العلقمى من المقربين إلى هولاكو ، ثم أقلب عليه وقتله ، وصلبه ، وقال له ، أنت ماكان فى وجهك خير لأستاذك يكون فى وجهك خير لى . . وربما يقع لخاير بك نائب

حلب مثل ذلك» .

يتضح من سطور ابن إياس احتقاره لخاير بك ، والحقيقة أن الخائن كان يدخل مرحلة جديدة فى حياته ، لقد رفض مماليكه أن يتبعوه ، ومضى هو إلى صفوف السلطان العثمانى مع خونة آخرين أمثال الخواجا إبراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقشى ، وتبدأ العلاقة المعقدة بين الإنسان الذى باع نفسه والسلطان الذى اشتراه ، إنه بيع من نوع خاص ، فبيع البشر كان أمرا عاديا فى ذلك الزمان ، ولكن هذا البيع الإرادى له اسم واحد على مر العصور كلها ، مهما اختلف الزمان ، إنه الخيانة بعينها ، وهنا لاينظر السلطان العثمانى باحترام إلى الخائن ، إنما يحتقره ويحذر جانبه ، ويسميه خاين بك ، وينتشر الاسم ليصبح على ألسنة الناس كلهم فى مصر ، وربما كانت حكايات الناس المتداولة نسبت إلى السلطان سليم تسميته لخاير بخاين بك ، ولكن لاشك أن تصرفات السلطان تجاه خاير بك تكشف مدى احتقاره له ، وهنا يجد الخائن نفسه مضطرا إلى إبداء ولاء زائد تجاه السلطان الذى باع نفسه له ، بعد أن انضم خاير بك إلى العثمانيين يحدثنا «ابن زنبل الرمال» فى كتابه «وقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم» عن علاقة خاير بك بالسلطان العثمانى ، وكيف أنه أشار عليه بذبح الكثير من المماليك الذين وقعوا فى الأسر ، ويقول ابن زنبل الرمال :

«وكان السلطان سليم ليس له إقدام على قتلَ النفس»[1]

إن الخائن يصبح مبالغا فى العداء لقومه ، يود إبادتهم كلهم وكأنه يريد إطفاء العيون التى تتطلع إليه باحتقاره ، ويلح الخائن على السلطان سليم فى ضرورة التوجه إلى مصر ، يقول ابن زنبل الرمال :

.(١) ابن زنبل الرمال ص ٤٢ .

«فقال له السلطان سليم ، وأنى لى بأخذ مصر ، وجميع العسكر اجتمعوا بها ، وقد أخذوا أهبتهم ، وسلطنوا عليهم طومان باى ، وهو مشهور عندهم بالشجاعة والفروسية ولابد لهم من أمر يريدونه ، ونخشى التجوين فى بلادهم وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا ، فقال خاير بك : إن العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة وانقطعت قلوبهم ، لاسيما والخلف واقع بينهم ، فإنهم جميعا مختلفون ، وكل من الأمراء والأعيان قصده هلاك الآخر ، فحيثما كان ذلك فلا تخش من شىء ، وأنت منصور بنصر الله لك» .

ويذكر ابن زنبل أن السلطان سليم وبخ خاير بك كثيرا كلما واجه موقفا صعبا ، بل إنه فى بعض الأحيان هم بضرب عنقه ، خاصة بعد دخول القاهرة ، وهروب طومان باى وتجميعه للمصريين والعربان وتنظيمه المقاومة ضد الغزو العثمانى ، وعندما كان العثمانيون يمسكون بأمراء المماليك الهاربين ، كان خاير بك يستحث السلطان سليم فى قطع رقاب الذين كانوا يوما زملاءه ومن بنى جنسه ، وعندما يؤسر كرتباى الوالى يناقشه السلطان سليم ويعجب به ويقرر الإبقاء على حياته ،لكن خاير بك يقول له : «يامولاى ، إن أبقيت عليه وجعلته وزيرا لايبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ويفسد جميع عساكرك» إن أى نموذج إيجابى يصبح مصدر إزعاج شديد للخائن ويسعى بكل قوة للقضاء عليه ، ويتكرر نفس الموقف عند أسر طومان باى السلطان المملوكى الشجاع ، إن سليم العثمانى يعجب به ، ولكن خاير بك يحرضه بكل الوسائل على قتله ، حتى يتم شنقه على باب زويلة ، إن الخائن يبتذل كل ماتبقى من إنسانيته شيئا فشيئا فى سبيل إرضاء سيده الجديد ،

(١) بدائع الزهور– الجزء الخامس ص٢١٠ .

وقبل أن يغادر السلطان سليم مصر يقرر تعيين خاير بك نائبا له بمصر ، ويلقب خاير بك بملك الأمراء ، ولكن أى أمراء ، فقد صعد إلى القلعة التى كانت مقرا لحكم السلاطين .

فى يوم الأحد السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٢٣هـ ، طلع الخائن إلى القلعة ، وبعد يومين فقط ثار عليه جماعة من جنود الإنكشارية العثمانيين .

«وقالوا له : رتب لنا جامكية كما كانت تأخذ المماليك الجراكسة ، فقال لهم : حتى أرسل أطالع أستاذكم بذلك[1] .

إن الخائن يجد نفسه فى حاجة إلى الرجوع فى كل كبيرة وصغيرة إلى سيده ، كل يوم يمر عليه فى السلطة يتزايد احتقار العثمانيين له ، فقد طالبوه مرة أخرى بأن يرتب لهم أرزاقا من اللحم كما كان السلطان يرتب للمماليك من قبل .

«وأغلظوا عليه فى القول . فقال لهم : أنا سلطان حتى أفرق عليكم الإقطاعات أرسلوا قولوا لأستاذكم يفرق عليكم الإقطاعات ويجعل لكم الجوامك واللحوم والعليق ، فلما سمعوا ذلك سبوه سبا قبيحا وهموا بقتله»[1] .

إن الخائن يواجه حقيقة نفسه فيقول لجنود سيده «أنا سلطان حتى أفرق عليكم الإقطاعات؟» . ولكنه يحاول التشبه بالسلاطين فيعقد مجلسا لقراءة صحيح البخارى وفى نهايته يوزع الخلع والهدايا على العلماء ، ولكن الحفل هزيل ، إن ابن إياس يعلق على ذلك قائلا :

(١) بدائع الزهور - الجزء الخامس ص٢١٣ .

«وشتان بين هذا الختم وماكان يعمل فى ختم السلاطين الماضية فى مثل هذا اليوم»[1]

ومرة أخرى يقول ابن إياس معلقا عندما خطف العثمانيون الأكل الذى كان محمولا إلى الخائن عندما خرج للنزهة :

«ولم يكن لخاير بك عند العثمانية حرمة ولاوقار ، ولامراعاة له فى سائر الأحوال»[2]

كان الخائن يحاول التشبه بأسياده القدامى ، سلاطين المماليك .

ولكن الخيانة تخفض قيمة أى فعل ، بالإضافة إلى الظروف ، عندما يحتفل بالمولد النبوى فى الحادى عشر من ربيع الأول سنة ٩٣٤هـ . ويقول ابن إياس :

«فصنع له ملك الأمراء مولدا لم يشعر به أحد من الناس ، فقيل : حضر عنده عشر جوق من القراء والوعاظ وبعض فقهاء ، فرسم لكل جوقة من هؤلاء بأشرفين فضجوا من ذلك ، وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى مولد السلاطين لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمراء أشرفين ، فرسم لكل جوقة بأربعة أشرفية لاغير ، وقيل أن ملك الأمراء أخلع على الوعاظ فى ذلك اليوم كوامل بسمور ثم استردهم منهم بعد ذلك وأعطاهم مبلغا يسيرا ، ثم بعد العصر مد سماطا فى المقعد الذى بالحوش ، ليس بكبير أمر ، تخاطفته العثمانية على لمح البصر وبات غالب الفقهاء ، بلا عشاء ، وأين الحسام من المنجلى ، بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية من الأسمطة الحافلة

(١) بدائع الزهور - الجزء الخامس ص ٢١٥ .
(٢) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص٢١٦ .

والشقق الحرير التى كانت تدخل فى جوق القراء ، والوعاظ ، ولاسيما ماكان يعمل فى موالد السلطان الغورى ، فكان يصرف على سماط المولد فوق الألف دينار ، وكان يحضر عنده فى تلك الخيمة المعظمة التى لم يعد يسمح الزمان بمثلها أبدا ، القضاة الأربعة ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرين أميرا مقدم ألف ، غير بقية الأمراء والعسكر .

باستمرار يحاول خلق الهيبة لنفسه ، ويتشبه بسلوك السلاطين ، فينزل من القلعة فى مواكب يحاول أن يضفى عليها الأبهة ، ولكنها كانت تفتقر إلى ذلك ماديا ومعنويا ، فالفخامة ولت ، وفى وصف ابن إياس لمواكب الخائن ونزوله نلمح فتورا ، بل واحتقارا ، ولايذكر ابن إياس أن الناس قابلت الخائن بالترحيب أو التهليل كما كان يحدث أيام السلاطين ، لقد كان الشعب المصرى يحتقر الخائن احتقارا كبيرا ، فلايذكر اسمه إلا بخاين بك .

كان أحتقار الشعب له نتيجة عدة عوامل ، أولها الخيانة الفادحة التى راحت ضحيتها مصر ، أما العامل الثانى فعجزه عن رد حقوق الناس إليهم ، لاتقرأ أنه رد بضاعة مسروقة إلى صاحبها ، أو أنصف مظلوما ، بل إن الخائن كان يمارس الظلم بوضاعة ، لقد احتكر التجارة فى خيار الشنبر ، وحدث أن دخل أحد الفلاحين إلى حقل وقطع بعض العيدان من خيار الشنبر ووضعهم فى قفة ، فقبض على الخولى وأتى به إلى الوالى ، فعرضه الوالى على الخائن خاين بك ، وهنا يأمر بشنق الرجل .

وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار الشنبر مايسووا أربعة أنصاف ، فتأسف عليه الناس كيف راح ظلما على شىء مايستحق هذا كله وكان له أولاد وأم وزوجة ، وكان ملك الأمراء خاير بك يبات يسكر

بطول الليل ويصبح فى خبال السكر يحكم بما يقتضيه عقله . ولم يظهر العدل فى محاكماته قط منذ تولى عهد مصر»[1] .

ثم يطالعنا ابن إياس بحادثة أخرى :

«وفى يوم السبت سادس عشر رسم ملك الأمراء بشنق عجمى فشنق على باب زويلة ، وكان هذا التاجر فى سعة من المال ، فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له جرم ، فطمع ملك الأمراء فى ماله ، وزعم أنه جاسوس من عند شاه إسماعيل الصوفى بذلك فشنقه ظلما واحتاط على جميع أمواله»[1] .

وفى جمادى الآخرة سنة ٩٢٥هـ .

«أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد ضرب زوجته خوند مصرباى الجركسية ضربا مبرحا حتى كادت أن تموت ، ولم يعلم ماسبب ذلك ، وكثر فى ذلك القيل والقال »[2]

وفى ذى القعدة سنة ٩٢٦ هـ يورد ابن إياس حادثة طريفة تعكس ماوصل إليه الحال :

«وفيه أشيع أن صبيانا صغارا قعدوا يلعبون فى بعض الحارات ، فعمل واحد منهم ملك الأمراء وآخر والى القاهرة ، ونادرا أن أحدا لايخرج من بعد العشاء ، فقام أحد الصغار وخطف عمامة آخر يعبث عليه فقبضوا عليه وأحضروه بين يدى الذى جعلوه ملك الأمراء فرسم للذى أقاموه واليا بأن يقبض عليه ويخوزقه فدقوا له عصا فى الأرض ، وأقعدوه عليه غصبا ومنهم من قال : إن الصبى مات من وقته ومنهم من قال : إنه لم يمت ، فلما جرى ذلك تهاربت الصغار إلى حال سبيلهم ، وقد هان القتل فى هذه الأيام حتى عند الصغار . . .»

---

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس – ص٢٥٤ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٦٢ .

ولكن النهاية لم تكن سهلة ، وتلك ظاهرة نلاحظها فى أشهر خونة ذلك الزمان ، فجان بردى الغزالى الأمير المملوكى الذى خان طومان باى وأعطاه السلطان العثمانى نيابة الشام ، نجده يتمرد بعد فترة قليلة من توليه منصبه الجديد ، ويدفعه طمعه إلى الاستقلال بالشام وتقطع رأسه فى نهاية حركته ، أما خاير بك فقد كان مخلصا فى خيانته فلم يفكر فى الاستقلال بمصر أبدا ، بل إنه قطع رأس أحد المواطنين كان قد جرؤ وردد إشاعة تقول بنية الخائن فى الاستقلال بمصر ، أما الخائن الثالث شيخ العرب حسن بن مرعى فقد قطعت رأسه أيضا فى عهد الخائن ، وقيل : إن المماليك الجراكسة شربوا من دمه وقطعوا لحمه جزلا بالسيوف ، وكان ابن مرعى قد خان طومان باى وسلمه إلى العثمانيين بعد أن اختبأ عنده .

لقد بدأ مرض الخائن فى ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ ، ولزم الفراش على الفور ، تزايد به المرض ، انقطع عن المحاكمات ، قيل : إنه وقع فريسة لثلاثة أمراض جاءته مجتمعة وكما يصفها ابن إياس : «منها فرخة محمرة طلعت له فى مشعره ، وانحدار انصب له فى أعضائه ، وهو من أنواع الفالج وكتم البول ، وحار الأطباء فى علاجه» .

عندما تزايد المرض ، لجأ الخائن إلى مايظن أنه سيهدئ نفسه : فنجده يتصدق على جميع أطفال الكتاتيب بالقاهرة ، لكل صغير منهم بنصف فضة ، كانوا يقولون لهم ، اقرأوا الفاتحة وادعوا للملك الأمراء بالعافية ، حتى فى تلمسه أسباب الراحة النفسية يلجأ إلى المال ليشترى به الدعاء ، لاعجب ، فإن لكل شىء ثمنا عند الخائن .

فى يوم الخميس الحادى عشر من الشهر أشيع بين الناس أنه عجز عن القيام ، شل تماما ، فلما تزايد به الأمر ، أعتق جميع جواريه ومماليكه ، وأفرج عمن كان سجنهم ظلما ، إنه يدفع ثمنا أغلى ليشترى الراحة .

«ثم إنه دفع للقاضى بركات بن موسى ألف دينار فضة ، ورسم بإخراج عشرة آلاف أردب قمح من الشونة ، ورسم للمحتسب بأن يفرق ذلك على المجاورين بالأزهر ، والمزارات ، والزوايا التى بالقرافتين قاطبة .

ويعلق ابن إياس على ذلك قائلا :

«ولم ير الناس فى أيام ملك الأمراء خاير بك أحسن من هذه الأيام ، فإنه جاد على الناس وبر الفقراء والمساكين ، ولم يعرف الله إلا وهو تحت الحمل ، فلم يفده من ذلك كله شىء ، ويأبى الله إلا ماأراد . .» .

وعندما قوى عليه النزع ، راح يهذى قائلا : أين المال؟ أين المال؟ أين الملك؟ . وصار يصعق حتى خاف منه من كان حوله .

«وقد فتنته الدنيا كما فتنت من قبله ، فكان كما يقال فى المعنى .

«قد نادت الدنيا على نفسها
لو كان فى العالم من يسمع
كم واثق بالعمر خيبته
وجامع بددت مايجمع»

فى يوم الأحد الرابع عشر من ذى القعدة قبضت روح الخائن ، ويعد ابن إياس مساوئه التى لاتحصى ، ويقول : إنه كان جبارا ، عنيدا ، سفاكا للدماء ، قتل فى مدة ولايته على مصر مالا يحصى من الخلايق ، واخترع طريقة جديدة فى القتل عن طريق إدخال الخازوق فى الأضلاع وكان يسميها «شك الباذنجان» ، وأتلف نقود الديار المصرية ، وعزل القضاة الأربعة ، وزادت كراهيته لرجال العلم والفقهاء ، أما أفدح مساوئه ، فإنه كان سببا فى خراب مصر ، لقد حسن لسليم شاه أخذ مصر ، وضمن له أخذها ، وعرفه كيف يصنع. كان كثير الحيل . والخداع والمكر. لايعرف له حال .

دفن الخائن فى تربته التى بناها قرب باب الوزير على طريق القلعة ، يقول ابن زنبل الرمال :

«يمر عليها الباشات والصناجق والأغوات عند ذهابهم وإيابهم ، فلم يلتفت إليه منهم أحد ، ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة ، مع أنها تربة مليحة المنظر. ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق لأنه كان سببا فى هلاك ألوف مؤلفة من الجراكسة والأروام والعرب وغيرهم . .» .

وبين الناس وعامة شعب مصر كانت الأقاويل تتردد عن الخائن حتى بعد موته ، يقول ابن زنبل الرمال :

«وكانت الناس تسمع صراخه فى القبر وهو يصيح حتى ضجت الناس من ذلك » .

وكان موته عبرة لمن اعتبر ، وهكذا حال الدنيا تفعل بأهلها ، فهنيئا لمن أعرض عنها وقنع منها باليسير ، وترك الكثير عن باله فيالها من دنيا .



مصاحف نادرة.. في القاهرة

« . . فى دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة من أندر المصاحف الشريفة يرجع بعضها إلى القرن الأول الهجرى ، كتب بعضها فوق رق الغزال ، والبعض الآخر فوق قطع عريضة من عظام الجمال ، نسخ أخرى من عصور شتى ، قديمة ومتوسطة وحديثة ، تتميز بينها هذه المصاحف التى خطت فى الزمن المملوكى ، والتى تحلت فيها آيات من الجمال ، وروعة الفن العربى ، كان سلاطين المماليك يوقفون الأموال الطائلة على نسخ المصاحف ، وتذهيبها ، خاصة المصاحف التى خصصت للمساجد التى تحمل أسمائهم والتى شيدوها أيضا لتكون مقرا لمثواهم الأبدى ، كانت زخرفة وتذهيب هذه المصاحف ذروة الفن العربى الذى عرف فى تجميل المخطوطات وزخرفتها ، كان تلوين وتذهيب المصاحف يتم بداية فى حدود معينة ، اقتصر على أجزاء من الصفحات ، مثلا الأشرطة التى تفصل بين السور بعضها وبعض ، والفواصل بين الآيات القرآنية ، وبعض العناصر الزخرفية التى تدل على أجزاء المصاحف وأقسامه كالنصف والربع ، كان الشريط الذى يحيط الصفحة الواحدة أهم هذه الأجزاء ، حيث زينت بعناصر زخرفية مختلفة ، فيها الجدائل والأشكال المتشابكة أو رسوم هندسية من دوائر أو أجزاء من دوائر أو مربعات صغيرة تتداخل وتتفرق ، تتلاقى وتتباعد ، تتماس أو تتقاطع ، تماما كالمصائر الإنسانية ، والمعانى .



أما فواصل الآيات فكانت فى معظمها دوائر ، أما علامات الأجزاء فدوائر فى داخلها مربعات ، تتداخل مكونة أشكالا نجمية مع البؤرة منها يكتب مايدل على الجزء ، فى هذه الزخارف استخدمت الألوان الذهبية والزرقاء والخضراء ، وأحيانا الحمراء ، وكانت الرسوم تحدد باللون الأسود .

فى بداية القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى - بدأت كتابة أسماء السور داخل الأشرطة بحروف مذهبة ، وبدأت الزخارف تصبح أكثر تعقيدا ، ثم اتجهت العناية إلى الصفحات الأولى ، خاصة المساحة الخالية التى كانت تحيط سور الفاتحة ، وفى الصفحة المقابلة أول سورة البقرة ، حيث استخدمت الزخارف النباتية ، والأشكال الهندسية المعقدة ، ذروة هذا الفن نجدها فى العصر المملوكى ، ومنه وصلت إلينا مجموعة من المصاحف الشهيرة النادرة ، بعضها معروض فى متحف خصص لها الآن بمبنى دار الكتب المصرية افتتح فى ليلة القدر من شهر رمضان المعظم عام ١٣٨٧ هـ ، بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم ، والبعض الآخر محفوظ فى خزائن دار الكتب لم يعرض بعد ، يوضح المعرض صور مختلفة من التطور فى نسخ المصحاف ، إذ يضم نماذج مختلفة ، ربما كان أقدمها هذا المصحف الذى ينسب إلى سيدنا عثمان ، وقد أحضر إلى دار الكتب من مسجد سيدنا عمرو بن العاص ، وذكر المقريزى[1] إنه أحد المصحفين اللذين أحضرا إلى مصر ، وإنه مصحف سيدنا عثمان ، الذى كان بين يديه يوم استشهاده ، وانه استخرج من الخليفة المقتدر ، فأخذه أبو بكر الخازن وجعله فى مسجد سيدنا عمرو بن العاص .

وتوجد صورة طبق الأصل من مصحف آخر ينتسب أيضا إلى سيدنا عثمان ، وكان أصله فى سمرقند ، ثم نقل إلى بطرسبرج عاصمة روسيا القيصرية ، وبعد ثورة ١٩١٧ نقل إلى تركستان ، ويوجد الآن فى طشقند ، وقد نشرته جمعية الآثار القديمة على يد الخطاط المصور الروسى بلوساركس وتم

(١)خطط المقريزى جـ ٢ ـ ص ٢٤٦ ـ طبعة بولاق .

طبع خمسين نسخة منه ، والنسخة الموجودة حاليا فى القاهرة أهدبت إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى منتصف الستينيات .

يوجد مصحف آخر مكتوب بخط كوفى على الرق . فى آخره : إنه كتب بخط أبى سعيد الحسن البصرى سنة ٧٧ هـ ، وثمة مصحف بخط الإمام جعفر الصادق ، مكتوب فى القرن الهجرى على ورق ، ومصحف مكتوب فى أوائل القرن الثالث الهجرى على رق غزال ، بالقلم الكوفى على طريقة أبى الأسود الدؤلى .

ثمة مجموعة أخرى من المصاحف المكتوبة بخط كوفى مجهولة التواريخ على وجه الدقة ، وإن كادت تمت إلى القرن الأول والثانى للهجرة .

ثم نتوقف طويلا ، أمام مجموعة المصاحف التى نسخت فى العصر المملوكى ، ذروة الفن العربى فى كتابة المصاحف .

مصحف السلطان محمد بن قلاوون

إنه مصحف متوسط الحجم ، تخلو صفحاته من المستطيلات الزخرفية ، ماعدا فراغ السور ، فى الصفحة الاستهلالية التى تسبق سورة الفاتحة ، المصحف كله مكتوب بماء الذهب ، بالخط الثلث ، إنه من المصاحف النادرة التى كتبت كلها بماء الذهب مضبوط الشكل الكامل ، كتب فى سنة ٧٦٤ هـ ، وبالرغم من ذلك تبدو صفحاته بسيطة ، رقيقة ، تجبر الناظر على طول التأمل والتمعن ، إن العصور العظيمة تنتج فنا عظيما وبسيطا ، لايقدم نفسه من خلال ترف المادة وحشدها ، هذا مانعيه إذ نطيل تأمل هذا المصحف الرقيق الجميل ، لقد انفرد الناصر محمد بن قلاوون بين سلاطين المماليك بطول مدة حكمه ، فقد استقر على عرشه مامجموع حوالى أربعين سنة كاملة ، خلع مرتين ، وعاد واستمرت سلطته الثالثة وحدها اثنتين وثلاثين سنة ، طرد آخر بقايا

الصليبيين من عكا ، ونقل باب كنيستهم ليضعه فى واجهة مسجده الباقى حتى الآن بالنحاسين بالقاهرة القديمة ، وخلال فترة حكمه شهدت البلاد نهضة عمرانية كبرى ، أنشأ الميدان العظيم ، والقصر الأبلق ، والإيوان ومسجد القلعة والمصحف الذى نراه اليوم كتب خصيصا من أجل هذا المسجد ، أوقفه عليه ، وظل به حتى نقل إلى دار الكتب المصرية ، أنشأ الإيوان بالقلعة ، وأعاد بناء عناصر السباع التى بناها الظاهر بيبرس ، وأنشأ ميدان المهاد ، وفى الريف مد قناة مياه النيل من القاهرة إلى سرياقوس ، وخانقاه للصوفية فى المكان الذى يعرف إلى اليوم باسمها (الخانكة - تحريف خانقاه) ومد فى كل بلد جسرا أو قنطرة ، وطور وسائل الرى ، ومد جهده إلى الشام ، العديد والعديد من المنشآت ، أقامها ونشرها لكن معظمها اندثر ، أو وصل إلينا ناقصا ، أو مشوها ، تآكلت الجدران ، وردمت الخلجان ، والقصور التى عمرها ، والإيوان الذى كان فيه تخت ملكه ، شىء واحد فقط وصل إلينا من عصره سليما ، كأنه لم يكتمل إلا البارحة ، شىءواحد ظل زاهيا حتى الآن فكأن يدا لم تمسسه عبر هذه القرون كلها . . . مصداقا لقوله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » . .

مصحف سيدنا عثمان

فى كتابه الشهير« الخطط المقريزية» ، يقول المؤرخ الكبير المقريزى :

« . كان قد حضر إلى مصر رجل من أهل العراق ، وأحضر مصحفا ذكر أنه مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وأنه كان بين يديه يوم الدار ، وكان فيه أثر الدم ، وذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر ، ودفع المصحف إلى عبد الله بن شعيب المعروف بابن بنت وليد القاضى فأخذه أبو بكر الخازن وجعله فى الجامع ، وشهره ، وجعل عليه خشبا منقوشا ، وكان الإمام يقرأ فيه يوما وفى مصحف أسماء يوما ، ولم يزل على ذلك إلى أن رفع هذا المصحف واقتصر على القراءة فى مصحف

أسماء (مصحف أسماء مصحف آخر أقدم عهدا كان موجودا بالمسجد ، ولايعرف أين هو الآن؟) ، وذلك فى أيام العزيز بالله لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وسبعين وثلثمائة ..

ورأيت أنا هذا المصحف وعلى ظهر مما نسخته .

«بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين هذا المصحف الجامع لكتاب الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه حمله المبارك مسعود بن سعد الهيتى لجماعة المسلمين القراء للقرآن التالية له المتقربين إلى الله جل ذكره بقراءته والمتعلمين له محفوظا أبدا ، مابقى ورقه ولم يذهب اسمه ابتغاء ثواب الله عز وجل ، ورجاء غفرانه ، وجعله عدة ليوم فقره وفاقته ، وحاجته إليه » وقد درس مابعد هذا الكلام من ظهر المصحف والمندرس يشبه أن يكون ، وتبصر فى ورقه وقصد بإيداعه قسطاط مصر فى المسجد الجامع ، جامع المسلمين العتيق ليحفظ مع سائر مصاحف المسلمين ، فرحم الله من حفظه ومن قرأ فيه ، ومن عنى به .

وينتهى حديث المقريزى الذى رأى المصحف بعينيه ، يوم الثلاثاء أول ذى القعدة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة هجرية .

نفس هذا المصحف هو الذى نراه يومنا هذا بمعرض المصاحف الدائم بدار الكتب المصرية ، بكورنيش النيل بالقاهرة ، لقد ظل المصحف فى مسجد عمرو بن العاص حتى عام ١٨٩٨ عندما نقل إلى مبنى دار الكتب المصرية ، مع العديد من المصاحف الثرية الأخرى التى كانت موجودة فى المساجد الأثرية الكبرى بالقاهرة .

والمصحف مكتوب على رق غزال ، ويقع فى ثلاثة أجزاء ، وأطرافه متآكلة ، وصفحاته أقرب إلى الشكل المستطيل ، إذ يصل ارتفاعها إلى خمسين سنتيمترا ، أما عرضها فيقترب من المتر ، وربما كان هذا المصحف أقدم مصحف موجود الآن فى العالم ، منذ أن دون القرآن الكريم بعد

جمعه فى عهد خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه ، والمصحف مكتوب بخط كوفى غير منقوط ، ويحمل على بعض صفحاته آثار دم باهت قديم مما قد يؤكد الرواية التى تقول : إنه نفس المصحف الذى كان يقرأ فيه سيدنا عثمان عندما استشهد .

ويوجد فى دار الكتب المصرية صورة شمسية من مصحف آخر ينسب أيضا إلى سيدنا عثمان ، إنه يقع فى نفس الحجم ، كما أنه مكتوب بالخط الكوفى ، غير المنقوط ، أما النسخة الأصلية منه فتوجد فى الاتحاد السوفيتى ، وكان يوجد أصلا فى مدينة سمرقند ، فى مسجد الخواجا عبيد الله الأحرار ، ثم انتقل إلى ملكية حاكم مقاطعة تركستان الذى احتفظ به لفترة ثم نقله إلى مدينة بطرسبورج ، وهناك احتفظوا به فى دار الكتب القيصرية ، وأطلقوا عليه اسم المصحف السمرقندى ، وكان الناس يزورونه فى أيام معينة اعتقادا منهم بأن زيارته تجلب البركة ، والسبب ، ماأحاطه من روايات تنسبه إلى سيدنا عثمان .

ثم قامت جمعية الآثار القديمة بطبع خمسين نسخة منه ، وإحدى هذه النسخ هى التى نراها الآن فى القاهرة.

فى عام ١٩١٨ ، وبعد الثورة البلشفية نقل فى حفل عظيم تحت حراسة مشددة من الجند إلى إدارة مكونة من الشخصيات البارزة فى سمرقند تسمى « النظارة الدينية» وبقى فى النظارة الدينية خمس سنوات ، وفى سنة ١٩٢٣ إلى تركستان ، ثم نقل إلى طشقند حيث يستقر إلى يومنا هذا . . »

مصحف السلطان برسباى

. . فى دار الكتب المصرية مصحف شريف من جزئين ، أوقفه السلطان المملوكى الأشرف سيف الدين أبى النصر برسباى الدقماقى

الناصرى . والمصحف مكتوب فى مجلدين ضخمين ، طول الصفحة سبعون سنتيمترا ، وعرضها خمسون سنتيمترا وهو بذلك على خلاف مصاحف السلاطين الأخرى التى يضم كل منها مجلدًا واحدًا ، والمصحف بمجلديه فى حالة جيدة ، على الرغم من انقضاء أربعمائة وتسعة وخمسون عاما من كتابته وإعداده .

تضم الصفحة الاستهلالية زخارف عربية جميلة باللازورد الأزرق ، والذهب الخالص ، وقد صيغت فى هيئة رقيقة ، لاتبرز أحساسا بالبذخ بقدر ماتبرز رقة وإحساسا مرهفا خاشعا ، ويتوسط الزخرفة شكل مستوحى من الشمس ، وتتفرع الأشعة لتتقاطع وتتعانق فى وحدة وتنوع أخاذين ، وبدءا من الفاتحة وحتى آخر صفحة فى المصحف نجد كل صفحة محتوية على ثلاث إطارات متداخلة تشكل فيما بينها الإطار المكتمل للسور المكتوبة بخط نسخ جميل ، خط مشعر بماء الذهب أما الفواصل بين الآيات فعبارة عن وحدة زخرفية ، دائرية الشكل تتشابه مع تلك الوحدة المستوحى شكلها من ورق الشجر التى تبرز بمفردها خارج الإطارات جميعها ، تصل مابين الوحدات الزخرفية الداخلية والفراغ الأبيض الذى تسبح فيه الصفحات .

ثلاث إطارات متجاورة ، متباينة ، منسجمة ، الإطار الخارجى من اللازورد الأزرق المشعر بالذهب ، يحتوى على أشكال هندسية زخرفية متعانقة ، وحواف هذا الإطار خطوط رقيقة مستوحاة أيضا من أشعة الشمس ، ثم يلى الإطار أبيض نحيل ، ثم اطار من الذهب يتخلله شكل هندى أزرق اللون مزيج من المستطيل والدائرة ، يتخلله اللون الأزرق اسم السورة مكتوبا بلون مذهب ، وهناك مساحات بلون أحمر شفقى موزعة خلال الإطار الذى يليه فاصل أبيض نحيل ، ثم إطار من اللازوردى

الازرق أقل مساحة من الإطار الثانى ، وبه أشكال هندسية تقارب الأشكال التى يحتوى عليها الإطار الخارجى .

المجلد الاول يبدأ بفاتحة القرآن الكريم ، وينتهى بسورة الكهف .

أما المجلد الثانى فيبدأ بسورة مريم ، حيث نقرأ فى الصفحتين الأوليين :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

ثم تستمر صفحات المصحف ، تستوقفنا كل صفحة بدقة الزخارف ، وروعتها ، وهذا الحس الدينى المرهف الثرى الكامن خلفها .

كان السلطان برسباى الثامن من ملوك الدولة الجركسية ، ويعد من سلاطين المماليك العظام ، تولى السلطنة يوم الأربعاء ، ثامن ربيع الآخر من تلك السنة ، بدأ السلطان برسباى فى بناء مسجده فى العام الأول لتوليه الحكم عام ٨٢٦ هـ ، اختار موقعا لها بخط العنبرانيين (شارع المعز لدين الله الآن) ، وكان هناك فندق وعدة حوانيت ، اشتراهم السلطان بدون إجبار ، وأرضى أصحابهم فى الثمن كما يقول المؤرخ المصرى ابن إياس ، وفى نفس اليوم الذى أرسى فيه أساس مدرسته بدأ بكتابة المصحف الذى قرر أن يوقفه ليقرأ فيه الناس القرآن الكريم .

وفى رمضان من نفس السنة جاءت الأخبار بأن ملك قبرص تحرك ، وصار يقطع الطريق على المسافرين والتجارة فضج الناس منه وشكوا إلى السلطان ، فأعد حملة عسكرية خرجت لتأديبه ، غير أن ملك قبرص استمر فى هجماته الخاطفة ، وفى شوال سنة ٨٢٨هجرية ، خرجت حملة مصرية كبيرة ، هاجمت الجزيرة ، وهزموا القبارصة وأسروا منهم عددا كبيرا ، ثم خرجت حملة مصرية أخرى إلى قبرص عام ٨٢٩ هجرية يقول ابن إياس :

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر قد انتصر على الأفرنج ، وأخذوا جزيرة قبرص من يد الأفرنج ، وكانت هذه النصرة على غير القياس ، فإن عسكر الإسلام كانوا فئة قليلة وصاحب قبرص جاءته نجدة كبيرة من ملوك الأفرنج ، الذين حوله ، فكانت النصرة للمسلمين بإذن الله تعالى ، فلما جاء هذا الخبر دقت البشائر بالقلعة سبعة أيام ، ونودى فى القاهرة بالزينة .

كان فتح جزيرة قبرص من أبرز الأحداث التى وقعت فى عصر السلطان الأشرف برسباى ، وأسر فيها ملك قبرص ، وشهدته القاهرة أسيرا مكبلا بالأغلال ، يقول ابن إياس :

«ثم إن السلطان رسم أن يعلق تاج صاحب قبرص على باب المدرسة الأشرفية التى أنشأها العنبرانيون المشهورة وهو معلق إلى الآن .» .

ولازال التاج معلقا إلى يومنا هذا على مدرسة السلطان برسباى ، وفى داخل هذه المدرسة استقر المصحف الشريف موضوع حديثنا فى عصر زاهى شهد المزيد من الفتوحات الإسلامية ، وتصفحته آلاف الأيدى يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ، وقرنا بعد قرن ، حتى وصل إلى عصرنا ، فنقل إلى مبنى دار الكتب المصرية حيث يستقر الآن ، مصحف رقيق ، يعكس مستوى رائعا من الفن الإسلامى الرفيع ، والذى أنتجته عصور المجد الخوالى» .

مصحف قايتباى

. . للسلطان قايتباى مصحفين رائعين ، تحتفظ بهما دار الكتب المصرية فى القاهرة ، المصحف الأول فى قاعة العرض المتاحة للجمهور ، وقد نقل إلى دار الكتب المصرية عند إنشائها فى القرن الماضى من مسجد قايتباى فى الصحراء الواقعة خارج القاهرة ، والذى يضم أيضا تربته حيث دفن ، وقد بدأ السلطان قايتباى فى تشييد مسجده هذا فى شوال ٨٧٤ هجرية ، وقد جاء فريدا فى معماره ، وزخارفه ، ويعد الآن من روائع العمارة الإسلامية فى العالم ، ولاتزال شعائر الصلاة تؤدى به إلى يومنا هذا ، ويضم عدة منشآت ، التربة ، والمسجد ، والسبيل ، والصهريج ، وخلاوى الصوفية ، وقد أقيمت شعائر الصلاة فيه فى شهر رجب سنة ٨٧٩ هجرية .

وهكذا يكون المصحف الذى نراه فى قاعة العرض قد كتب خلال هذه الفترة التى تقع بين عام ٨٧٤ هجرية و٨٧٩ هجرية ، وقد عين له الشيخ ناصر الدين الأخميمى كقارئ متفرغ للمصحف ، وكانت عادة سلاطين المماليك أن يوقف كل منهم مصحفا فى مسجده ، يخصصه للقراء يتلون منه القرآن الكريم ، وكانت تكلفة إعداد هذه المصاحف عالية ، وقد تبارى الخطاطون والفنانون ليجيئ كل مصحف آية رائعة فى الفن ، وتحفة رائعة، وهذا المصحف الذى نراه فى قاعة العرض دليل حى على ذلك الاهتمام العظيم ، محلى بالذهب ، واللازورد الأزرق ، ومكتوب بخط نسخ جميل ، وفواتح السور مزينة بزخارف نباتية ، وزخارف مستوحاة من نجوم السماء .

أما المصحف الثانى فمحفوظ فى مكتبة محفوظات الدار بالطابق العلوى ، تحت رقم «١٩» ، ويبلغ حجمه ضعف حجم المصحف الأول ، كما أنه يقع فى مجلدين ضخمين، كتبه الأمير جاسم السيفى بك الدوادار الكبير .

وهذان المصحفان يعكسان عصر السلطان قايتباى فى رسوخ زخارفهما ، وجمال خطهما ، وروعتهما ، إذا يعتبر السلطان قايتباى من أعظم سلاطين المماليك الجراكسة ، جلبه إلى مصر سنة ٨٣٩ هجرية الخواجا محمود بن رستم، ومن هنا عرف بالمحمودى نسبة اليه ، إذ كان المماليك ينسبون إلى تجار الرقيق الذين يأتون بهم لأنهم مجهولو الأب ، والأم، وقد صعد السلم المملوكى من أسفل ، بدءا من الوظائف الصغيرة حتى أصبح سلطانا فى السادس من رجب عام ٨٧٢ هجرية ، وكان يدنو من الشيخوخة وقتئذ ، إذ كان عمره خمسة وأربعين عاما ، ومع بدء سلطنته استقرت الفتن والاضطرابات فى مصر بعد فترة من حكم السلاطين الضعاف ، وأولى السلطان رعايته للمشاريع الاقتصادية ، والمعمارية، وللفنون كافة ، وأضفى رعايته على الفنانين، والرياضيين، من لاعبى الكرة ، والشطرنج ، ومعلمى المعمار ، والنقاشين والخطاطين ، وعرف عصره عددا من البارزين فى العلوم والرياضة ، منهم إسماعيل الشطرنجى ، نابغة لعبة الشطرنج ، والشيخ جعفر السنهورى أحد أعظيم قراء القرآن ، كان يقرأ بأربعة عشر رواية ، والشيخ شعبان الزواوى شيخ القبانين وكان من الأعلام فى صناعة الموازين وضبطها ، والشيخ سليمان المغربى الذى كان عبقريا فى علم الميقات .

واعتبر عصره من العصور الذهبية بالنسبة للعمارة الإسلامية، ويدل على ذلك تنوع الآثار المعمارية التى تخلفت عن عصره ، فى القاهرة وحدها يوجد ثمانية وثلاثين أثر إسلامى فريد ، إلى جانب الآثار الموزعة على الإسكندرية ورشيد والصعيد، ومن أشهر تلك الآثار قلعة قايتباى فى الإسكندرية التى لاتزال قائمة حتى عصرنا ، وقد شيدها فى نفس الموقع الذى كانت تقوم فيه منارة الإسكندرية. وبلغت الزخارف المعمارية قمتها فى عصره ، خاصة النحت على الحجر ، وتعد زخارف واجهة وكالته أمام الواجهة القبلية للأزهر من أروعها ، إلى درجة أن العالم

الإنجليزى ستانلى لين بول أستاذ العمارة الإنجليزية صب نماذج من هذه الواجهة ووضعها فى متحف فيكتوريا وألبرت بإنجلترا .

وقد اتسعت القاهرة فى عصره ، حيث أنشئ حى بأكمله ، يعد من أشهر مناطقها الآن ، وهو حى الأزبكية لمنشئه الأمير أزبك ابن ططخ أحد الأمراء البارزين فى عصر قايتباى ، وقد بدأ إنشاؤه فى أواخر عام ٨٨٠ هجرية ، وكان حتى أوائل هذا القرن من أجمل مناطق القاهرة ، حيث الحدائق الفسيحة ، وعيون المياه ، وكان مقر السكن الطبقة الأرستقراطية ، كذلك جدد قايتباى العديد من الآثار الإسلامية فى القاهرة والشام ، وأنشأ مدرسة جليلة بالقدس بها شيخ وصوفية وبنى بالقدس أيضا سبيلا له قبة ، كما أنشأ مسجدا فى غزة ، وفى دمشق قام بترميم وإصلاح المسجد الأموى ، ولاتزال حلب تحتفظ بعدد هام من آثاره ، أما الأراضى المقدسة فقد حظيت باهتمام كبير من جانبه ، وقد أنشأ بمسجد قرة المعروف بالخليل إبراهيم بائكتين لتكون ظلة للحجاج وبنى قبة فوق المحراب ، وحفر بوسطه صهريجا للمياه ، وبنى المصطبة الموجودة فى وسطه ، وأمر بإصلاح مسجد الخنيف وبنى به قبتين إحداهما على المحراب النبوى ، والثانية على المحراب الثانى ، وبنى منارته وبوائكه الأربع والبوابة وبابى المسجد ، وأنشأ مدرسة كبيرة عند باب السلام وقرر بها صوفية وتداريس وفقراء وخزانة الكتب والربعات ، وأصلح عين عرفه بعد انقطاع مائها أكثر من مائة عام ، وأصلح سلالم المزدلفة، وأصلح بئر زمزم ، كما أنشأ رباطا للفقراء والطلبة بجوار مدرسة باب السلام .

ومن أبرز الأعمال التى تمت فى عهده ، أنشأ مقصورة جديدة من النحاس للحجرة الشريفة ، المدفون فيها النبى محمد (ﷺ) وقد عرضها السلطان قايتباى فى شهر شعبان سنة ٨٨٨ هجرية ، ونصبها فى الحوش السلطانى بالقلعة ، ثم حملت إلى المدينة المنورة على سبعين جملا ، وأرسل معها أيضا

مصحف ضخم حمل على جمل بمفرده ، كذلك جدد السلطان المنبر والحجرة الشريفة وماجاورها ، والمصلى النبوى والمحراب العثمانى .

ولاشك أن العديد من المصاحف الرائعة قد تم نسخها فى عهد السلطان قايتباى ، وللأسف فإننا لانستطيع تحديد عددها بالضبط، فماوصلنا منها قليل، ولكن هذين المصحفين المحفوظين فى دار الكتب المصرية يقدمان علامة واضحة على هذا العصر البعيد والرائع .

مصحف السلطان برقوق

هذا المصحف الرائع الضخم ينفرد دون سائر المصاحف أنه كتب فى ستين يوما فقط .

وبقلم واحد لم يتغير ، ولم ينقص، ولم يطرأ عليه أى خلل . . «السادس من ذى الحجة ، سنة ٨٠١ هـ . فى هذا اليوم ، بلغ نهر النيل ستة عشر ذراعا ، هكذا سجل مقياس الروضة ، وهذا يعنى أن الوفاء قد تم ، فى هذا اليوم أيضا ، ومع وفاء النيل ، انتهى الخطاط الشهير عبد الرحمن الصائغ من كتابة مصحف السلطان برقوق .

وكان المشرف على تنفيذه الفنان محمد بن محمد الشهير بابن البتون ، أما الخاصية التى انفرد بها العمل فى هذا المصحف الرائع ، فإن مدة كتابته تمت فى ستين يوما فقط .

المصحف المكتوب بالخط الثلث الواضح ، منقوش بالذهب ، والألوان الزاهية ، الرائعة ، اللون الذهبى (استخدم فيه الذهب الخالص ، والأزرق اللازوردى، والأحمر الياقوتى ، وتتخلل الألوان مساحات من البياض الجميل) أما الزخارف الجميلة فتتكون من وحدات هندسية ، وأوراق نباتية ، تغطى الصفحة الاستهلالية، والصفحة التى كتبت بها سورة الفاتحة ، والصفحة التى بها بداية سورة البقرة ، كذلك كتبت فواتح السور فى إطارات مزخرفة ، مستطيلة، جميلة .

ومصحف السلطان برقوق ، يعد من المصاحف التى كتبت فى بداية عصر دولة الجراكسة ، والمعروف أن العصر المملوكى ينقسم إلى عصرين ، عصر دولة المماليك البحرية (نسبة إلى سكنهم فى جزيرة الروضة) وعصر دولة المماليك الجراكسة الذين كانوا يسكنون قلعة الجبل .

بدأت دولة الجراكسة يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وكان أول سلاطينها الظاهر برقوق ، أى أن المصحف كتب بعد سبعة عشر عاما من تولى السلطان برقوق الحكم ، وقد تولى السلطنة ثم عزل منها سنة ٧٩١ هجرية، ثم عاد إلى السلطنة فى ٧٩٢هجرية ، عاد من منفاه فى دمشق يوم الأربعاء رابع عشر ربيع الأول سنة ٧٩٢ هجرية ، يقول المؤرخ المصرى ابن إياس :

ومن العجائب أن السلطنة الأولى كانت يوم الأربعاء ، والسلطنة الثانية كانت يوم الأربعاء ، فلما جلس على سرير الملك نودى باسمه فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء ودقت له البشائر بالقلعة أياما متوالية، وفرح أكثر الناس بعوده . .» .

كان محبوبا من عامة الناس ، وهذا أمر نادر بالنسبة لسلاطين المماليك ، وقد ساعدت فترات حكمه الطويل على استقرار الأحوال ، وانعكس ذلك على ماوصلنا من فنون ، سواء تمثلت فى هذا المصحف الذى نراه معروضا ، الآن فى معرض المصاحف بدار الكتب والوثائق القومية ، أو مسجد برقوق بالنحاسين، والذى يعد تحفة معمارية فريدة فى تراث العمارة الإسلامية » وقد عثر على المصحف فى هذا المسجد ومنه نقل إلى دار الكتب المصرية ويوجد بالمسجد سقف مزخرف زخرفة جميلة يغلب عليها اللون الأزرق ، واللون الذهبى ، بما يوحى بالسماء العريضة الممتدة ، والتى تبدو من خلال الصحن الفسيح ، وقد حفظ لنا التاريخ اسم الخطاط واسم الفنان اللذين أشرفا على تنفيذ المصحف،

وحفظ لنا أيضا اسم الأمير الذى أشرف على عمارة هذا المسجد ، وهو الأمير جهاركس الخليلى الذى بنى السوق المعروفة باسمه حتى الآن . وقد بنى المسجد مكان بعض المبانى التى كانت ملكا لأحفاد أسرة قلاوون ، ثم هدمها ، ووضع أساس المسجد فى أول شوال سنة ٧٨٦هجرية ، أشرف على الهدم والبناء ، الأمير جهاركس الخليلى ، وتولى الهندسة، وأمور البناء الفعلية معلم المعلمين شهاب الدين أحمد ابن الطولونى .

والمسجد مصمم على نظام المدارس الأخرى المكونة عادة من صحن مكشوف قائم الزوايا به إيوانات أربعة أكبرها إيوان القبلى الذى كان يوجد به المصحف فوق كرسى خشبى مطعم بالصدف والعاج ، وكان الكرسى يوضع فوق دكة خاصة من الرخام الأبيض .

أما الإيونات الثلاثة الباقية فكلها مغطاة بسقوف معقودة وأكبرها الإيوان الغربى ، وقد بنى قبوه بمدامك متعاقبة من الحجر الأبيض والأحمر ، وفى وسط الصحن فسقية تعلوها قبة محمولة على أعمدة رفيعة من الرخام ، وأما أرضية الصحن فمفروشة بترابيع من الرخام الأبيض ، وبالطرف الشرقى باب مؤدى إلى تربة السلطان برقوق ، أعدها لنفسه ، ثم عدل عنها ، وآثر أن يدفن تحت أقدام الصوفية الفقراء ، وداخل هذه القبة مكتبة كانت معدة لحفظ المصاحف بها ، كان يوجد بها عدد كبير من المصاحف التى أوقفها السلطان برقوق ، وعدد آخر من الأمراء ، لقد توزعت هذه المصاحف ، واندثر عدد منها ، وبقى هذا المصحف الفريد الذى كتب دفعة واحدة فى ستين يوما ، وانتهى فى يوم حار من أيام صيف عام ٨٠١ هجرية ، وانتقل من المسجد إلى مكانه الحالى فى نهاية قرننا هذا» .

مصحف السلطان فرج بن برقوق

هذا مصحف من آيات الفن العربى ، مصحف فرج بن برقوق ، جاء مصحف الناصر فرج ضخما ، رقيقا ، هادئا ، رائعا ، يتسق بهدوئه ، مع الصمت الذى يسود القرية ، واتسمت زخارفه بالوقار الجميل ، الزخارف الدائرية المتعانقة المتشابكة فى الصفحة الاستهلالية ، والإطار المذهب الهادئ الذى يحيط بالصفحتين الأولى والثانية ، ثم تتابع الصفحات بدون إطارات مذهبة أو مزخرفة ، حيث الخط يمضى سلسا عبر الصفحات الوردية اللون ، خط الثلث الواضح ، فى كل صفحة يمنى وحدتين زخرفيتين فقط ، العلوية دائرية مستوحاة من شكل قرص الشمس بأشعته، وداخلها دائرة أصغر حجما ملونة والوحدة الزخرفية الموجودة إلى أسفل ، تتخذ شكل ورقة الشجر المنسقة الحواف ، حيث يوجد داخلها إطار به دوائر متداخلة .

فى كل صفحة يمنى وحدتان زخرفيتان ، دائريتان ، إنها نفس الوحدة الدائرية الموجودة فى أعلى الصفحة اليمنى ، فواتح السور وعناوينها داخل مستطيل تتخلله أشكال دائرية، وعلى الرغم من الألوان الهادئة التى تتخلله إلا أن أبرز مافيه تلك الحروف البيضاء التى تشكل أسماء السور وعدد آياتها ، الطابع العام للزخارف هادئ، يتناسب من الأثر المعمارى الذى وضع فيه المصحف تلك الخانقاه .

. . عندما توفى السلطان برقوق لم يدفن بمدرسته التى أنشأها بين القصرين، وإنما أوصى أن يدفن تحت أقدام المتصوفة والفقراء بالصحراء ، وأوصى ابنه فرج أن يبنى فوقهم تربة ، وقام فرج بتنفيذ وصية والده ، وبدأ فى بناء تربة ومسجد ومدرسة وخانقاه ، كذلك أخذ فى بناء مدينة حولها عامرة بأسواقها وخانقائها ، وحماماتها ، وأوقف مالا لكتابة مصحف شريف

يوضع فى الخانقاه ، وهو المصحف الذى نراه الآن فى معرض دار الكتب المصرية، والموضوع على بعد خطوات من مصحف والده برقوق .

وهذه الخانقاه تقع الآن فى الجزء البحرى من قرافة المماليك التى يطلق عليه خطأ اسم «مقابر الخلفاء» ، بدأ الناصر فرج فى إنشائها سنة ٨٠١ هجرية (١٣٩٨ميلادية- ١٣٩٩ ميلادية) واستغرق البناء فيها اثنى عشر عاما ، إذ انتهى عام ٨١٣ هجرية (١٤١٠ م - ١٤١١م) . وهى أضخم تربة وجدت فى جميع جبانات مصر ، وأعظمها مساحة وأكثرها نفقة .

وعلى الرغم أن هذا المبنى أعد فى الأصل ليكون مدفنا لأسرة برقوق ، إلا أنه استعمل كمدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية ، وأعد ليكون مسجدا جامعا متسع الأرجاء استكمل كل معدات الصلاة فضلا عن إلحاقه بخانقاه كبير للصوفية ، الخانقاه متناسقة الأجزاء ، تماما كزخارف المصحف المتماثلة فى تناسق رائع، فى واجهتها الغربية سبيلان يعلوهما مكتبان بكل من طرفيها البحرى والقبلى . تذكران الناظر بهاتين الوحدتين الزخرفيتين فى الصفحات اليمنى من المصحف ، ولها مدخلان ، أحدهما بالجانب الغربى، والآخر بالجانب البحرى ، يحيط بها إيوانات أربعة ، القبلى والبحرى منهما متقابلان ومتساويان طولا وعرضا وكلاهما مكون من رواق واحد ، أما الشرقى فمكون من ثلاثة أروقة، توجد قبتان ضخمتان ، دفن بالبحرية ، الملك الظاهر برقوق المتوفى سنة ٨٠١ هجرية (١٣٩٨م- ١٣٩٩م) وأولاده ، ومنهم المنصور عبد العزيز المتوفى سنة ٨٠١ هجرية ودفن بالقبة القبلية المعدة لدفن النساء ابنة الناصر فرج خوند شقرا المتوفاة سنة ٧٧٨هـ (١٣٨٢ م) .

نقرأ على عامود خاص أمام قبر برقوق نقش عليه اسمه وتاريخ وفاته، وتقع خلاوى الصوفية والحجرات والمرافق فوق الإيوانين البحرى والقبلى ويتوصل إليهما من مراق متعددة بالصحن والطرقات ، ويوجد بالإيوان الشرقى منبر الحجر المحلى بالزخارف المحفورة ، وفى هذا المكان كان يوجد المصحف .

تناسق رائع بين المصحف والخانقاه ، هل جاء ذلك وليد الصدفة أم أن هذا بتأثير هذه البقعة النائية ، من الصحراء ، حيث بنيت الخانقاه التى أوقف من أجلها المصحف .

لقد حاول السلطان فرج بن برقوق أن يحيط الخانقاه بمظاهر الحياة ، فبنى مايشبه مدينة جديدة ، لكنه مات قبل أن يدرك غايته كلها ، فخرب ماقام بإنشائه بعد وفاته، ولم يبق من تلك المبانى سوى هذا الأثر الجليل من العمارة .

وهذا الأثر النفيس من الفن الزخرفى ، وفن الخط العربى متمثلا فى هذا المصحف الشريف .

مصحف السلطان فرج بن برقوق ، رحمه الله .

مصحف الملك المؤيد..

يقول ابن إياس فى كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» فى أحداث عام ٨٢٠ هجرية :

«وفيه كمل عمارة إيوان جامع السلطان الذى أنشأه السلطان بباب زويلة ، وكان الشاهد على عمارته الأمير ططر ، أحد الأمراء،فلما كمل الإيوان القبلى، خطب فيه ، وأقيمت صلاة الجمعة فى غيبة السلطان ، وكان أول من خطب بها الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، المقدسى الشافعى ، أحد نواب الحكم، نيابة عن القاضى ناصر الدين بن البارزى كاتب السر ، فإن السلطان جعل خطابة هذا الجامع باسمه ، وكان من جملة ماصرف على الجامع إلى هذا التاريخ قبل أن يكتمل، خمسين ألف دينار وذلك خارجا عما أهدى إليه من المباشرين، من أخشاب ورخام وغير ذلك» .

ثم يقول ابن إياس فى حوادث نفس العام.

«وفيه كملت عمارة الجامع المؤيدى ، وأوقف عليه الأوقاف الجليلة من بلاط ومسقفات ، وقرر به صوفة وحضورا من بعد العصر، ورتب لهم جوامك وخبزا فى كل يوم ، وقرر فى خطابته القاضى كاتب السر ناصر الدين بن البارزى ، وقرر فى مشيخته الشيخ شمس الدين ثم إن السلطان نزل إلى هناك وأقام إلى بعد العصر وأمر السلطان أن تملأ الفسقية التى فى صحن الجامع سكرا ، فملئت ووقف رءوس النوب يغرقون السكر على الناس بالطاسات وأخلع فى ذلك اليوم نحوا من خمسمائة خلعة ، على المشد ططر ومماليكه ، وعلى جماعته من المهندسين وأرباب الصنائع الذين كانوا به من بنائين نجارين ودهانين ومرخمين وغير ذلك ، وحضر القضاة الأربع وأعيان الناس من الأمراء والمباشرين وأعيان العلماء فلما كان وقت صلاة الجمعة خطب ابن البارزى خطبة بليغة وهو لابس السواد وكان يوما مشهودا لم يسمع مثله .

إن ابن إياس لم يذكر شيئا عن مصحف السلطان المؤيد الذى خصصه لمسجده ولكن تاريخ وقف المصحف وتاريخ الانتهاء من بناء المسجد متزامنان إذن هذا المصحف كتب خصيصا بمناسبة انتهاء عمارة المسجد.

وفى عام ١٤١٧ ميلادية أى العام الذى انتهت فيه عمارة المسجد . أوقف السلطان المؤيد شيخ حموى ، مصحفاكريما ، كتبه موسى بن إسماعيل الحجينى ، وهذا المصحف موجود الآن فى دار الكتب المصرية ، وهو كبير الحجم، تكثر فيه زخرفة الصفحة الاستهلالية ، به حليات على شكل مشكاة رسمت داخلها زهور نباتية، وأهلّة متناسقة الألوان فى المربع المركزى الذى يحيط به إطاران متداخلان والذى نجد فوقه وتحته المستطيلين اللذين يضمان الآيات القرآنية المكتوبة بخط كوفى، أما السور القرآنية فمكتوبة بالخط الثلث ويحتضن الجميع إطار ضيق يأتى بعده

الإطار الخارجى الذى يحيط بالصفحتين المتقابلتين . والمصحف بحالة جيدة وألوانه زاهية كأنها رسمت بالأمس .

فى دار الكتب المصرية يوجد أيضا مصحف آخر للسلطان المؤيد ، أوقفه فى سنة ١٤٢١م (٨١٥ هجرية) ولكنه غير كامل ، والجزء المعروض منه ، ينتهى بسورة الكهف أى يحتوى على حوالى نصف القرآن الكريم . وهذا المصحف الجميل محلى بالذهب.والألوان الزاهية ، والنقوش البديعة الرائعة عند أوائل السور المكتوبة بالخط الكوفى المملوكى ، وفى أوله وآخره وبآخر الآيات وبالهامش منقوش بنقش جميل ومجدول بالذهب أيضا .

وكلا المصحفين يتميزان بجمال الزخرفة ، والألوان المتناسقة فى هدوء والزخارف التى تكاد تقترب من شكل المنمنمات الدقيقة . وقد كتب هذان المصحفان فى زمن اتسم بالاستقراء النسبى ، إذ كان السلطان المؤيد من سلاطين المماليك العظام، فقد حكم منذ سنة ٨١٦ هجرية ، وحتى عام ٨٢٢ هجرية ، أى حوالى ثمانى سنوات وهذه مدة طويلة نسبيا فى حكم السلاطين المماليك ، كان يعرف باسم الخاصكى المجنون. وهو الثامن والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الرابع من سلاطين المماليك الجراكسة ، بويع بالسلطنة بعد خلع الخليفة العباسى فى يوم الاثنين مستهل شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة، وهكذا يكون المصحف الأول الذى نراه فى دار الكتب المصرية قد أوقفه السلطان المؤيد بعد أربع سنوات من توليه الحكم وفى هذه السنة تم بناء مسجد المؤيد بجوار باب زويلة، أحد أبواب القاهرة وفى هذا المسجد كانت توجد عدة مصاحف للسلطان المؤيد لم يصلنا منها إلا هذين المصحفين. وعلى هذا يكون هذا المصحف قد أوقف من قبل السلطان بمناسبة انتهاء البناء فى مسجده .

أما المصحف الثانى الموجود فى دار الكتب ، والذى يحمل اسم الملك المؤيد فيرجع تاريخه إلى سنة ٨٢٥ هجرية ، ويكون بذلك قد كتب فى آخر سنة حكم خلالها السلطان المؤيد (٨٢٤ هجرية) وانتهى العمل فيه بعد موت السلطان ويبدو أن السلطان قد أوقفه خلال فترة مرضه تقربا إلى الله تعالى، إذ تذكر لنا المراجع التاريخيه أنه مرض مرضا شديدا فى آخر حياته، وكانت مدة سلطنة الملك المؤيد ، شيخ بالديار المصرية والبلاد الشامية ، ثمان سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام ، وكان عمره عندما مات خمس وستين سنة ، يقول ابن إياس :

وكان ملكا جليلا ، كفء للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة وافر العقل بسيط اليد بالعطايا ، مديد الباع فى الحرب . خفيف الركائب ، سريع الرضا ، ومصارعا وقت الغضب طويل الروح عند المحاكمات، كامل الهيبة .

مصحف السلطان شعبان..
ومصحف السيدة خوند بركة والدته..

صاحب هذا المصحف هو السلطان شعبان تولى الحكم وعمره اثنى عشر عاما ، اعتلى العرش فى العاشر من شعبان ٧٦٤هـ (٣٠ مايو ١٣٦٣م) وفى عصره هجم الفرنجة على موانئ الدولة المملكية مثل الإسكندرية وطرابلس فى الشام فى سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦٦ م) ظهرت سفن ملك قبرص مع سفن من البندقية وجنوة وردوس أمام الإسكندرية وهاجموها بالفعل، ونهبوها ولكن الجيش المصرى أقبل، واستطاع أن يأسر خمسة آلاف أسير منهم ، وقد انتقم جيش السلطان شعبان من هذه الغارات بالإغارة على ملكة أرمينية التى كانت حليفة لملك قبرص ، وفتحوا مدينة سياسى وسيس وأسروا ملك أرمينية نفسه وحملوه إلى القاهرة .

وكان السلطان شعبان صغيرا ، وكان المدبر الحقيقى للحكم هو الأمير يلبغا الذى كان يطمح خفية فى الملك ، وفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧) ثار مماليك يلبغا عليه لقسوته، ويبدو أنه تلقى تحذيرا فى الوقت المناسب فهرب إلى إحدى جزر النيل واعتصم بها. وأكره المماليك الثائرون السلطان شعبان أن يكون على رأسهم . ولم يلبث يلبغا أن قتل ، وقد قوى مركز السلطان شعبان إلى حد مابعد وفاة يلبغا ، وأحرز نجاحا مؤقتا فى الجنوب أى فى النوبة عندما اعترف ملك النوبة بسلطان مصر وسيادته على النوبة .

. . وفى عام ١٣٦٩ ميلادية ، تم كتابة مصحف كريم ، يعد آية فى الفن الإسلامى ، وبعد إتمامه أقيم احتفال كبير قرأ فيه القرآن حضره السلطان شعبان الذى أوقف هذا المصحف للقراءة فى مسجده . وبرغم مرور أكثر من ستمائة عام على كتابة المصحف ، فإن توالى القرون لم يستطع أن ينل من زخارفه الجميلة ، وخطه البديع ، والمصحف معروض الآن فى دار الكتب المصرية ، أول مايلفت نظرنا أن الصفحة الافتتاحية فى هذا المصحف تختلف زخرفتها عن أسلوب زخرفة بقية المصاحف الأخرى ، إذ تتباين الزوايا التى تبرز فى محيط الأشكال الهندسية ، وحلت محلها أنصاف الدوائر المتتابعة ، وبرزت الرسوم النباتية ، واتسع المربع المركزى ، وضاق المستطيلان العلوى والسفلى اللذان كتبت بهما آيات قرآنية بالذهب الخالص ، ونرى إطارا واحدا الأجزاء الثلاثة ، ثم إطارا خارجيا عريضا يجمع الصفحتين المتقابلتين المتماثلتين معا ، دون أن تكون هناك حلية هامشية، وفى الصفحات التالية تتنوع الزخارف تنوعا رائعا .

ويوجد مصحف آخر من عصر السلطان شعبان، خاص بالسيدة خوند بركة والدته ، وهو محلى بالذهب واللازورد ، مكتوب بالخط النسخ الجميل .

وفى سنة ٧٧٤هـ ، أى السنة التى كتب فيها مصحف السلطان شعبان وقعت عدة حوادث يذكر منها ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » :

عودة الحجاج فى شهر محرم بعد أن قاسوا الحر والعطش فى الطريق وتعيين الامير الجاى اليوسفى زوج ام السلطان (زوج السيدة خوند بركة صاحبة المصحف الموجود باسمها فى دار الكتب) أتابك للعسكر أى قائدا للجيش .

وأمر بتعيين الأمير كجك أميرا للسلاح ، وفى شهر ربيع الأول قدمت هدية أمير الشام إلى السلطان واشتملت على أسدين كبيرين ، وضبع ، وأربعين كلبا سلوقيا ، وأربعين فرساً وخمسين بقجة ضمنها قماش ، وقطاران بخاتى، لكل واحد منهما سنمان وستة قطر جمال ، وشقق حرير ملون ، وأربعة وأربعين هجينا ، وثلاثة قباقيب نساوية ملبسة بذهب ، مرصعة بفصوص ماس مثمنة وفواكه، وجلاويات شامية ، وأشياء كثيرة لاحصر لها .

وفى هذا العام أيضا توفى الشيخ العارف بالله تعالى بهاء الدين محمد بن الكازرونى . وكان منقطعا بزاويته التى بالروضة ، وهو المسجد المعروف بالمشتهى وكان رجلا صالحا من أولياء الله تعالى .

خوند بركة

وفى هذه السنة سنة ٧٧٤هـ التى كتب فيها مصحف السلطان فى شهر ذى القعدة ، مرضت خوند بركة أم السلطان، فتوعك من ذلك جسدها ، فطلعوا بها الروضة . فتزايد بها المرض ، فلما بلغ السلطان ذلك . نزل من القلعة وتوجه إلى نحو الأثار النبوى فزاره ، ثم نزل من هناك فى مركب وعدّى وطلع إلى القلعة . فاستمرت مريضة وهى بالروضة أياما .

فلما كان يوم الثلاثاء آخر ذى القعدة ، أشيع موتها فعدوا بها وهى ميتة من الروضة ، وطلعت جنازتها من الصليبة ، ومشى قدامها سائر الأمراء وحمل نعشها الأمراء المقدمين ، وكان قدامها كفارة على عدة حمالين، فلما وصلت إلى سبيل المؤمن، نزل السلطان من القلعة وصلى عليها وتوجهوا بها إلى المسجد الذى أنشأته فى التبانة فدفنت به . وفى هذا المسجد كان يوجد هذا المصحف الذى نراه اليوم فى دار الكتب المصرية .

يقول ابن إياس :

وكانت دنية خيرة فى سعة من المال ، ولها بر ومعروف ولاسيما مافعلته فى مدرستها من وجوه الخير ، وقررت بها حضورا وصوفة ، ومكتبا للأيتام ، وحوضا وسبيلا وبنت الربع المعروف بربع أم السلطان وبنت قيسارية الجلود التى بخط الدكن المخلق .

فلما ماتت كثر عليها الحزن والأسف من الناس ، فإنها كانت واسطة خير تشفع عند ابنها السلطان فى أصحاب الجرائم فلا يرد لها شفاعة .

ويقول ابن إياس :

ومن غرائب الاتفاق أن لما ماتت أم السلطان رثاها الأديب شهاب الدين أحمد المعروف بالأعرج السعدى بهذين البيتين :

فى مستهل الشهر من ذى الحجة

كانت صبيحة موت أم الأشرف

فالله يرحمها ويعظم أجره

ويكون فى فى عاشورا موت الأشرف

أكبر مصحف فى العالم

« . . الداخل إلى القاعة المخصصة لعرض المصاحف النادرة بدار الكتب القومية بالقاهرة ، يرى أول مايرى دولاب ضخم ، ارتفاعه حوالى ثلاثة أمتار ، جميع جدرانه من الزجاج ، داخل الدولاب مصحف ضخم ، يعتبر أضخم مصحف فى العالم من حيث الحجم ، والوزن ، إذ يبلغ طوله مائة وثمانون سنتيمترا ، وعرض الصفحة الوحدة منه مائة وثلاثون سنتيمترا ، أما وزنه فيتجاوز طنين ، إذ إن غلافه الخارجى من الفضة الخالصة المزخرفة والمشغولة بالذهب ، يقع هذا المصحف فى سبعة أجزاء ، وهو مكتوب بالخط النسخ ، وصفحاته من الجلد ، والذهب مستعمل فيه فى أجزاء مختلفة من صفحاته ووقفاته ، وله غلاف آية فى الإتقان والإبداع ، وقد أهداه إلى مصر الأمير نواب بهوبال أمير مقاطعة بهوبال فى وسط الهند ، عام ١٩٥٠ .

أما المصحف نفسه فمكتوب فى القرن الحادى عشر الهجرى أى منذ حوالى ثلاثمائة سنة .أما الغلاف فقد صنع بالهندسنة ١٣٢١هجرية ، أى فى بداية هذا القرن .

الغلاف الخارجى من الفضة الخالصة المؤكسدة ، وكله مشغول بنقوش بارزة من أوراق النبات والغصون المتقاطعة ، بحيث لايوجد سنتميتر واحد خال من النقوش الجميلة المتداخلة فى دقة رائعة . أما الصفحات الداخلية فمحلاة بعدة إطارات عريضة .

الإطار الأول تتخلله وحدات زخرفية مستوحاة من أوراق الشجر العريضة ، تتخللها الزخارف الهندسية الجميلة ، ثم شريط أحمر اللون ثم المساحة التى كتبت عليها السور ، وقد كتبت بخط ثلث كبير ، وتتسع الصفحة الواحدة لسبعة سطور ، ويحتوى كل سطر على ثلاث إلى

خمس كلمات من القرآن الشريف ، ويتخلل السطور ترجمة فارسية للقرآن الكريم مكتوبة بين سطرين منفصلين وبخط باهت لايكاد يرى .

الدقة والسمو

فى نهاية القاعة وداخل فاترينة عرض زجاجية ، نرى مصحفا صغيرا ، من أرق وأجمل مارأيت ، صفحاته من الورق لونها أصفر فاتح ويحيط بها إطار على شكل زاوية قائمة فيه أشكال زخرفية نباتية ، ولكن هذه الزخارف ليست هى الملفتة للنظر ، ولاتلك الزخارف الهندسية الجميلة التى توجد فى أعلى كل صفحة .

الملفت للنظر هذه الخاصية التى لانجدها إلا فى هذا المصحف ، إذ التزم كاتبه الفنان والخطاط محمد روح الله بن محمد حسين اللاهورى بكتابة المصحف كله فى ثلاثين ورقة ، تحتوى كل ورقة على جزء كامل من القرآن الكريم ، كما التزم بأن يكون أول كل سطر من السطور مبتدئا بحرف الألف ، ونلاحظ أنه كتب المصحف كله بقلم نسخ دقيق ، غاية فى الدقة والجمال ، وبحبر أسود ، فيما عدا حروف الألف التى تبدأ بها السطور . فقد كتبها باللون الأحمر ، والغريب أن كلمات السطور كلها متساوية فى المسافات والأحجام ، أى أن الكاتب لم يلجأ إلى مد حرف أو إعطاء كلمة حجما غير عادى لكى يبدأ كل سطر بكلمة تبدأ بحرف الألف ، كما أن عدد كلمات كل سطر تكاد تكون مساوية تماما لكل السطور الأخرى . دقة تبلغ حد الإعجاز ، كتب محمد روح الله بن محمد حسين اللاهورى هذا المصحف الشريف عام ١١٠٧ هجرية ، أى منذ حوالى ثلاثمائة عام هجرية ، ونستطيع أن نستشف شفافية الفنان وروحانيته من رقة الخط ودقته وجماله ممايضفى على شكل المصحف طابعاً خفيا رقيقا . يأخذ بالقلوب ونلاحظ أن الفنان لم يلجأ إلى شكل الفواصل التقليدية بين السطور والتى تتوسط الصفحات وتكتب فيها

أسماء السور مزخرفة محلاة ولكنه كتب أسماء السور على نفس السطور ،وبخط نسخ أيضا ولكن اللون فقط هو الذى يختلف بدلا من لون الحبر الأسود استخدم لون الحبر الأحمر ، ولم يخل ذلك بما التزم به وهو جعل بدايات السطور كلمات تبدأ جميعاً بحرف الألف .

حقا ، إنه آية فى الإعجاز ، والدقة والجمال ، وآية حية على مدى مايمكن أن يوحى به القرآن الكريم من قدرة على الإلهام . والإتيان بالمستحيل ، ولكم وددت أن تقوم إحدى هيئات النشر بتصوير هذا المصحف الذى لامثيل له ، وطباعته بنفس ألوانه ، وشكله ونشره .

مصاحف تركية فى القاهرة

. . فى مكتبات العالم مجموعات من المصاحف التى كتبت ونقشت فى فارس وتركيا ، وفى دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة من المصاحف التى كتبت وذهبت فى القرون السادس والسابع والثامن والتاسع عشر ، تعد سجلا غنيا وتراثا خصبا لمرحلة هامة من مراحل تطور الفن الإسلامى ، ويوجد قسم كبير من هذه المصاحف فى مكتبة طلعت باشا ، التى أهداها إلى دار الكتب ، مصاحف مختلفة الأحجام ، بعضها ضخم يصعب على عدة رجال حمله ، وبعضها لايتجاوز حجمه راحة اليد .

المصاحف العثمانية

والفن العثمانى يتجلى واضحا فى هذه المصاحف من خلال الخط العربى الموروث عن الأمم الإسلامية التى أخضعوها لسيادتهم ، لقد قلدوا كل ماكان معروفا من صور الخط العربى ، الكوفى ، والأقلام الستة التى كانت شائعة فى العراق عهد الخليفة المستعصم بالله ، النسخ ، والمحقق ، والثلث ، والتوقيع ، الريحانى ، والرقعة ، وفى كتابة المصاحف نبغ عدد

من الخطاطين العثمانيين منهم أسعد يسارى أفندى ، وعلى بن يحيى الصوفى ، وحمد الله الأماسى من القرن الخامس عشر وأحمد قره حصارى من القرن السادس عشر ، وحافظ حسن من أواخر القرن السابع عشره وأوائل القرن الثامن عشر وإسماعيل أفندى من أواخر القرن الثامن عشر ، وأحمد شفيق بك من القرن التاسع عشر .

وعلى بن يحيى الصوفانى ذاع صيته فى زمن السلطان محمد الفاتح ، وقد كتب عدة مصاحف ، وإليه تنسب الكتابة الجميلة الموجودة فى مسجد الفاتح باسطنبول ، أما حمد الله الأماسى ، فيروى عنه أن السلطان كان يحترمه ويجله ويحمل له الدواة عند الكتابة .

وقد سأله ذات يوم عما إذا كان من الممكن إنشاء طراز خاص للخط العربى يختلف عن الطرز المألوفة ، فسكت ولم يجب ، عاد إلى بيته حيث اعتزل الناس أربعين يوما عكف فيها على دراسة وتأمل كافة أنواع الخط العربى ، وطور بعضها ، وفى نهاية الأربعين يوما كان قد خلق أشكالا جديدة من الخط ، وحمد الله الأماسى قصر نشاطه على كتابة النصوص الدينية ، وكان يكتب البسملة بالخط الثلث ، أما الآيات فكان يكتبها بالخط النسخ .

أما أحمد قره حصارى فقد كان تلميذا لحمد الله الأماسى ، ونستطيع أن نرى خطه الجميل فى المصحف الكبير الذى كتبه للسلطان سليمان القانونى ، أما المصاحف التى نسخها حافظ عثمان تعد مثلا أعلى يحتذى به فى الخط النسخى أو المحقق .

وفي القرن الثامن عشر ظهر إسماعيل أفندى الذى أتقن فن الخط إتقانا تاما ، حتى أن كثيرونَ من الناس إذا رأوا المصاحف التى كتبها ظنوها من خط حمد الله الأماسى أشهر خطاطى المصاحف العثمانية .

وفى المسجد الجامع بمدينة بروسه ، نقرأ على أحد الأعمدة عبارة «قال الله تعالى عز وجل» ، يستوقفنا خطها الجميل الذى كتبه أحمد شفيق بك ، الخطاط المشهور ، والذى عاش فى القرن التاسع عشر . .

ويجب أن نذكر أن السلاطين العثمانيين أنفسهم ساروا على نهج بعض سلاطين العثمانيين مثل حضد الدولة البويهى ، والسلطان أحمد الجلانرى والشاه طهماسب الأول ، والسلطان الجايتو ، وذلك بأن كل منهم كان ينسخ المصحف الشريف بخط جميل .

تذهيب المصاحف

شأن المصاحف التى كتبت فى مصر المملوكية . . نجد فى المصاحف العثمانية أن الذهب يستعمل فى رسم فواصل الآيات ، والسور ، ورسم بعض الزخارف فى هوامش بعض المصحف ، ولكن براعة المذهبين كانت تتركز فى زخرفة الصفحتين الأولى والثانية من المصحف الشريف .

وعنى العثمانيون عناية عظيمة بفن التذهيب ، واشتهر منهم عدد كبير ، نذكر منهم أحمد بن حاج محمود آق سراى ، وهو من مدينة قونية وقد زخرف وذهب عدد من المصاحف .

وفى القرن السادس عشر ، كان للمذهبين فنان مشهور اسمه كراميمى ، يعيش فى قصر السلطان سليمان القانونى .

وفى القرن السابع عشر نجد حسن شلبى الأحدب الذى علا نجمه فى التذهيب ، وقد أسهم فى تذهيب معظم المصاحف التى كتبها الخطاط الكبير حافظ عثمان ، وكان يوقع بعبارة «ذهبه الفقير حسن» .

ويبرز فى القرن الثامن عشر ، الفنان على اسكدار ، وقد اشتهر بأعماله فى تذهيب عدد من المصاحف الشهيرة ، وفى متحف طوبقا بو باسطنبول أمثلة كثيرة من أعماله .

تجليد المصاحف

تتلمذ العثمانيون على المصريين والإيرانيين فى فن تجليد الكتب ، من هنا كان فن تجليد المصاحف العثمانى استمرارا لما كان عليه الحال عند الأمم الإسلامية قبل قيام الدولة العثمانية .

استخدموا صفائح الذهب أو الفضة فى كسوة الأغلفة الخشبية للمصاحف ، وزينوها بالأحجار الكريمة ، واستخدموا الجلد فى تجليد المصاحف أيضا ، وكان لون الجلد يتراوح بين الأحمر القان أو الأحمر القاتم ، أو الأصفر ، أو الزيتونى ، وابتكروا طريقة أخرى استبدلوا فيها الجلد بالحرير ، وبالمخمل المطرز بالخيوط المختلفة الألوان .

فى عصر السلطان سليمان القانونى اشتهرت بفن التجليد أسرة كانت تعيش فى اسطنبول تذكر من أفرادها محمود شلبى ومصطفى شلبى .

وفى عصر السلطان محمد الرابع أى من النصف الثانى من القرن السابع عشر وصل إلينا غلاف مصحف معروض فى متحف الفن الإسلامى فى اسطنبول ، والمصحف منسوخ عام ١٣٠٧ هـ - ١٦٦٥م ، ويتجلى لنا فى زخرفة الغلاف تقدما واضحا إذ نلاحظ أن الزخرفة قد زادته عن ذى قبل لاسيما الزوايا الأربع ، أما المتن فقد ظل خاليا من الزخرفة إلا فى العروة الوسطى التى اتخذت هنا شكلا جديدا على هيئة اللوزة ويخرج من طرفيها العلوى والسفلى دلايتان بهما زخارف نباتية جميلة .

لقد عنى العثمانيون بفن كتابة وتذهيب وتجليد المصاحف ، وبلغت عنايتهم بها الغاية القصوى ، وقد بلغ إكبارهم وتقديسهم لكتاب الله شأنا رفيعا ، يكفى أنه عرف عنهم أنهم إذا رأوا ورقة عليها كتابة عربية ملقاة فوق الارض ، ينحنون على الفور ، ويحملونها إلى مكان مرتفع ، أيا كان مضمون هذه الورقة .

مصاحف إيرانية

« .. كان الفرس يكتبون بالخط الفهلوى ، نسبة إلى فهلا - قبل الإسلام ، وبعد أن فتح العرب بلاد الفرس ، وانتشر الدين الإسلامى استبدلوا الخط الفهلوى بالخط العربى ، وعرف عندهم نوع من الخط العربى اسمه« التعليق» ذكره ابن النديم فى كتابه «الفهرست» وكان هذا الخط نتيجة مزاوجات لأحد الأقلام العربية ، وأشهر من وضع قواعده عندهم هو الخطاط أمير على التبريزى ، كذلك ذكر ابن النديم فى الفهرست أنه كان للفرس سبعة أنواع من الخطوط ، فخط يقال له «دين دبيريه » وهى ٣٦٠ حرفا ، يكتبون بها الفراسة والزجر وخرير الماء وطنين الآذان وإشارات العيون والديماء ، والغمز ، وكتابة ثانية يقال لها «كسنك» وكتابة ثالثة يقال لها «بنم كج» ورابعة تسمى «شاه دبيريه» وكتابة الزاسل ، وكتابة تدعى ، «راز سهريه» ومن أشهر خطاطى الفرس نجم الدين أبو بكر الراوندى ، وقيل إنه كان يجيد سبعين نوعا من الخطوط ، وقد بلغت فنون الزخرفة والرسم عندهم أوجها فى القرن التاسع الهجرى ، وممن ذاع صيته فيها أمير على تبريزى وسلطان على المشهدى فى همراة ، وفى تبريز نشأت مجموعة من الرسامين والخطاطين كما تشهد بذلك المخطوطات المصورة ، واشتركت فيها مدرسة شيراز التى تعتبر أقل درجة من مدرسة تبريز .

وانعكس هذا الرقى على فن كتابة المصاحف فى إيران ، وكانت المصاحف تكتب باللغة العربية ولازالت ، ويتخلل سطور الكثير منها ترجمة باللغة الفارسية فى خط أقل وضوحا من الخط الأصلى ، ويوجد بدار الكتب المصرية عدد كبير من المصاحف التى كتبت فى فارس ، منها مصحف فى قاعة عرض المصاحف الرئيسية ، ملون بالذهب واللازورد ، ومجدول بالذهب المشعر وعليه أربعة تفاسير للقرآن الكريم ،

منها تفسير باللغة الفارسية ، وتفسير البيضاوى المعروف ، والمصحف هدية من أمير بخارى .

وقد ذكر ابن النديم فى كتابه الفهرست بعض التفاصيل عن أسماء المذهبين فى القرن الرابع الهجرى ، وتجد عدة تفصيلات عن بعض المذهبين الإيرانيين ، وقد أخذ الإيرانيون المسلمون عن العرب طرق الخط والتذهيب ثم أضفوا عليها طابعهم الخاص ، وقد ذكرت عدة مصاحف شهيرة من العصور القديمة ، منها مصحف مكتوب فى سجستان سنة ٥٠٥ هجرية ، ويوجد مصحف فارس فى متحف فيلادلفيا مكتوب عام ٥٥٩هجرية ، وثالث فى مجموعة جستربيتى مؤرخ سنة ٥٨٤ هجرية ، كما توجد أجزاء أخرى من مصاحف سلجوقية جميلة فى مكتبة جستربيتى ، وتوجد مصاحف فارسية إخرى فى متحف سالارجنك بالهند ، ويحفل المتحف الوطنى فى طهران بمجموعة نادرة من المصاحف الفارسية ، كذلك فى ضريح الإمام رضا ، وضريح الإمام على بالمشهد فى العراق ، وفى متحف المتروبوليتان ، والمتحف البريطانى بلندن ، ومتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، ومن المصاحف الفارسية الشهيرة ذلك المصحف الموجود بدار الكتب المصرية ، وقد كتبه الخطاط الفارسى عبد الله بن محمد ، فى همدان سنة ٧١٣هجرية ، ومصحف بخط حافظ إبراهيم المولى مكتوب فى سنة ١١٩٠ هجرية ، ومصحف بخط محمد خواجه زادة ، مكتوب فى سنة ١١٦١ هجرية (١٧٤٨ ميلادية) وتوجد فى دار الكتب المصرية مجموعة مصاحف طلعت ، ومجموعة مصاحف تيمور باشا ، وكلا المجموعتين يوجد بهما عدد من المصاحف الفارسية الجميلة .

ويلاحظ أن الزخارف النباتية تغلب على الزخرفة المستخدمة فى المصاحف الفارسية ، كذلك فإن الألوان دقيقة جدا ، وبالغة الشفافية ،

وتحفل الكتابة بزخارف من عنصرين ، الأول يتضمن العنصر الخطى ، والثانى عنصر زخرفى بحت ، ويزدحم عنصر الزخرفة هذا بزخارف نباتية أو هندسية فى الفراغات بين الحروف المكتوبة وماحولها دون إن تختلط بعنصر الحروف ، وتتنوع هذه الزخارف ، فهى تارة أشبه بفرع الغصن الذى يحتضن هيئة الحروف ، وتارة أخرى تكون شبيهة بأطراف الأوراق النباتية وقد تكون فروعا كثيرة الالتواء مورقة تتعلق الكتابة فوقها .

ومن أشهر المصاحف التى كتبت فى إيران «ربعة أو لجايتو» وقد سمى بذلك لانه مقسم إلى ثلاثين جزءا مستقلا ، كل منها منفصل عن الآخر ، كان القراء يتقاسمونها فيما بينهم ليقرأوا القرآن كله معا ، ثم يجمعهما بعد ذلك صندوق واحد ، وكان أولجايتو ثامن سلاطين الدولة الأيلخانية بإيران ، وقد كلف عبد الله بن محمد بن محمود الهمدانى بنسخ هذا المصحف فأتمه عام ١٢٨٤م . وقد كتبت هذه الأجزاء الثلاثون بالمداد الذهبى المشعر بالمداد الأزرق وأحيطت سطورها بالجداول والزخارف الذهبية ، ويتصدر كل جزء لوحتان منقوشتان بالذهب ذات زخارف استهلالية هندسية تتداخل فيها الدوائر والأشكال الخماسية والنجوم ، وهذه الربعة انتقلت إلى مصر ، وأوقفها سيف الدين يكتمر ساقى الملك الناصر محمد بن قلاوون على القرافة الصغرى المجاورة لمقبرة الملك الظاهر ، وتوجد حاليا فى دار الكتب المصرية .

إن الاستعراض السريع للمصاحف الفارسية التى وصلت إلينا تكشف عن واحدة من أرفع مستويات الفن الإسلامى الذى نما وازدهر فى أرض غير عربية ، وكانت الطاقة الروحية المحركة للفنانين ديننا الإسلامى الحنيف» .

متحف حى للآثار الإسلامية

(. . شارع عربى الشكل والمضمون . هو عصب القاهرة القديمة ، وشريانها الرئيسى ، لايمكن للعين أينما ولت فيه إلا أن تقع على أثر عربى «إسلامى» شامخ ، تعاقبت عليه عصور مختلفة ، وأزمنة متباينة والشارع ممتد لم تجن الحياة منه لحظة واحدة ، ولم يتحول ركن فيه إلى أطلال ، منذ أكثر من ألف عام تتدفق الحياة فى شارع المعز لدين الله ، أو شارع بين القصرين كما كان يسمى فى بعض الفترات ، أو قصبة القاهرة كما أطلق عليه المقريزى ، مؤرخ مصر والقاهرة .

والبداية فى شارع المعز لدين الله ليست مكانية فقط ، وإنما زمنية أيضا ، أول أثر يقابلنا عند دخولنا إلى الشارع من باب الفتوح الذى كان يمثل حدود القاهرة الشمالية ، هو مسجد الحاكم بأمر الله ، وهو أيضا أقدم أثر فى الشارع ، وأقدم مبنى أقيم فيه وبقى مع الزمن .

أول مايلفت نظرنا فى مسجد الحاكم بأمر الله مئذنتاه اللتان شيدتا على شكل منارة الإسكندرية التى هدمها الزلزال واندثرت ، كأن كل حجر منهما يمثل حدثا تجمد من العصر البعيد تدركنا رهبة إذ ندخل إحداهما ، السلم حلزونى ، فوق درجاته نقوش فاطمية تآكلت . تدور السلالم حول جسم اسطوانى ضخم من الحجر إنهما مسكونتان الآن بالوطاويط ، وفى الليل تطير منه إلى بيت السحيمى

مشكلة غمامة سوداء متحركة ، إنهما أقدم مئذنتين فى القاهرة ، وفى العمارة العربية بمصر .

المسجد فسيح بطلت منه شعائر الصلاة ، قسم منه يستخدم كمقر لمدرسة السلحدار الابتدائية . بدأ بناءه الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، ثم أتمه ابنه الحاكم بأمر الله الذى يحيط بسيرته الغموض إذ منه خرج إلى الخلاء ليرصد النجوم ، ولكنه لم يعد يقول التاريخ انه قتل ، ولكن أتباعه قالوا إنه خرج فى غيبة لها نهاية ، وإنه سيعود ، ولازال بعضهم ينتظره فى الشام وهم طائفة الدروز . بين ارجاء المسجد نلمح بعض الهنود ، إنهم أفراد طائفة البهرة التى تعيش فى الهند ، وهم من سلالة الفاطمين ، رصد سلطانهم مليون دولار لإصلاح المسجد ، وقد أتموا تجديده وإصلاحه بحيث عادت شعائر الصلاة إليه بعد انقطاع دام قرون عديدة .

إن مسجد الحاكم بأمر الله ليس الوحيد الذى يحتويه شارع المعز لدين الله الفاطمى ، هناك مساجد أخرى تمت إلى حقب مختلفة من العصر الفاطمى ، أولها مسجد الأقمر القابع فى حزن على مقربة من شارع الخرنفش ، مقر تجار الخيش الآن ، إنه مثقل بمئذنة نحيلة تعود إلى العصر العثمانى ، بنيت فيه ، لكن لاعلاقة لها بطرازه المعمارى ، عانى كثيرا من إيواء الذين تهدمت منازلهم ، انهارت البيوت القديمة المحيطة به ، المسجد التالى هو مسجد الفكهانى على رأس حارة خوش قدم ، أما المسجد الثالث فيقوم خارج باب زويلة ، نهاية الطرف الآخر لشارع المعز لدين الله ، إنه مسجد طلائع بن رزيك ، الذى جددته هيئة الآثار العربية فى الثلاثينيات ، وهنا نلاحظ أن الشارع يبدأ بمسجد الحاكم بأمر الله ، أقدم مساجد القاهرة ومن أوائل المساجد التى بنيت فى بداية العصر الفاطمى (الثانى بعد الأزهر) ، وينتهى بمسجد الصالح الطلائع الذى بنى فى أواخر الدولة الفاطمية ، البداية والنهاية على المستوى التاريخى . والمستوى المكانى . .

أقدم بيت عثمانى

نمضى فى الشارع . نوغل فى المكان ، وفى الزمان أيضا ، بعد أن ينتهى سوق الليمون تطالعنا بوابة قديمة ، ذات زخارف عربية ، إنها بوابة حارة بيرجوان ، فى هذه الحارة ولد وعاش المؤرخ الكبير تقى الدين أحمد المقريزى صاحب الخطط المشهورة ، والمؤلفات العديدة فى تاريخ مصر عامة والقاهرة خاصة . فى مواجهته حارة الدرب الأصفر ، وكان فى موشع هذه الحارة المذبح الخاص بقصور الخلفاء الفاطميين . كان ينحر فيه ألف رأس من العجول يوميا ، وألف رأس من الأغنام ، وهذا يوضح إلى أى حد كان حجم الحرس والخدم فى القصور الفاطمية كبيرا وضخما ، فى حارة الدرب الأصفر أحد بيوت القاهرة القديمة ، أو أشهر بيت وصل إلينا فى العصر العثمانى ، إنه بيت السحيمى ، اسمه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى ، فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكان من علماء الأزهر ، ثم انتقلت ملكيته إلى أسرة آل السحيمى ، ثم آلت ملكيته إلى الدولة ، إنه بيت بسيط ، جميل ، فيه عذوبة وسماحة جو الأسرة المصرية ، تمضى غرفه كاللحن الهادئ العذب وتتدرج فى انتظام ، كل منها تؤدى إلى الأخرى ، نخرج من بيت السحيمى لنواصل السير فى شارع المعز لدين الله ، أمام حارة الخرنفش نرى «سبيلا» ، من أجمل وأرق مافى العالم العربى ، إنه سبيل عبد الرحمن كخذا ، ونقترب من شارع بين القصرين ، هنا ، كان يقوم ميدان كبير يقع بين القصر الغربى الصغير والقصر الشرقى الكبير زمن الفاطيين ، وكان يتسع لعشرة آلاف جندى أثناء العروض . ومن هنا جاء اسمه : بين القصرين ، نرى قصر الأمير بشتاك ، ومجموعة نادرة من الآثار العربية تنتمى إلى العصر المملوكى ، ومسجد المنصور قلاوون ، تجاوره قبة دفن تحتها شيدت على نمط قبة الصخرة بالمسجد الأقصى ، وفى نهايتها تقوم المئذنة الرشيقة المكونة من

ثلاثة طوابق ، وبجوار القبة مسجد الناصر محمد بن قلاوون ، ويطالعنا باب رخامى غريب الشكل ، إنه باب المسجد ، كان فى الأصل بابا لكنيسة عطا ، وعندما انتصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الصليبيين وهزم آخر معاقلهم فى عكا ، قام بفك باب كنيستها ، ونقله إلى القاهرة ، وجعله بابا لمسجده كشاهد على نصره ، بجوار هذه المجموعة بيمارستان قلاوون ، كان مستشفى ضخما أقامه المنصور قلاوون ، وكان يضم أقساما عديدة لعلاج الأمراض المختلفة ، واحتوى على مكتبة طبية ضخمة ، وضم بين رجاله فرقة موسيقية كانت تعزف الأنغام الرقيقة لتهدئة المرضى والترويح عنهم ، كذلك مجموعة من المقرئين يتلون آيات القرآن للتخفيف عن المرضى وبث السكينة فى نفوسهم ، ويعد هذا من أقدم أشكال العلاج النفسى فى العالم ، والطريف أن السلطان قلاوون خصص جزءا من الوقت الخاص بالبيمارستان لشراء القمح والحبوب ونثرها فوق القبة وسطح البيمارستان لإطعام العصافير والطيور .

فى مواجهة المجموعة قبر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وفيه ترقد أيضا المرأة الشهيرة التى حكمت مصر ، شجرة الدر .

وبجوار المجموعة الأثرية لقلاوون ، مسجد الظاهر برقوق ، الذى تولى السلطنة سنة ٧٨٤ هـ ، وكان كما وصفه كثير من المؤرخين شجاعا محبا للفروسية ، ويعتبر مسجده من أول المنشأت المعمارية فى عصر المماليك الجراكسة ، ويتكون من صحن مكشوف تتوسطه فسقية عليها قبة مقامة على ثمانية أعمدة وتحيط به أربعة إيوانات أهمها إيوان القبلة . وقد فرشت أرضه بالرخام ، وجانباه مؤزران بالرخام أيضا . وبصدره يوجد المحراب ، والسقف منقوش بنقوش عربية رقيقة يغلب عليها اللون الأزرق لون السماء . ومن مساجد العصر المملوكى فى شارع المعز أيضا مسجد الأشرف برسباى ، أحد سلاطين المماليك الأقوياء ، ويقوم عند مدخل

حارة الخمراوى سوق العطور والتوابل والأعشاب الطبية ، ومسجد المؤيد الشيخ الحموى الذى يجاور باب زويلة ، أما آخر مسجد عظيم شيد فى العصر المملوكى فهو مسجد السلطان قنصوه الغورى الذى شيده فى أواخر القرن الخامس عشر ، وبنى فى مواجهته القبة التى احتوت مدفنه ، لكنه لم يدفن بها ، ولم يعرف مكان جثمانه إذ أنه استشهد فى سهل مرج دابق شمالى مدينة حلب عندما خرج فى سنة ١٥١٧ م (٩٢٢ هـ)ليصد هجوم السلطان سليم العثمانى ، وقدر له أن يهزم وأن يتشتت شمل الجيش وأن يقتل ، ولا يعثر له على جثة . توجد عدة مساجد أخرى فى الشارع تعود إلى العصر العثمانى كمسجد السلحدار عند مدخل حارة بيرجوان ، وهناك سبيلان بنيا فى عصر محمد على باشا ، أحدهما فى مواجهة مجموعة قلاوون الأثرية ، والسبيل الثانى فى مواجهة مسجد المؤيد الشيخ الحموى .

الأســـواق

الأسواق جزء من تاريخ شارع المعز لدين الله . كان الشارع يمثل قلب المدينة ومركزها التجارى ومركز الحركة فيها . والشارع الذى تمر منه مواكب السلطان ، ومواكب النصر ، وقوافل الأسرى ، وموكب المحمل عند الخروج أو العودة منه . كان الشارع يمثل الجزء الأكبر من قصة القاهرة التى يصفها المقريزى بأنها أعظم أسواق مصر ، والتى كانت تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت ، وكانت الأسواق تبدأ من باب الفتوح ، وفى مايلى ذلك الباب كان يوجد سوق اللحم والخضر . كانت حوانيت القصابين تصطف متجاورة تبيع لحم الضأن والماعز ، وكان القصابون يلفون اللحم فى ورق الموز . ومكان هذا السوق اليوم سوق الليمون . ثم يلى ذلك سوق المرحلين ، ويختص بلوازم الجمال عند الرحيل ، وكان يقصد من سائر أنحاء مصر خصوصا فى مواسم الحج ، فلو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل

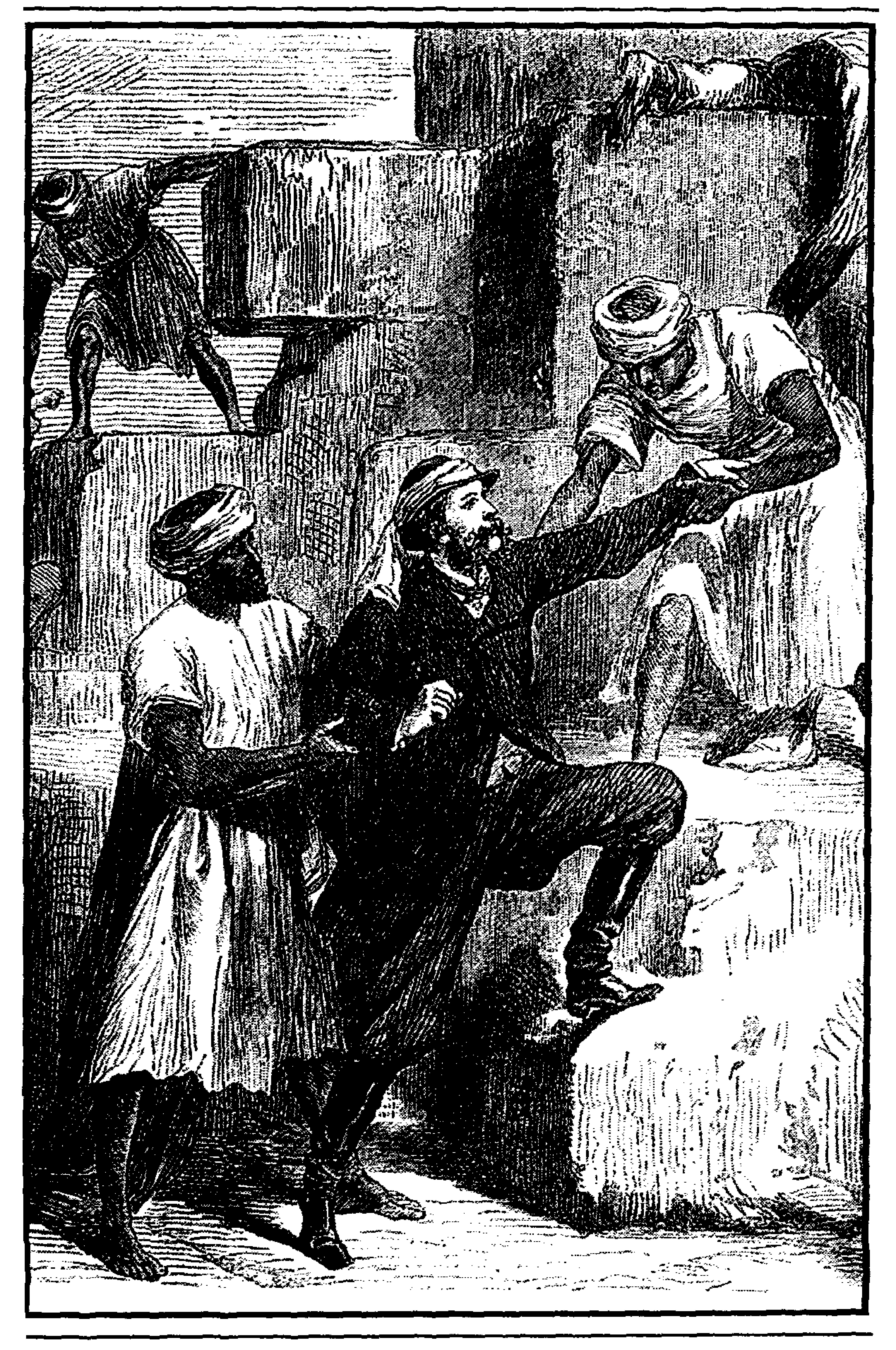
فى يوم واحد ماشق عليه ذلك . ثم نمر بسوق بيرجوان الذى كان يعرف باسم سوق أمير الجيوش ، وبه عدد كبير من الخبازين والجبانين والعطارين . وموضعه الآن تجار الأقمشة . وحول مسجد الأقمر كان هناك سوق الشماعين حيث تباع الشموع الضخمة التى تحمل فى المواكب . وكانت تباع به الفوانيس التى تضاء حتى ساعة متأخرة من الليل ، ويلى ذلك سوق الدجاجين ، وفيه الدجاج والإوز والطيور المتنوعة . وكانت تباع فيه عصافير محبوسة يشتريها الأغنياء ليعتقوها ، وقد تحول هذا السوق فيما بعد إلى مكان لبيع وشراءالسلاح ، ومكانه الآن مجموعة من الدكاكين تبيع لوازم المقاهى من نارجيلات وأكواب وأجهزة مختلفة . ثم سوق الحلى ، ولازال يحتل مكانه حتى اليوم ، ويعرف بسوق الصاغة ، ثم سوق الحلوى وسوق المهاميز وسوق السروجيين . أما أشهر سوق فى شارع المعز لدين الله سواء فى الزمن القديم أو العصر الحالى فهى خان الخليلى . كان فى الأصل عند بناء القاهرة مقرا لمقابر الخلفاء الفاطميين ، عرف باسم تربة الزعفران ، وفى عصر المماليك الجراكسة هدمه الأمير جهاركس الخليلى ، وبنى مكانه سوقا كان يجيىء إليه تجار العجم بالسجاجيد والتحف ، ثم جدده السلطان الغورى . ثم استمر مقرا لبيع التحف والصناعات الدقيقة ، ولازال حتى اليوم . أما سوق الغورية فيحتوى على عدد كبير من متاجر الأقمشة .

وتتفرع من الشارع أسواق عديدة ، التباكشية ، والفحامين ، والجودرية ، والقربية ، وينتشر فيه عدد كبير من أبناء الحرف المختلفة ، ولازال الشارع يضج بالحياة ، ويزخر بها ، لايعبق فقط بروائح التاريخ ، إنما يتجسد الزمن الحاضر فيه ، وينبض حيا .



أسرار الأهرام

« . . عندما زرت جامعة فرايبورج الألمانية سنة واحد وتسعين وتسعمائة وألف ، التقت بعدد من الأساتذة الألمان المتخصصين فى الدراسات الشرقية ، ثم قال لى الصديق الدكتور أسعد خير الله (لبنانى) رئيس قسم الأدب العربى أنه سيعرفنى بأستاذ لابد أننى سوف أهتم كثيرا بلقائه إذ أنه متخصص فى التاريخ المملوكى لمصر ويعد من أكبر الأساتذة الألمان فى هذا المجال ، وعندما قدمنى الدكتور أسعد إلى أولريش هرمان فوجئت به يتحدث بالعامية المصرية وكأنه أحد أبناء الجمالية أو بولاق ، كذلك زوجته المتخصصة فى دراسة المجتمع المصرى ، أمضيا عدة سنوات بالقاهرة أقاما خلالها فى الأحياء الشعبية ، بالطبع لازمت الدكتور أولريش طوال اليومين الذين أمضيتهما فى مدينة فرايبورج الجميلة الهادئة القريبة من الحدود السويسرية ، ولم نكف عن تبادل الآراء والخبرات حول العصر المملوكى الذى عايشته سنوات طويلة من خلال المؤرخين العظام المقريزى ، وابن تغرى بردى ، وشيخنا ابن إياس الذى عاش محنة انكسار مصر عام ١٥١٧ ميلادية بعد الغزو العثمانى والمقابل لحدث تاريخى آخر كنا شهوداً عليه ومازلنا نعيش آثاره ، أعنى هزيمة يونيو عام سبعة وستين ، وخلال حديثنا عن مراجع



العصر المملوكى ومصادره التى حقق منها أولريش هرمان عدداً هاماً منها : تاريخ كنز الدرر وجامع الدرر لابن أيبك الصفدى ، حدثنى عن كتاب نادر موضوعه أهرام مصر ، عنوانه ، أنوار علوى الأجرام فى الكشف عن أسرار الأهرام» تأليف الشريف أبى جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسى (توفى سنة ٦٤٩-١٢٥١) ، بعد عودتى إلى القاهرة أرسل إلىّ بحثا عن الكتاب باللغة الإنجليزية ، ثم مر حوالى عام فوجئت بعده بطرد فى البريد يحوى نسخة من الكتاب ، صدر ضمن سلسلة «نصوص ودراسات» ويصدرها المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية فى بيروت والذى يتخذ من اسطنبول مقراً له الآن . لم أرجئ قراءة الكتاب إنما بدأت على الفور .

مخطوطات الكتاب

حتى فك رموز اللغة الهيروغليفية القديمة لم تكن أسرار الأهرام والآثار الفرعونية الأخرى معروفة ، كان المصريون يطلقون عليها «البرابى» أى الأماكن الخربة المهجورة ، ولأن تلك الآثار كانت مجهولة الأصول فقد نسجت المخيلة الشعبية أساطير عديدة حولها ، بل قام المؤرخون القدامى بكتابة تاريخ متكامل أسطورى للعصور الفرعونية ، هذا التاريخ لاعلاقة له بالتاريخ الحقيقى الذى عُرفت تفاصيله فيما بعد والتى تكشفت بعد فك أسرار اللغة أو (القلم الغريب) كما أطلق المؤرخون والرحالة على النقوش الهيروغليفية . كنت أظن أن الكتاب الذى حققه أولريش هرمان يندرج فى إطار تلك الكتابات ذات الطبيعة الأسطورية ، إلا أننى بعد قراءته فوجئت أنى أمام نص يمكنك القول أنه يؤسس لعلم آثار عربى كان منتجا فى القرون التى اعتدنا تسميتها بالوسطى .

يذكر المحقق فى تمهيده أن المؤلف اسمه الشريف جمال الدين أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسى الذى وُلد بتاريخ ٢٦ رمضان ٥٦٨ هجرية- ١١ مايو ١١٧٣ ميلادية فى قرية فاو بصعيد مصر ، وتوفى

بتاريخ ١١ صفر ٦٤٩ - ٥ مايو ١٢٥١ بالقاهرة على الأرجح، اعتمد المحقق على تسعة مخطوطات موزعة فى أنحاء العالم، ويبدو من النص المطبوع والفهارس الموسعة الملحقة به مدى الجهد الذى قام به أولريش هرمان، فماذا نجد فيه ؟

العظات والمعانى

مثل كل المؤلفات القديمة لابد من مدخل، يسميه البعض بخطبة الكتاب، وفيها يعلن المؤلف عن هدفه بعد أن يحمد الله ويتوجه إليه بعبارات تكون متضمنة لمعنى قريب من موضوع الكتاب. هكذا تطالعنا السطور الأولى بما يلى :

«الحمد لله الذى جعل ماأبقاه من مشيَّد الأعلام، وشواخص المعالم والآثار، صُحفا نواطق وإن كانت صوامت بالعِبَر لأولى الأعتبار، وصلواته المتألقة الأنوار، المتدفقة الأنهار، على عَلم الهداية الوضاح المنار، محمد المختار، وعلى الخاص من آله المنتجين الأطهار، وعلى أصحابه المنتجين الأخيار، مامحا عنبر الليل كافور النهار، ورشفت الشمس رضاب الظل من ثغور زواهى زواهر الأزهار.»

وبعد أن يذكر المراجع التى استند إليها، يتحدث عن الباعث له والحافز لتأليف الكتاب، عندما طالبه بعض من علماء العصر بتأليف كتاب منفرد عن الأهرام :

«فأجبتهم إلى ما التمسوه على اعتلال من خاطرى وكلال من فكرى، وكُلول من ناظرى، والزمان غير المساعد والصديق غير المعاضد، والتزمت ذلك لأمور منها مايجب من خدمته لعظيم خدمته (يقصد العلامة جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى) ومنها ليعلم أيده الله أن معالِم العلم بمصر غير دائرة، وأنها من عالم بما دثر وغبر من معالمها غير شاغرة ومنها مايجب ويلزم كلزوم الفروض من القيام بأعباء حقوق الأصحاب والنهوض . .»

ثم يبدأ الفصل الأول بآيات من القرآن الكريم تدور كلها حول ضرورة التأمل فى أحوال الغابرين من الناس ، ويدور الفصل الأول كله حول هذا المعنى ، ثم يختمه قائلا :

«فأين أين الذين شيدوا ماتراه من البنيان ، أين أين سابور الذى دفع سُمك سماءالإيوان ، أين بانى القصر الأبيض بناحية المدائن من ذوى التيجان ، أين محتل محراب الدُمى مِن رأس غمدان أين مجازى السنمار على بناء الخورنق بترديته من علو المكَان .

أين ﴿ثَمُودَ الَّذين جَابُوا الصَّخْرَ بالوادِ﴾ وحجروا الحجر فيما غبر من الزمان ، أين عاد الأولى التى اتخذت المَصانع وملكت مابين عدن أبين وعمان ، فتعالى الله المنفرد بالبقاء العظيم الشان العلى القادر القاهر الملك الديَّان القائل وقوله الحق ﴿كل من عليها فان﴾ .

الاكتشاف..

فى الفصل الثانى يحدثنا عن الأعاجيب وحض العلماء للبشر على إدراك سرها ومحاولة فض غوامضها ويذكر قصة الرجل المغربى :

«فحدثنا ذلك الرجل الفاضل الواصل من المغرب إلينا ، الوافد ، الوارد علينا ، قال : كنت أختلف لطلب العلم والحكمة والأدب إلى عالم من أعلام علماء بلدى ، فخطر خاطر العزم على الحج بخلدى ، فودعته وترحلت للمراحل طاويا ، ولست لغير الحج والزيادة ناويا ، فلما قضيت بوقوفى بعرفات والإفاضة من حيث أفاض الناس فرضى أسرعت فى القفول والأوبة إلى أرضى ، فلما حللت بالوطن ، وحللتُ عن راحلة رحلتى الوضين ، وألقيت براها ، وأرحتها من تأويبها وإسآدها وسُراها ، حضرت مجلس الشيخ الفاضل الحكيم المنتصب للإفادة به والتعليم ، فتلقانى بالترحيب والتكريم ثم قال : حدثنى عن أهرام مصر بما رأيته ، واضرب صفحا عما من أخبارها رويته . فقلت له : ياأستاذ ، ماعندى من المعاينة فيها ماأرْويه وأسوق إليك حديثاً صحيحا فيه . فقال :

«أخْيسسْ بهمة لطالب علم وحكمة لايثير من عزمة لرؤية مثلها ساكنا ، ولايُهيج من تشوقه وتشوفه إلى معاينة ما يمكنه معاينته من عجب كامناً ، وهل كان بينك وبين الإخبار عنها والشهادة عندى بما شاهدته منها ، سوى ركضة راكب ، أو دفعة قارب ، وأخلق بكل ساقط الهمة أن لايكون أهلا لتقليد جواهر الحكمة ، فلا تَعُدْ بعد يومك هذا إلىّ ، لقراءة كتاب من كتب الحكمة والأدب علىّ!

يقول المغربى منهيا روايته : «فرحلت على الفور إلى مصر لالغرض أرمى إليه عن قوس المرام سوى . . رؤية الأهرام» .

ثم يذكر ماورد عنها فى كتب الأقدمين ، ذكر الجاحظ فى كتابه «البلدان» إن عجائب الدنيا ثلاثون ، منها عشرة فى سائر انحاء الدنيا ، ولمصر عشرون أعجوبة أهمها الأهرام . أما أمية بن أبى عبد العزيز بن أبى الصلت فيقول : يظهر من أمرهم- يعني المصريين- أنه قد كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم ، ويدلّ على ماخلفوه من الصنائع البديعة المعجزة كالأهرام والبرابى ، فإنها من الآثار التى حيرت الأذهان والأفهام الثاقبة .

ويقول أبو العلاء المعرى :

تضل العقول الهِزْبريات رُشدَها
ولايسلم الرأى القوى من الأَفْنِ
وقد كان أرباب الفصاحة كلما
رأوا عجباً عَدُّوه من صنعة الجنّ

ثم يذكر ويعدد الأنبياء الذين عبروا أرض مصر وشاهدوها ، والصحابة والتابعين . ويتحدث عن علاقة الأهرام بالكواكب والنجوم ،

ويقول : إن الصائبة يحجون إليها ، ويشير إلى قداسة خاصة للأرض حول الأهرام وللأهرام ذاتها ، ويذكر حادثين يبدو أنهما كانا متداولين بين الناس ، يعكسان حرمة الأهرام ، الأول عن رجل أراد أن يفسق بامرأة داخل الأهرام فَصُرِعا ، والثانى عن قوم دخلوا بغلام يريدون الاعتداء عليه فلما هموا بذلك خرج عليهم غلام أسود أمرد فى يده عصا وأخذ يضربهم فخرجوا هاربين وتركوا طعامهم وشرابهم الذى كان معهم وبعض ثيابهم . . .

ويذكر أن الثقب الحادث فى الهرم الأكبر نتيجة محاولة فاشلة قام بها الخليفة العباسى المأمون ، وهذه الفتحة هى المستخدمة حتى الآن فى الدخول إلى جوف الهرم ، لقد كانت هناك محاولات مستمرة من الولاة والحكام لاقتحام الآثار القديمة بحثا عن الذهب والكنوز المخبأة ، ولكن كثيرا ماكانوا ينكصون على أعقابهم ، إما بسبب الخوف من المجهول ، أو بسبب العجز عن الوصول إلى شىء محدد .

صعود الأهرام

يؤرخ المؤلف لمحاولات تسلق الأهرام ينقل عن تاريخ السلامى مانصه : وفى أحد الهرمين صَدْع من صاعقة ، ولانعلم أن أحدا صعد إلى الأهرام غير رجل واحد ، وكان المظفرى فى أيام الفاطمى عَرّض الرغائب على من يصعد الهرمين فابتدر رجل من العامة لذلك فدفع له ديته ، فصعد فى الشق الواقع فيه الصدع من الصاعقة بالاحتيال حتى بلغ أعلاه . . فذكر أن أعلاه سطح مستو يسع نحو مائة رجل . .

هنا لابد من الإشارة إلى أن الهرم الأكبر فى ذلك الوقت وحتى زمن المقريزى كان مغطى بطلاء وردى اللون والنقوش الهيروغليفية

لم تكن أحجاره مكشوفة يمكن الصعود من خلالها كما هو الآن فى عصرنا الحالى .

أما الهرم الأوسط فيؤكد المؤلف استحالة تسلقه وأن التاريخ لايذكر إلا محاولة واحدة ناجحة فى زمن الصالح طلائع بن رزيك (أى فى الزمن الفاطمى) ، ولكنه تمكن من الصعود ولم يستطيع النزول ، ولزم القمة حتى مات .

ثم ينتقل الشريف الإدريسى إلى وصف الطرق المؤدية إلى الأهرام قبل استعداده لدخولها . .

. . يصف لنا الشريف الإدريسى الطريق الذى يجب أن يسلكه أبناء عصره إلى الأهرام ، يبدأ من باب زويلة إحدى بوابات القاهرة الرئيسية القائمة حتى اليوم ، ويصف بدقة ماسيمر عليه الزائر من مشاهد ومعالم وأضرحة حتى يصل إلى شاطىء النيل عند الفسطاط فيعبر منه إلى البر الغربى للنيل وفى حدود ماقرأت فى كتب الرحلات والجغرافية القديمة ، فإننى لم أطالع وصفا بمثل هذه الدقة التى تشهد للمؤلف تمتعه بروح عالم متمكن ، إلى أن يصل بنا إلى الأهرام فيحدثنا عن حدودها وصفاتها ، وأولها تكسر الرياح عليها . ينقل عن المسعودى ماذكره عن الرياح والأهرام فى كتابه «التنبيه والأشراف»

يقول المسعودى : والهرمان العظيمان اللذان فى الجانب الغربى من فسطاط مصر وهما من عجائب بنيان العالم ، كل واحد منهما أربعمائة ذراع فى سُمك مثل ذلك مبنيان بالحجر العظيم على الرياح الأربع ، كل ركن من أركانها يقابل ريحا منها فأعظمها فيها تأثيرا الجنوب وهى المريسى .

ثم يعلق المؤلف على ماذكره المسعودى فيقول :

وصدق فيما قاله وبرّ ، والمشاهدة شاهدة بصدقه فيما ذكره ورقمه فى كتابه وسطره ، وحكمة ذلك أن الرياح عند مصادمة جوانبها تتفرق وتتكسر حدتها بانقلابها نكباء ، ومن تأمل ذلك عندها عندما تهب الرياح رآه عيانا . . .

ألا ينبهنا ذلك الوصف ، وتلك الملاحظة إلى إحدى خصائص بناء الأهرام ، وهى مقاومة بنائه للرياح خاصة ريح الجنوب الحادة والتى أطلق عليها القدماء اسم المريسى .

ثم يذكر المؤلف وصف أبو زيد البلخى للأهرام فى كتابه «صفة الأرض والأقاليم» ويتوقف بالنقد عندما يذكر البلخى أن الأهرام مغطاة بالكتابة اليونانية ، يقول الشريف الإدريسى : إن كل خاصى وعامى يعرف الفرق بين الحروف اليونانية ، والحروف البرباوية (القلم اليونانى والقلم البرباوى أى الهيروغليفى) ، ويذكر المؤلف أن الخليفة المأمون عندما جاء إلى مصر اصطحب معه مترجمين من اللغة اليونانية إلى العربية ولكنهم عجزوا عن قراءة المكتوب على الأهرام . فدلوه على شيخ مصرى اسمه أيوب بن مسلمة يعرف اللغة البرباوية (نسبة إلى البربا أى الآثار أو الخرائب) فترجم للمأمون ما على الهرمين ، وعمودى عين شمس ، وماكان على حجر بالاصطبل من قرى كدرة منف ، وماكان على حجارة كانت بمنف ، وأبو صير وسمنود ، ويذكر المؤلف أن جميع ماترجمه أيوب بن مسلمة جمع فى كتاب «الطلسمات الكاهنية» ويتحدث المؤلف عن هذا الكتاب :

وقد كان وقع بيدى فيما غبر من الزمان من هذا الكتاب المعروف بكتاب الطلسمات الكاهنية أوراق ولعت يد البلى بحروفها فكادت أن تأتى على تطريزها وتفويضها فقرأت فيما كُتب فيها ونقش ورقم ورقش أنه كان مكتوبا على الأهرام اسم من بناها وأشياء من الحكم والطلسمات والعجائب والنيرنجات ، وكان ماعلى الأهرام الكبار دون ماسواها من البرابى وسائر الأحجار فى ذلك الكتاب مكتوبا بعشرة أقلام ترجم أيوب منها أربعة والستة الأخر لم يعرفها ، قال : وذلك أن حكماء مصر رمزوا رمزا شديدا وجعلوا مارمزوه وعموه ولَغَزوه فى حكاية صُور الكواكب السيارة والثابتة ، فلم يستطع أحد أن يستخرجه .

هذه الواقعة تثير من التساؤلات أكثر مما تثير من الإجابات ، لم يذكر لنا المؤلف تفاصيل ماقرأه فى كتاب «الطلسمات الكاهنية» ، وهذه التفاصيل كانت ستحسم أمراً آخر وهو : هل كان أيوب بن مسلمة يعرف اللغة الهيروغليفية القديمة فعلا ، أم أنه قرأ سطورا كانت فى مخيلته هو ، أو توهمها؟ هذا مالا نجد إجابة عليه حتى الآن ، وإن كنت أتخيل بعينى عقلى هذه النقوش التى كانت تغطى الأهرام قبل اندثارها ، وأتساءل : كم من الأسرار انطوت إلى الأبد مع اختفائها ؟

يورد المؤلف الكثير من التفاصيل فى معرض رده على البلخى وإثباته أن هذه اللغة ليست اليونانية ، ثم يقول مايدل على دقته الشديدة :

وإنّا لسنا ممن يضرب عن مثل هذه الدقائق- حين يمر بها - صفحا ، ولايجعل ليلها بتنوير دلائله صبحاً ، فلنرجع إلى سياقة ماكُنا بصدد سياقته من وصفها ، وسردِ الدرر فى سلك التحديث عنها ورصفها . .

داخل الهرم

يقول المؤلف :

وأما ماذكره أبو زيد وأبو الصلت وغيرهما من الطرقات التى يصعد منها من داخلها إلى أعاليها والمخترقات التى يهبط فيها إلى أسافل مهاويها ، فقد صعدنا نحن من داخل الهرم الأكبر ، وارتقينا إلى البيت المكعب الذى وُجدت فيه الرمة البالية (المومياء) ، ومساق الطريق إلى هذا البيت من الفتح الذى فتحه المأمون أن يمشى الداخل فيه مقدار عشرين ذراعاً على التقريب قائما فى بعضها ، ومنحنيا فى بعضها ، وسراج نور الشمس يضىء له إلى أن يعطف على يساره قائما ، فيلتقى بزلاقة يطلع إليها من مقدار قامة بغير بسطة ، وتحت هذه الزلاقة حفير ذُكر أنه بئر . ويَلْقى هنالك مَنْفسا يُورى نوراً يسيراً يتمكن الرجل النحيف من دخوله .

وقد ذكر لى الفقيه نور الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبى بكر الطبرى أنه سرب فيه منبطحاً دون امتداد القامة ثم قام فيه واقفاً على قدميه ومشى مقدار عشرين ذراعاً فانتهى به إلى ظاهر الهرم فوق الثلمة المفتوحة من الجهة الشمالية المواجهة لوجه الداخل» .

ثم ينقل إلينا المؤلف عن أشخاص يثق فيهم ماشاهدوه عندما أوغلوا فى باطن الهرم ، ويذكر منهم رجلاً أعجميا اصطحب رجلاً إلى داخل الهرم وقال له : «ها أنا أتقدمك فى النزول واتبعنى» فهبط فى أحد المخترقين ، واستمر فى النزول حتى وقعت رجلاه على رمل ، عندئذ أشعل الأعجمى شمعة واستمرا منحدرين إلى أسفل فوجدا بئرا ، ثم أفضى بهما البئر إلى بئر آخر حتى عبرا ستة عشر بئرا وستة عشر ممراً ، حتى انتهيا إلى بيت مربع ليس بالواسع فيه حوض كالحوض الذى فى

البيت المكعب الذى بأعلى الهرم وقد قلع غطاؤه وهو فارغ ، وحوله نقض من آثار حفر ، رفع الرجل رأسه فوجد كتابة باللغة العربية :

وَرَدَ ، وَرْدٌ ، وَرَدٌ

عندئذ ضرب العجمى يدا بيد ، وحوقل واسترجع ، وقال له : إلى هنا انتهى علمى ، وماظنى أن أحدا قبلنا من البشر سبق إلى فتح هذا الحوض وأخذ ماكان مع الميت من المال ، والإكسير الذى كان فى وجود بعض أحدهما .

لقد أخبر الرجل صاحبه مؤلف الكتاب بما رأى فقال له :

أما الكتابة التى رأيتها فى السقف فإن الذى سبقكما الى الدخول إلى ذلك الموضع وفتح الحوض وأخذ ماكان فيه فكان اسمه وَرْدا ، فكتب وَرَدَ يعنى من الورود- وَرْدٌ - يعنى نفسه ، أنه ورد إلى هذا الموضع الذى ماورده قبله من أبناء جنسه واردٌ- وردٌ أى رجع عن طريقه التى ورد منها ، وأبقى ذلك أثرا من بعده يخبر كل وارد بعده إلى ذلك المكان أنه سبقه بالورود إليه .

إن هذه الحكاية التى أميل إلى تصديق تفاصيلها تؤكد نجاح البعض فى القرون البعيدة فى اختراق مناطق من الأهرام عاد الغموض يلفها فى عصرنا الحالى ، ولعلنا نذكر محاولات اليابانيين منذ سنوات قريبة لاختراق الفراغات الداخلية فى الأهرام والتى باءت بالفشل .

فتحة مفاجئة

يقول المؤلف أن فتحة حدثت فى الهرم الثالث الأصغر من الناحية البحرية ، لايُعرف من فتحها ، فيها زلاقة ينحدر فيها إلى أسفل نحو عشرين ذراعاً أو أكثر وفى آخرها مضيق لايسع إلا لواحد بعد الواحد ، ثم يحصل بعده فى مسرب آخر لابد أن يعبره الإنسان زحفا على بطنه

لمسافة نحو عشرين ذراعا ، ينتهى إلى حجرة مربعة فيها حفائر حفرها الباحثون عن الكنوز ، تؤدى الحجرة إلى أخرى تحيطها ست أو سبع حجرات أصغر ، أبوابها معقودة حنايا كأبواب خلوات الحمام الصغار ، وفى وسط الساحة حوض أزرق طويل (تابوت) يقول المؤلف :

ذكر لى الشريف أبو الحسين أحد بنى الميمون بن حمزة أنه حضر فتح هذه الطاقة ، مع قوم من المطالبين (الباحثون عن الكنوز) وأنهم أقاموا فى معالجتها بالمعاول والقطاعات ستة أشهر ، وكانوا جمعاً كثيرا ، وأنهم وجدوا فى ذلك الحوض بعدما كسروا غطاءه رمّة رجل بالية ولم يجدوا معه من ذخائر القوم سوى صحائف صفائح ذهب مكتوبة بقلم لايُعرف . .

ثم يقول :

وماألطف ماوصف به الموفق أبو محمد عبد اللطيف البغدادى هذا الهرم الأصغر حيث يقول ، هو صغير بالإضافة إلى الهرمين الكبيرين فإذا أفردته بالنظر هالك منظره وحسر الطرف دونه . .

يذكر المؤلف سبعين هرما كانت ناحية جبل المقطم ، اختفت كلها ، وينقل عن صاحب له رؤيته هرمين بمدينة القصر بالواحات الداخلة ، ويصف أهرام ميدوم بدقة ، ويخصص الفصل الرابع للبحث فى أصل الاسم ، وتاريخ بنائها ومن بانيها ، وهنا نجد أنفسنا إزاء أدق مرجع عن المعلومات المتاحة حول الأهرام قبل اكتشاف أسرار العصر الفرعونى فى القرن التاسع عشر .

وفى الفصل الخامس يتوقف عند المحاولات التى جرت لفض أسرارها . أما فى الفصل السادس فيذكر العجائب التى ارتبطت بها ، وأخبار الذين دخلوها ، وهذا مايستحق التوقف عنده . .

.. يحدثنا الشريف الإدريسى مؤلف الكتاب عن الأساطير والحكايات المتداولة حول الأهرام وتلك الأساطير فى القرون الوسطى كانت مهمة جداً فى إطار محاولة التعايش مع الآثار القديمة غير المفهوم أسباب خروجها إلى الوجود ، كما لعبت دوراً فى حمايتها من الدمار ، تمثال أبو الهول الشهير مثلا كان هناك اعتقاد شعبى أنه يتضمن طلسما يحمى الجيزة من طغيان الرمال على البيوت والحقول . والتدمير الذى لحق بأنفه على يدى درويش ذاهل العقل لم يستمر ، وفى جنوب مصر كان قومى يرددون الكثير عن أرصاد خفية تتولى حراسة مقابر الفراعنة القديمة ، وكنت أصغى مبهوراً ، مشتعل الخيال إلى مايوحى به ذلك من عالم غريب .

ينقل المؤلف عن القدامى قولهم : إن الملك شوريد بعد أن فرغ من بناء الأهرام جعل لكل منها خازناً (أى حارس) ، خازن الهرم الشرقى صنم جزع أسود وأبيض له عينان مفتوحتان ، جالس على كروسى ، معه شبه الحربة ، إذا نظر إليه الناظر سمع من جهته صوتاً يكاد ينتزع قلبه فيهيم على وجهه ويختلس عقله ولايكاد يفارق الهرم حتى يموت فيه .

وجعل خازن الهرم الثانى من حجر صوان مجزع ، معه شبه الحربة ، وعلى رأسه حية مطوقة ، من قرب إليه وثبت عليه من ناحيته ، وتطوقت على عنقه فقتلته .

وجعل خازن الهرم الثالث صنما صغيرا من حجر البَهْتة على قاعدة منه ، من نظر إليه اجتره حتى يلصق به فلا يفارقه حتى يموت . فلما فرغ من ذلك ضمدها بالأرواح وذبح لها الذبائح وهى تمنع من نفسها إلا من قرب إليها وعمل لها أعمال الوصول .

لقد لعبت هذه الأساطير المتداولة دوراً هاماً فى حماية الأهرام . وكثيرا ما تختلط الحقيقة بالأسطورة .

الأعماق

ترى . . ما الذى تحتوى عليه الأهرام ؟ أى أشياء تخفيها فراغاتها الهائلة ؟ سؤال مازال يحير العلماء المتخصصين حتى الآن ، والجهود لاتتوقف للبحث عن حقائق ، ماالبال إذن بالموقف فى القرون الوسطى والأزمنة القديمة؟

كان الهرم الأكبر مغلقاً حتى جاء الخليفة المأمون إلى مصر ، فأراد هدمها ، قيل له :إنك لن تقدر على ذلك ، فقال : لابد من فتح شىء منه ، وبذلت الجهود حتى تم فتح المدخل الذى يلج منه الناس إلى جوف الهرم حتى الآن .

يقول المؤلف:

إن المأمون لما فتح أقام الناس سنين يقصدونه ويدخلون فيه من الزلاقة التى فيه فمنهم من يسلم ومنها من يهلك ، وإن جماعة من الأحداث اتفقوا وكانوا عشرين رجلاً ، على أن يدخلوا الهرم ولا يبرحوه حتى يصلوا إلى منتهى أمره . فأخذوا معهم من الطعام والشراب مايكفى لشهرين وأخذوا الحبال والفؤوس والقفاف ودخلوا الهرم ، وتركوا أكثرهم فى الزلاقة الأولى والثانية ، ومضوا فى أرض الهرم ، فرأوا فيه خفافيش بقدر العقبان فضربت وجوههم ، فانتهوا إلى موضع تخرج منه ريح باردة لاتفتر ، فذهبوا ليدخلوه فانطفأت سُرجهم فجعلوها فى زجاج وذهبوا يدخلوه فكاد أن ينطبق عليهم .

فقال أحدهم «اربطوا وسطى بحبل ، فأنا أقتحم وأدخل ، فإذا كاد أن ينطبق على فجرونى إليكم ، وكان على بابه أجرنة كثيرة فارغة ،فعلموا

أن أجساد موتاهم داخل ذلك الموضع وأموالهم وكنوزهم ، ففعل القوم بصاحبهم ذلك وربطوا الحبال فى وسطه ، فلما اقتحم ذلك الموضع انطبق عليه . فجره أصحابه ، فلم يقدروا على نزعه وسمعوا عظامه تتكسر وصيحة عظيمة هائلة ، فسقطوا منها على وجوههم لايعقلون ، فأقاموا حينا ثم أفاقوا وطلبوا الخروج ، وضاق بهم الأمر وصعدوا فسقط بعضهم وقت صعودهم من الزُّلاقة فَتُرِك وخرجوا من الهرم ، وجلسوا فى سفحه متعجبين ، فبينما هم كذلك إذ أخرجت لهم الأرض صاحبهم ميتا فتكلم بكلام كاهنى فسّره لهم بعض أصحاب الديارات بالصعيد بأنه «هذا جزاء من طلب ماليس له» ثم سقط ميتا ، فحملوه وفُطن بهم فأخذوا وجيء بهم إلى الوالى ، فحدثوا عن أنفسهم بذلك .

عجائبها

من الحكايات المتداولة فى زمن المؤلف أن قوما فى زمن ابن طولون دخلوا الهرم ، ووجدوا فى طاق من أحد بيوته مينا زجاج فأخذوها وخرجوا . فافتقدوا رجلا منهم فدخلوا فى طلبه ، إذ خرج عليهم عريانا يضحك ويقول « لاتتعبوا فى طلبى» ورجع هاربا إلى داخل الطاق ، فعلموا أن الجان استهوته وشاع أمرهم .

ومما يذكره المؤلف عن عجائبها الأسطورية المتوارثة عن قبط مصر أن سوريد الملك عندما أخبره كهنته بخبر الطوفان والنار المحرقة التى تخرج من قلب الأسد فتحرق العالم ، عمل فى الأهرام مسارب تدخل إلى أزاج ضيقة تجتلب الرياح إلى داخلها بصوت هائل . وعمل منها مسارب يدخل فيها ماء النيل إلى مكان بعينه ثم يفيض إلى مواضع ، وجعل فيها أسرابا كثيرة تنتهى إلى موضع من أرض المغرب وأرض الصعيد ، وملأ تلك الأسراب عجائب وطلسمات وأصناماً تنطق .

ومن عجائبها ماذكروه من عجائب الروحانية الموكلة بها ، زعموا أن روحانى الهرم الجنوبى فى صورة امرأة عريانة حسناء لها ذؤابتان ، فإذا أرادت أن تستهوى الإنسى ضحكت إليه واجتذبته إلى نفسها فيدنو منها فتستهويه فيزول عقله ويهيم ، وذكر الوصيفى والأسعد أن جماعة من الناس رأوا هذه المرأة تدور حول الهرم وقت القائلة وعند غروب الشمس .

وهذه الأسطورة تذكرنا بما يتردد فى الريف المصرى حتى الآن عن «النداهة» التى تنادى الإنسان المنفرد فى الحقول بصوت جميل ، حتى إذا ما التفت تبعها وذهب عنه عقله ، وقد أوحت هذه الأسطورة إلى أديبنا الراحل يوسف إدريس بواحدة من أجمل قصصه ، تلك التى تحمل عنوان «النداهة» يورد المؤلف قصصا عجيبة عديدة مما شاعت حول الأهرام بين الناس ولكن أغربها حكاية أبو شهرمان التى يرويها المؤلف

أبو شهرمان

ومن عجيب مايُحكى من عجائبها ويُروى فيما يستطرف من غرائبها ماحدثنا به الشيخ أبو شهرمان ، شيخ من أجناد المصريين تجاوز من سنى عمره التسعين ، قال : كان بمصر رجلان من أهلها متصادقان اتفق لهما بعد يسار إعسار ، فاتفقا على أن يتوجها إلى بلاد الصعيد ليكتسبا بأنواع الاكتساب حيث لايعرفان عند الانتساب ، فخرجا على هذا العزم ماشين فى البر لعدم مايكتريان به مركوبا ، عثرا على لوح مكتوب فيها :

إذا جزت إلى جيزة مصر ، فاقصد الأهرام ، فإذا وصلت إليها ، فاجعل الهرم الفلانى خلف ظهرك ، وقس كذا وكذا خطوة ، واحفر مقدار قامة تجد صندوقا من زجاج فيه غناك ، والسلام . .

فقال أحدهما للآخر :

هات عمامتك . .

فأخذها ، وعاد إلى الفسطاط فباعها واشترى من ثمنها مسحاة وقفة ومايأكلانه من خبز وإدام ، وعاد إلى صاحبه عبرا إلى الجيزة ، حفرا الموضع المذكور ، وجدا الصندوق الزجاجى مطبوقا بغير قفل ، كسراه فوجدا فيه إناء زجاجيا فرعونيا داخله دينار واحد .

قال أحدهما للآخر :

ياخيبة المسعى وخسارة التعب ، لو علمنا أنا لانجد غير هذا ماأتعبنا أنفسنا ، لكنا ماخسرنا غير تعبنا فخذ هذا الدينار وعد إلى الفسطاط واصرفه عند صيرفى من اليهود واشتر منه عمامة ، ومانتغذى به .

سار معه إلى أن وصل إلى المعدية ، وجلس ينتظره على الشط فأما ماكان من حديث الذى سار يصرف الدينار فإنه صرفه واشترى منه مأمره به صاحبه ، وأطبق كفه على ماتبقى معه من صرفه ، فلما جاء الساحل وفتح كفه ليدفع لصاحب المعدية أجرة تعديته به إذ وجد الدينار فى كفه ، فتعجب لذلك ولم يدر كيف كان الأمر فيه فعاد وصرفه من صيرفى آخر ، فكان الأمر فى ذلك على ماكان عليه فى المرة الأولى ، هكذا . . ثلاث مرات ، وهو يجد الدينار بعد صرفه فى كفه ، فعلم أنه مخدوم ، وأن الموكل به من الروحانية ينقله إليه ولو صرفه فى اليوم الواحد ألف مر ة .

وأما ماكان من حديث صاحبه الذى بقى ينتظره على الشاطئ ، فإنه اغترف بالأ ناء من النهر ليشرب فوجد مأغترفه من الماء فيه قد انقلبت عينه خمراً فى اللون والرائحة والطعم فعظم تعجبه إلا أنه تنبه بأنه مطلسم .

ولما جاء صاحبه أخبر كل منهما الآخر بما جرى له . واستمرا قدرا من الزمن ينفقان من هذا الدينار ، ظهر الثراء عليهما واليسار بعد الإعسار ، حتى وشى بهم البعض عند الأفضل أبى القاسم ابن أمير الجيوش بدر الجمالى ، استدعاهما فأخبراه بما كان ، فأخذ منهما الإناء الزجاجى وأبقى لهما الدينار واستحلفهما أن لا يصرفاه إلا عند الاضطرار .

تأملات وأشعار

لايعنى تضمين مثل هذه الحكايات الأسطورية للكتاب أنها تطبعه بطابع المؤلفات الأخرى التى كانت تعتمد بشكل أساسى على الخرافات المتداولة ، ولكن الشريف الإدريسى مؤلف الكتاب يوردها باعتبارها من معالم عصره ، ومعارفه ، كانت هذه الحكايات متداولة ، وبعضها استقر فى أذهان الناس على أنه حقيقة ، وكثير من تلك الأساطير كان له الفضل فى حماية معظم الآثار الفرعونية التى وصلت إلى عصرنا بما أشاعت من رهبة وخوف يبقى التأكيد على الروح العلمية التى التزم بها المؤلف فى حدود معارف عصره ، وإلمامه بكل ماكتب عن موضوعه ، والتحقق بنفسه ، هاهو يتعجب من طريقة بنيانها فيقول مانصه :

ومن عجائبها الظاهرة لأبصار متأمليها التى يحارُ نظر بصائر أولى البصائر فيها ، تضام ملتقيات أحجارها على عظم أجرامها وضخامة أجسامها بحيث لاتجد الشعرة متخللا بين بعضها وبعض ، لإحكام النحت والرصف المتجاوزين فى الإحكام حد الوصف . .

ثم يختتم الشريف الإدريسى كتابه الفريد بفصل يورد فيه أشعاراً مما قيلت فى الأهرام ، اختار منها مقطوعتين الأولى لعمارة اليمنى .

خليلَىَّ ماتَحْت السماكَيْن بنية

تُماثل فى إتقانها هَرمى مصر

بنـاءٌ يخــــاف الـدهـر مـنـه وكـل مـــــا

علـى ظاهـر الـدنـيــــا يخــــاف من الـدهـر

تنـزه طرفى فى عــــجـــيب بنـائهـــــا

ولـم يتـنـزه فـى المـراد بـهـــــــا فـكـرى

والثانية للشاعر المصرى الذى عاش فى العصر الفاطمى ظافر الحداد .

تـأمَّـلْ حـكـمـــــة الأهـرام واعــــجـب

وعـنـدهـمـــا أبو الـهـــول الـعــــجــيب

كــــعـــمـــــارتين علـى نجــيب

بمحـــبـــوبين بيـنـهـــمـــا رقــــيب

ومـــاء الـنـيل تحــتــهــمـــا دمـــوع

وصـــــوت الـريح عـنـدهـمـــا نحــــيب

القاهرة بين الواقع والخيال في ثلاثية نجيب محفوظ

يقول الروائى العربى الكبير نجيب محفوظ . .

. . حبى وارتباطى بالقاهرة القديمة لامثيل لهما ، أحيانا يشكو الإنسان بعض جفاف فى النفس ، تعرف هذه اللحظات التى تمر بالمؤلفين ، عندما أمر فى المنطقة تنسال على الخيالات ، وأغلب رواياتى كانت تدور فى عقلى كخواطر حية أثناء جلوسى فى هذه المنطقة ، يخيل لى أنه لابد من الارتباط بمكان معين ، أو شيء معين يكون نقطة انطلاق للمشاعر والأحاسيس . . والجمالية بالنسبة لى هى تلك المنطقة .

. . إن المنطقة التى تعلق بها نجيب محفوظ هى القاهرة القديمة ، التى تعتبر أساس المدنية قبل أن تتسع وتتشعب فى القرون التالية على أنشائها (٩٦٩م) ، ولد نجيب محفوظ فى ميدان بيت القاضى ، فى نفس منطقة بين القصرين التى أصبحت مسرحا لأعظم أعماله الأدبية ، الثلاثية ، وعاش حتى سن الثانية عشرة ، ثم انتقل إلى السكنى فى حى العباسية القريب ، ولم تنقطع صلته بالقاهرة القديمة حتى يومنا هذا ، أعطى أسماء الشوارع والحوارى لخمس من أهم رواياته ، خان الخليلى ، وروايته زقاق المدق ، ثم الثلاثية التى تتكون من ثلاثة أجزاء : بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية ، وتلك أسماء باقية حتى يومنا هذا ، فيها دارت أحداث هذه الروايات ، فإلى أى حد استطاع تجسيد القاهرة القديمة فى أعماله؟ وهل تتطابق القاهرة الحقيقية فى الواقع مع

القاهرة كما تبدو فى الروايات ، سأركز على الثلاثية ، أكبر أعمال نجيب محفوظ وأهمها ، وسوف أستند إلى خبرتى بالمكان ، حيث أننى عشت فى القاهرة القديمة لمدة تتجاوز الثلاثين عاما ، وعرفت نفس الشوارع والحوارى التى عاشها نجيب محفوظ .

بين القصرين

.. تطالعنا القاهرة القديمة فى «بين القصرين» الجزء الأول من الثلاثية ، فى الصحفات الأولى ، ومن خلال عينى أمينة زوجة أحمد عبد الجواد ، أثناء وقوفها خلف النافذة تتطلع إلى الطريق فى انتظار زوجها .

.. كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين ، ويلتقى تحتها شارعا النحاسين الذى ينحدر إلى الجنوب وبين القصرين الذى يصعد إلى الشمال ، فبدا الطريق إلى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا بظلمة تكثف فى أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت الدائمة وتخف فى أسافله بما يلقى إليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل السهر حتى مطلع الفجر ، وإلى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى ، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا ، فلا يلفت النظر به إلا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة .

تلك صورة الطريق كما تبدو فى أول مقطوعة وصفية للطريق ، كيف يبدو المكان فى الواقع ، يمكن تحديد الموقع بسهولة من خلال وصف نجيب محفوظ ، إنه هذا الجزء من شارع القصرين (واسمه حاليا شارع المعز لدين الله نسبة إلى مؤسس القاهرة) حيث توجد مجموعة من الآثار الهامة . وإذا نظرنا إلى الطريق اثناء مشينا فيه من الشمال إلى الجنوب ، فسوف نجد مجموعة الآثار الإسلامية التالية ، والترتيب طبقا لموقع كل منها ..

- مسجد برقوق .
- مسجد الناصر قلاوون .
- قبة المنصور قلاوون .
- مسجد المنصور قلاوون .
- حمام السلطان قلاوون .
- مستشفى قلاوون .

إلى الناحية اليسرى ، وفى المواجهة تماما . . سنجد :

- قصر الأمير بشتاك .
- سبيل بين القصرين العثمانى الطراز .
- بداية الشارع المؤدى إلى ميدان بيت القاضى .
- قبر الصالح نجم الدين أيوب .
- شارع النحاسين

والملاحظة الأولى التى تستوقفنا هنا أن المكان يخلو تماما من البيوت السكنية ، وأقرب المبانى السكنية تقع فى الخرنفش إلى الشمال ، وفى حارة الصالحية إلى الجنوب ، لقد حدد نجيب محفوظ مكان البيت الذى ستدور فيه معظم أحداث الثلاثية ، حدد مكانه فى مواجهة سبيل بين القصرين ، والسبيل موجود بالفعل ، لكن فى مواجهته يقوم مسجد برقوق الضخم ، أى أن المنزل فى الرواية يحتل مكان المسجد ، ويقوم فى مكان لاتوجد به أى بيوت مسكونة ، كما أنه يصف مآذن برقوق وقلاوون من خلال عينى أمينة ، وحتى يمكن لها أن ترى المئذنتين فلابد أن يكون موقع البيت على الناحية الأخرى ، وإذا صح موقع البيت على الناحية الأخرى فإن النافذة لن تواجه أبدا سبيل بين القصرين ، فى نفس الوقت نجد أن وصف المؤلف للطريق يطابق الواقع بالنسبة لازدحامه

إلى جهة اليسار ، وخلوه من الحركة فى الجزء الجنوبى ، ولكن يعود الوصف ليصبح بعيدا عن واقع المكان ، عندما تنظر أمينة إلى سبيل بين القصرين ، ثم إلى منعطف حارة الخرنفش ، وإلى بوابة حمام السلطان ، ثم إلى المآذن ، إن من ينظر إلى هذه الأشياء لابد أن يكون موقعه فى منتصف الطريق تماما ، وليس خلف نافذة تقع فى مواجهة سبيل بين القصرين .

فى الفصل السابع ، يقول المؤلف :

عندما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذى يقع أمام جامع برقوق بالنحاسين . .

وفى الواقع نجد سبيل بين القصرين أمام مسجد برقوق ، وبجواره قصر الأمير بشتاك ولاتوجد متاجر فى هذا الجزء ، بل إن الدكاكين تقع إلى الجنوب ، على مسافة حوالى ثلاثمائة متر فى النحاسين ، فى الفصل الثانى عشر يصف نجيب محفوظ حركة ياسين عبد الجواد :

. . ثم اتجه صوب الصاغة ، ومنها إلى الغورية ومال إلى قهوة سى على على ناحية الصناديقية ، وكانت شبه دكان متوسط الحجم يفتح بابها على الصناديقية وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطفت بأركانها الأرائك . .

فى الواقع نجد أن ترتيب الشوارع التى تحرك فيها كالآتى :

(الصاغة- الغورية- الصناديقية) . .

أما مقهى سى على فلا يوجد على ناحية الصناديقية أى مقهى يحمل هذا الاسم حاليا أو خلال المائة سنة الأخيرة ، وإذا أخذنا بالمقهى فى الرواية فإن الجالس فيه لايمكن أن يرى الغورية من حارة الصناديقية ، إذ أنها بعيدة عن الغورية ويفصلها عنها شارع الأزهر الذى كان ممرا ضيقا فى وقت أحداث الرواية ١٩١٨ ، ثم اتسع منذ عام ١٩٣٠ .

وفى الفصل الحادى والعشرين يصف نجيب محفوظ منزل أم مريم . .

. . النافذة التى تطل على حمام السلطان مباشرة . . وفى الواقع ، نجد أن حمام السلطان لايقوم أمامه أى بيت ، بل مانجده هو قبر الصالح نجم الدين أيوب ، إن حمام السلطان يواجهنا مرة أخرى عندما تنظر إليه عائشة .

وهكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرا مابين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفنى يواصل خفقاته حتى تراءى عن بعد «المنتظر» وهو ينعطف قادما من الخرنفش . .

وإذا اعتبرنا - كما فى الرواية وليس كما فى الواقع - المنزل فى مواجهة سبيل بين القصرين ، فمن الصعب للواقع فيه ، الناظر من خلف النافذة أن يرى حمام السلطان والسبيل معا ، إن دائرة الرؤية لاتتسع لهما معا .

نلاحظ من خلال ، رصد حركة الشخصيات فى واقع الرواية المتخيلة ، أن المؤلف لايلتزم الدقة عند وصف التفاصيل ، ولايتقيد بمعالم المكان الواقعى ، على العكس من ذلك ، فانه عندما يرسم الملامح العامة يصبح أكثر دقة ففى الفصل الثامن عشر ، يمضى ياسين عبر شارع الجمالية ، ثم يرى عطفة قصر الشوق ، إن الوصف عام ودقيق إلى حد ما ، لأن قصر الشوق اسم يطلق على شارع يتفرع من طريق الجمالية وهو الذى اعتبره المؤلف عطفة (أى منحنى) أما عطفة قصر الشوق فى المكان الواقعى ، فتقع عند نهاية شارع قصر الشوق ،وتبدأ من مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية ، وعندما تذهب أمينة لتزور مسجد سيدنا الحسين مع كمال ، فإن الوصف العام للمكان يبدو صحيحا إذا قورن بالمكان الواقعى ، إنهما يغادران البيت إلى درب قرمز ، ثم ميدان بيت القاضى يتصدره مبنى قسم الجمالية ثم مدرسة خان جعفر الابتدائية ،

ثم طريق خان جعفر حيث يلوح جانب من مسجد الحسين ، إن الوصف هنا دقيق والمكان المتخيل يطابق المكان الواقعى تماما ، والمعالم التى ذكرها نجيب محفوظ موجودة حتى يومنا هذا ، قسم البوليس ومدرسة خان جعفر ، وميدان بيت القاضى ، كذلك نجد أن الوصف العام يطابق الواقع فى الفصل الأربعين عندما تنتقل الأسرة من بين القصرين إلى السكرية المجاورة لبوابة المتولى ونلاحظ أن نجيب محفوظ يستخدم الاسم الشعبى لهذه البوابة الضخمة التى لاتزال متبقية إلى يومنا هذا ، وتعتبر واحدة من أربع بوابات قديمة وصلوا إلى عصرنا من بوابات القاهرة القديمة والتى كان عددها ثمان بوابات ، وعندما يذهب أحمد عبد الجواد مع أولاده لصلاة الجمعة فى مسجد الحسين يسلكون نفس الطريق الذى مشت فيه أمينة وكمال من قبل ، لايذكر نجيب محفوظ التفاصيل ، إنما يعبرون ميدان بيت القاضى ثم نراهم داخل المسجد وفى نهاية «بين القصرين» تتحرك المظاهرة التى اشترك فيها فهمى من ميدان المحطة حيث محطة السكك الحديدية الرئيسية وتتجه إلى مدخل شارع نوبار ، ثم تقترب من حديقة الأزبكية ، ويلوح ميدان الأوبرا ، وهنا ينطلق الرصاص ، ويقتل فهمى ، إن القارئ الذى لم يعاصر القاهرة خلال العشرينيات يدهش ، إذ كيف تتحرك المظاهرة من ميدان المحطة إلى شارع نوبار؟ وهو شارع يقع حاليا فى منطقة السيدة زينب إلى الجنوب ، بينما يقع ميدان الأوبرا فى وسط المدينة ، سيتساءل القارئ ، كيف تمر المظاهرة بشارع نوبار قبل أن تعبر ميدان الأوبرا ، ويبدو نجيب محفوظ هنا كأنه لايعرف ترتيب الشوارع فى القاهرة ، ولكن الحقيقة عكس ذلك ، إذ أن اسم نوبار كان يطلق على شارع إبراهيم باشا ، (ثم شارع الجمهورية فيما بعد) وفى بداية عهد الملك فاروق أطلق اسم جده إبراهيم باشا على شارع نوبار ، وأطلق اسم نوبار باشا على شارع آخر صغير يبدأ من ميدان لاظوغلى وينتهى فى شارع المبتديان ، وكان اسمه شارع الدواوين .

ونلاحظ فى الجزء الأول من الثلاثية أن حركة الشخصيات تتم داخل منطقة القاهرة القديمة ، تمتد الحركة مرة واحدة عندما يذهب ياسين مع زوجته إلى المسرح فى الأزبكية ، لانرى أى وصف للمسرح ، إنما نرى ياسين فى البيت بعد عودته ، ثم تمتد الحركة إلى ميدان بيت المحطة حيث تبدأ المظاهرة ويبلغ عدد فصول الرواية واحد وسبعين فصلا ، تدور الأحداث فيها كالاتى

(٤٠) فصلا فى منزل أحمد عبد الجواد .

(١٢) فصلا فى دكان أحمد عبد الجواد الذى يبعد نصف كيلو متر عن البيت .

(٨) فصول فى الطرق بمنطقة الجمالية وأبعد نقطة تبعد عن المنزل وصلها أحد شخصيات الرواية ٣ كيلو متر . (فهمى فى ميدان المحطة) .

(٣) فصول فى بيت زبيدة العالمة يبعد كيلو واحد عن بيت أحمد عبد الجواد .

(٣) فصول فى بيت أم أمينة بالخرنفش يبعد نصف كيلو عن بيت أحمد عبد الجواد .

(٣) فصول فى بيت السكرية ويبعد حوالى اثنين كيلو .

(١) فصل فى بيت محمد رضوان المجاور لبيت أحمد عبد الجواد .

(١) فصل فى مسجد الحسين الذى يبعد حوالى كيلو متر واحد فقط .

وفى الجزء الأول يسافر أحمد عبد الجواد إلى مدينة بورسعيد ، وهى المرة الوحيدة التى سيسافر فيها خلال أحداث الثلاثية كلها . لكننا لانرى الطريق إلى بورسيعد ، ولايذكر المؤلف أى تفاصيل فيما عدا خروج أحمد عبد الجواد من البيت ثم عودته .

قصر الشوق

.. تنتهى أحداث الجزء الأول فى إبريل ١٩١٩ . وتبدأ أحداث الجزء الثانى «قصر الشوق» فى يوليو ١٩٢٤ ، أى تمر ست سنوات ، أصبح للشخصيات حركة مختلفة داخل مدينة القاهرة ، تقدم بهم العمر ، وأصبح لكل منهم علاقاته ، لهذا ستشمل حركتهم مناطق من المدينة لم تذكر فى الجزء الأول ، فى بداية الفصل السادس يمشى كمال الذى أصبح فى سن المراهقة مع صديقه فؤاد . يمرون بقبو قرمز ، وهذا القبو يتردد ذكره فى الثلاثية عدة مرات والقبو حقيقى .

ويمتد تحت أحد المساجد المملوكية القديمة ، وتحيط به الأساطير ، ولكن نجيب محفوظ يخلط بينه وبين قبو آخر يقع تحت قصر الأمير بشتاك ، وهذا القبو يتكون من عدة منحنيات بعكس القبو الأول ، وإذا أخذنا موقع بيت أحمد عبد الجواد فى الاعتبار ، فإن نجيب محفوظ يقصد القبو الثانى ، لكنه يطلق عليه اسم القبو الأول البعيد عن مكان البيت .

يصل كمال وصديقه إلى مقهى أحمد عبده الذى يقع تحت الأرض ، هذا المقهى كان موجودا حتى الثلاثينيات ، ويبدو من وصف نجيب محفوظ له ، ومن ذكريات الرجال المعمرين فى المنطقة أنه وصف دقيق ، أزيل هذا المقهى ومكانه الآن مجموعة مبانى الأميرة شويكار القائمة حتى الآن .

فى نفس الفصل يرد ذكر الكلوب المصرى عندما يقول كمال لصديقه .. «سنذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصرى لمشاهدة شارلى شابلن ، فنلعب الآن عشرة دومينو ..» .

والكلوب المصرى فندق قديم لازال موجودا حتى الآن بالقرب من مسجد الحسين ، ويضم الفندق فناء مكشوفا كانت تعرض به أفلام

سينمائية فى الثلث الأول من هذا القرن ، وأول عرض سينمائى قدم فى مصر شاهده المتفرجون فى هذا الفندق عام ١٩١٠ .

فى الفصل السابع يتجه أحمد عبد الجواد إلى :

«عوامة فى نهاية المثلث الأول من طريق إمبابة . .»

وتوجد بالفعل عوامات فى هذه المنطقة كان بعضها يستخدم للهو وقضاء أوقات المتعة ، وسوف يتردد أحمد عبد الجواد على هذه العوامة عدة مرات ، فى الفصل الثامن يرى أحمد عبد الجواد فى حارة الوطاويط زنوبة حبيبته العالمة ، والحارة موجودة حتى اليوم بجوار مسجد الحسين وتؤدى إلى شارع الجمالية ، وفى القرن الماضى كانت مسقوفة بأغصان الشجر ، ولهذا استقرت بها بعض الوطاويط ، ومن ثم سميت بحارة الوطاويط .

فى الفصل الرابع عشر ، يذهب كمال إلى العباسية ، يصف نجيب محفوظ الطريق بشكل عام ، شارع الحسينية ، ثم شارع العباسية ، ثم الوايلية ، ثم شارع السرايات ، وهذه الشوارع كلها موجودة بنفس الأسماء حتى الآن ، ولكن المعالم التى وصفها المؤلف تغيرت ، ، كانت العباسية فى زمن الرواية ضاحية هادئة ، مليئة بالحدائق والأشجار ، والقصور الكبيرة كانت مقرا لسكن الأثرياء والطبقة الراقية ، لقد تغير الوضع الآن ، فالعباسية حاليا منطقة شعبية ، مزدحمة أما القصور فقد زالت تماما ، وقصر آل شداد الذى يصفه نجيب محفوظ كان قصرا حقيقيا ولكن اسم الأسرة فى الواقع يختلف عن الرواية ، أزيل القصر ومكانه الآن عمارتين حديثتين ، فى الفصل السابع عشر يخرج كمال من حسين شداد وشقيقته عايدة ، ويتجهون إلى الهرم للنزهة ، تنطلق السيارة من العباسية ، إلى السكاكينى ، ثم إلى شارع الملكة نازلى (أصبح اسمه الآن شارع رمسيس) إلى الزمالك ، ثم طريق الجيزة ، إلى سفح الهرم

الأكبر ، ثم أبو الهول ، والطريق من العباسية إلى الهرم مطابق للواقع ، ولا يصفه نجيب محفوظ بالتفصيل ، إنما يذكر الملامح العامة فقط . ثم يذهب كمال إلى وجه البركة فى الفصل الخامس والثلاثين ، والمكان حقيقى كان اسمه بالعامية (وش البركة) ، وكله مخصص للدعارة التى كانت مباحة فى العشرينيات ، حتى عام ١٩٤٩ ، ويرتبط بوجه البركة شارع آخر اسمه درب طياب ، والمكانين حقيقيين ، ولا يظهران فى الرواية إلا بعد مرور كمال بأزمة عاطفية حادة ، تؤدى به إلى الخمر ، والتعرف على المرأة كجسد فى هذا المكان الذى يقع بالقرب من حديقة الأزبكية فى وسط المدنية ، يتكون الجزء الثانى «قصر الشوق» من (٤٤) فصلا .

(١٣) فصلا فى بيت أحمد عبد الجواد بين القصرين .

(٨) فصول فى ضاحية العباسية قصر آل شداد .

(٤) فصول فى دكان أحمد عبد الجواد بالنحاسين .

(٧) فصول فى العوامة أو الطريق المحاذى لنهر النيل .

(٢) فصلان فى السكرية .

(٢) فصلان فى وجه البركة .

(٣) فصول فى بيت ياسين بقصر الشوق .

(١) فى مقهى أحمد عبده .

(١) فى بيت محمد رضوان .

(١) الهـــــرم .

(١) فى مسجد الحسين .

(١) بيت زبيدة العالمة .

ونلاحظ أن منطقة قصر الشوق التى يحمل الجزء الثانى اسمها

لاتحتل من أحداث الرواية إلا ثلاثة فصول ، ويرجع ذلك إلى سبب طريف ، وهو أن الثلاثية كانت فى الأصل رواية واحدة ضخمة عنوانها بين القصرين ، وكان مستحيلا من الناحية العملية أن تصدر فى كتاب واحد ، وطلب الناشر من المؤلف أن يقسمها إلى ثلاثة أجزاء ، وبالفعل قسمها المؤلف إلى ثلاثة أجزاء وأعطى كل جزء اسما مفصلا .

السكرية

تبدأ أحداث الجزء الثالث فى يناير ١٩٣٥ ، وتنتهى فى صيف ١٩٤٤ ، يمر الزمن وتتقدم الشخصيات فى العمر ، وتتسع حركتهم فى مدينة القاهرة ، وتظهر أماكن لأول مرة .

فى بداية الفصل الرابع ، كمال يركب الترام ، متجها إلى بيت الأمة ، ببيت سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ ، والبيت موجود حتى الآن ، يغادر كمال سرادق الاحتفال ، إلى شارع القصر العينى ، ويمر أمام مبنى الجامعة الأمريكية بميدان الإسماعيلية (أصبح اسم الميدان الآن ميدان التحرير) ، ويظهر مقهى أحمد عبده مرة أخرى فى الفصل السادس حيث يجلس كمال مع صديقه إسماعيل لطيف ، وفى الفصل السابع يجلس ياسين فى مقهى . .

«من هذا الموضوع الدافئ ترى الغادى والرائح من شارع فاروق وإليه ، ومن الموسكى وإليه . . ومن العتبة وإليها . .» .

ويبدو أن موقع المقهى بميدان العتبة ، لم يذكره المؤلف بالاسم ، أما شارع فاروق فلازال موجودا حتى الآن (أصبح اسمه شارع الجيش) وشارع الموسكى لم يتغير اسمه حتى الان .

فى الفصل الثامن يمشى رضوان بن ياسين فى الغورية ، يمر بالسكرية ، يجتاز بوابة المتولى ، ثم يميل إلى الدرب الأحمر ، والمكان الأخير يذكر لأول مرة فى الثلاثية آخر مرتبط بحركة رضوان يذكر

أيضا لأول مرة ، إنه ضاحية حلوان التى تقع جنوب القاهرة على بعد ثلاثين كيلو مترا ، حيث يتردد رضوان على بيت عبد الرحيم باشا عيسى الذى كانت تربطه به علاقة شاذة ، ويذكر نجيب محفوظ شارع النجاة فى حلوان حيث يقع قصر عبد الرحيم باشا ، وقد بحثت طويلا عن اسم هذا الشارع فلم أجده الآن ، ولم يكن هناك شارع بهذا الاسم فى زمن الرواية .

فى الفصل الخامس عشر يذهب كمال إلى مجلة «الفكر» ويحدد نجيب محفوظ بدقة شديدة :

«كانت مجلة الفكر تشغل الدور الأرضى بالعمارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز . .»

يتفرع شارع عبد العزيز من ميدان العتبة ولازال يحمل نفس الاسم ، لكن المبنى الذى حدده نجيب محفوظ - وتلك المرة الوحيدة التى يذكر فيها عنوانا بهذه الدقة - لاتوجد ولم توجد به أى مجلة .

إن كمال يذهب إلى بيت للدعارة فى عطفة الجوهرى . المتفرعة من شارع الموسكى ، وهذه العطفة لاوجود لها فى الواقع ، وفى الفصل العشرين نجد أحمد شوكت وشقيقه عبد المنعم فى جامعة القاهرة بالجيزة ، ثم نجد أحمد شوكت فى مكتبة الجامعة مرة أخرى فى الفصل الخامس والعشرين ، حيث يتعرف إلى زميلته علوية صبرى ، وسوف تؤدى علاقتهما إلى زيارة بيتها فى ضاحية المعادى ، والمعادى تقع إلى جنوب القاهرة بحوالى خمسة عشر كيلو مترا ، نجد كمال فى جامعة القاهرة التى تذكر للمرة الثالثة والأخيرة فى الثلاثية كلها ، فى الفصل الثلاثين يمشى كمال فى شارع فؤاد المظلم بسبب الحرب ، ويصف نجيب محفوظ الزحام ، وجنود الاحتلال البريطانى ، أصبح اسم شارع فؤاد الآن شارع ٢٦ يوليو ، ويضطر كمال أثناء مشيه للاختباء فى مقهى رقص

ومقهى رقص كان موجودا فى الواقع وأزيل فى أواخر الخمسينيات ، فى الفصل السادس والثلاثين تلجأ الأسرة إلى قبو قرمز ويضطر كمال إلى حمل والده ، وقد سبق أن أشرت إلى أن القبو الذى يذكره نجيب محفوظ فى الرواية هو قبو آخر يقع تحت قصر الأمير بشتاك الأثرى ، ولجوء الأسرة إليه أثناء الغارة الجوية يؤكد هذه الملاحظة إذ أن منزل الأسرة كما يصفه المؤلف ، أقرب إلى قبو الثانى من قبو قرمز ، فى بداية الفصل الأربعين نجد كمال مع صديقه رياض فى مقهى خان الخليلى ، الذى شيد مكان مقهى أحمد عبده فوق سطح الأرض .

«كانت قهوة صغيرة بابها يفتح على حى الحسين ، ثم تمتد طولا فى شبه ممر تصف على جانبيه الموائد ، وينتهى بشرفة خشبية تطل على خان الخليلى الجديد . .»

يرصد نجيب محفوظ أحد معالم التغيير التى حدثت بالمنطقة والمقهى الذى يصفه مقهى حقيقى كان موجودا بنفس الوصف الذى ذكره المؤلف حتى عام ١٩٦٩ ، عندما هدم ، وشيد بناء حديث ، احتل فيه نفس المقهى مكانا جديدا ، ولكن تصميمه اختلف بالطبع ، غير أن نجيب محفوظ ذكر المقهى باسم «خان الخليلى» بينما كان اسمه فى الواقع ولايزال «مقهى درويش» وهو قائم حتى الآن فى مقره الجديد .

يذهب كمال إلى قاعة إيوارت الملحقة بالجامعة الأمريكية ، وهناك يرى بدور شقيقة عايدة التى أحبها فى صدر شبابه ، تذكر القاعة مرة واحدة ، وهى قاعة موجودة فى الواقع ولاتزال ، ومدخلها يطل على شارع الشيخ ريحان ، ثمة مكان آخر يذكر مرة واحدة هو حديقة الشاى بحديقة الحيوانات ، حيث يلتقى أحمد شوكت بصديقته سوسن حماد ، والجبلاية مكان حقيقى يوجد حتى الآن .

يلتقى كمال مرة أخرى ببدور في شارع ابن زيدون ، ثم يمشى معها إلى شارع الجلال ، ثم إلى شارع الملكة نازلى ، الشارعان الأول والثانى لاوجود لهما فى الواقع ، أما شارع الملكة نازلى فاسمه الآن شارع رمسيس ، عند تقاطع شارعى شريف وقصر النيل يلتقى كمال فجأة بصديقه حسين شداد ، ثم يجلسان بمقهى ريتز ، لايزال الشارعان يحتفظان باسميهما حتى الآن ، أما مقهى ريتز فكان مقهى حقيقى يقع فى مواجهة البنك الأهلى المصرى ، ثم أزيل فى أواخر الأربعينيات .

وهكذا نلاحظ أن الأماكن التى تظهر من مدينة القاهرة فى الجزء الثالث أكثر تعدداً ، ويرجع ذلك إلى حركة الشخصيات داخل المدينة ، ونلاحظ أن أسرة أحمد عبد الجواد محور الرواية عندما كانت متماسكة ، كانت الأماكن فى الجزء الأول محدودة لاتتجاوز منطقة القاهرة القديمة ، ثم اتسعت الحركة فى الجزء الثانى مع نمو الشخصيات وتقدمها فى العمر وفى الجزء الثالث يصبح إيقاع الزمن أسرع ، وحركة الشخصيات ، ويستتبع هذا العديد من التنقلات فى المدينة ، وبالتالى تظهر أماكن جديدة ، تتكون السكرية من أربعة وخمسين فصلا :

بيت بين القصرين	١٢ فصلا
بيت السكرية	١٢ فصلا
الطريق	٨ فصول
المقاهى	٤ فصول
الجامعة	٣ فصول
حلوان	٣ فصل
مجلة الفكر بشارع عبد العزيز	٢فصلان
دكان أحمد عبد الجواد	١ فصل

مجلة الإنسان الجديد بغمرة	١ فصل
الوزارة حيث يعمل ياسين	١ فصل
ضاحية المعادى	١ فصل
بيت الدعارة	١ فصل
قبو قرمز	١ فصل
قاعة إيوارت	١ فصل
حديقة الشاى	١ فصل
حانة النجمة	١ فصل
قسم الجمالية	١ فصل

يتقدم الزمن داخل الرواية ، وتتسع المساحة التى تظهر من المدينة ومن خلال وصف نجيب محفوظ ، تسجل الرواية ملامح القاهرة التى تغير الكثير منها الآن ، بدءا من بيت أسرة أحمد عبد الجواد ، الذى كان يعد نموذجا لسكن الأسر المتوسطة فى القاهرة القديمة ، اختفى ذلك تماما الآن ، وحلت المبانى ذات الطوابق المتعددة ، وحتى المقاهى التى أزيل بعضها ، وأسماء الشوارع التى تغيرت ثم وصف وسائل مواصلات انقرضت مثل «سوارس» التى يتردد ذكرها عدة مرات و«سوارس» كانت عربات تجرها الخيول يمتلكها يونانى وقد ظلت حتى بداية الخمسينيات ، كما يذكر بعض معالم التطور بالمدينة ، مثل إدخال مواسير المياه ، لقد وصف نجيب محفوظ الخطوط العريضة لمدينة القاهرة بدقة ، ولكنه لم يلتزم هذه الدقة عند التطرق إلى التفاصيل ، ولكن الذى لاشك فيه أنه استطاع من خلال تركيزه على الحياة الداخلية للشخصيات أن يجسد أسلوب الحياة القاهرى والذى ساد فترة طويلة ، ولاتزال بقاياه فى حياتنا .

أسماء الشوارع التى ورد ذكرها فى الثلاثية وأسماؤها الآن :

(الاسم القديم)	(الاسم الحالى)
● شارع بين القصرين	● شارع المعز لدين الله
● ميدان المحطة	● ميدان رمسيس
● شارع نوبار	● شارع الجمهورية
● ميدان الإسماعيلية	● ميدان التحرير
● شارع فؤاد الأول	● شارع ٢٦ يوليو
● شارع الملكة نازلى	● شارع رمسيس



تمثال نهضة مصر

الزمان : ٢٠ مايو ١٩٢٨ .

والمكان : ميدان محطة مصر

الألوف من المصريين جاءوا من جميع أنحاء مصر ليشهدوا هذا الاحتفال المهيب ، إزاحة الستار عن تمثال نهضة مصر وفى منتصف الساعة السادسة بعد الظهر بدأ الجند فى إنزال الستار بشيء من الهوادة والبطء ، مما جعل التمثال يظهر للناظرين رويدا رويدا ، ولم يكد يبدو رأس الفلاحة المصرية التى توقظ أبو الهول من رقدته حتى سرت رعشة فى نفوس الواقفين جميعا .

هذا التمثال الذى نقل من مكانه منذ عدة سنوات ، ويتوارى الآن فى الجيزة بين مجموعة من العمارات الضخمة ، وأمام سور حديقة الحيوان ، تحيط به فصول أحداث كبيرة ربما غابت عن أذهان جيلنا الحالى . .

نعود إلى يوم الأحد ٢٠ مايو سنة ١٩٢٨ ، فى أقصى ميدان المحطة ، وبين مجموعة من الأصدقاء ، وقف عبقرى مصر الفنان مختار ، كان متواريا عن مراسم الاحتفال الرسمية ، وعندما بحثوا عنه لم يجدوه ، وكاد اختفاؤه يسبب حرجا للمشرفين على الحفل خاصة أن الملك فؤاد

كان قد طلب رؤيته ، وأخيرا عثروا عليه واقفا بمنأى عن الضجيج والمراسم يتأمل عمله الفذ الذى ولد من رحم الأمة المصرية .

بداية الفكرة

كانت مصر فى بداية القرن تشهد نهضة كبرى ، وكانت هذه النهضة تنعكس فى كل المجالات ، فى الأدب كانت النصوص تتحرر من السجع والزخرفة ، فى الموسيقى كان سيد درويش يغوص حتى أعماق الروح المصرية مبدعا ألحانه العبقرية المستلهمة أساسا من الروح المصرى ، وكان شعراء العصر مطران وشوقى وحافظ إبراهيم يترنمون بمجد الأجداد ، وبعد طول انقطاع بدأت الأواصر والأسباب تتصل بماضى مصر البعيد ، كانت فكرة بعث المجد القديم هى روح العصر ، واتخذ المصريون عنوانا لظاهر نهضتكم أو حياتهم أسماء تؤكد هذه الفكرة فالمسرح يحمل اسم رمسيس ، والجماعات والمنشآت تسمى بأسماء : آمون ، والأهرام ، وأبو الهول ، وكانت الجلابيب الزرق هى التى صنعت ثورة ١٩١٩ ، كانت هذه الإرهاصات كلها هى التى أدت إلى تلك الثورة وفى الفن التشكيلى ظهر الاتجاه واضحا إلى الروح المصرية ، وهكذا اتجه راغب عياد ومحمد حسن ويوسف كامل إلى تصوير الأحياء الشعبية والقرية ، وظهر فن محمود سعيد المشبع بروح مصرية وشرقية حميمة ، كيف بدأت قصة تمثال مصر ، لندع مختار بنفسه يرويها ، من خلال الحديث الصحفى الذى أدلى به إلى جريدة البلاغ فى ١٨ يناير ١٩٢٧ .

يقول مختار:

وكان ذلك فى سنة ١٩٢٠ وكنت حينذاك بباريس ، حيث اشتركت فى المعرض العام ، وليس الاشتراك فيه أمرا سهلا لأن اللجنة صارمة جدا فى أحكامها ،ويكفى أن أقول لك ، إن الذين يتقدمون إليه لا يقل عددهم عن خمسة آلاف أو ستة آلاف ، واللجنة تختار منهم ستين أو



سبعين حفارا تمنحهم الجوائز ، ومجرد الاشتراك فى ذلك العرض يعد فخرا كبيرا للفنانين مثلنا ، وقد لفت التمثال لما عرضته هناك أنظار اللجنة ، وكان لى شرف أن أنتخب من بين الفائزين ، ولا يسعنى إلا أن أشكر الأمة المصرية التى قابلت هذا الخبر بالابتهاج ، ومنذ ذلك الحين تكونت فكرة إقامة التمثال فى مصر . .

الدعوة والاكتتاب

كان التمثال فى البداية إذن أصغر حجما بكثير من التمثال الحالى ، كان نموذجا لما أصبح عليه فيما بعد ، عرض فى باريس ، وبعد فوزه كتب مجد الدين حفنى ناصف أربع مقالات عن التمثال فى جريدة الأخبار التى كان يصدرها المرحوم أمين الرافعى ، وكانت هذه المقالات بداية التعريف بالتمثال وأعقبتها مقالة للدكتور حافظ عفيفى يدعو جريدة الأخبار إلى القيام باكتتاب عام لإقامة تمثال نهضة مصر فى أحد ميادين العاصمة ، وكتب أمين الرافعى فى نفس الاتجاه ،وفى ٢ مايو ١٩٢٠ كتب ويصا واصف فى جريدة الأخبار . . .

امرأة مصرية فلاحة ، واقفة ، رافعة الرأس ، تمثال أبو الهول ، هذه الفلاحة واقفة يدها اليمنى على رأسه تدعوه للنهوض من رقاده وهو قد سمع هذا النداء فرفع رأسه نحوها وأخرج صدره من الرمال ، وأذناه تصغيان لنداء من تستنهضه ، هذا هو تمثال مختار ، ولست فى حاجة إلى تحليل هذا الابتكار الفنى الجميل .

رحب المرحوم أمين الرافعى بالفكرة ، ونشر نداء الاكتتاب تحت عنوان «نهضة مصر» - دعوة إلى الأمة المصرية .

ولاقت الدعوة صدى هائلا بين كافة المصريين ، تحمس الجميع للفكرة تلاميذ صغار أرسلوا كل مدخراتهم ، سيدات يبعن مصاغهن من أجل إقامة التمثال ، وظهر بين رجال الأزهر دعاة لإقامة التمثال ، وكان

بعضهم يجمع له التبرعات بعد الصلاة ، وارسل الفلاحون تبرعاتهم من أقصى القرى ، ومن جوف النجوع والكفور ، ويقدم بدر الدين أبو غازى فى كتابه الضخم عن مختار ، نصوص رسائل بعث بها بعض المواطنين من كافة أنحاء مصر .

رسالة من الفاعل «الشحات إبراهيم الكيلانى» بهندسة السكك الحديدية انطوت على ستمائة مليم قيمة تبرعه .

إننى رجل فقير جدا ، أشتغل بهندسة السكك الحديدية الأميرية ، بوظيفة فاعل ، ويوميتى ٧٠ مليما ومتزوج بيتيمة الأب ، وأم زوجتى تبيع ترمسا ، ولى شغف بقراءة الصحف عن عهد النهضة المصرية الأخيرة ، بينما كنت جالسا أقرأ جريدتكم الغراء بكيت بكاء شديدا ، فسألتنى زوجتى عن سبب بكائى وأخبرتها عن التبرع لتمثال نهضة مصر ، ولم يكن معى نقود أتبرع بها خلاف ٢٠٠ مليم ، فقالت زوجتى أنها تتبرع بمائة مليم أيضا ، وقالت امها مثلها ، وكذلك فعل أخوها ، وعمره ١٥ سنة ، أما أختها البالغة من العمر ١٣ سنة فقالت أنها لاتمتلك الا ٥٠ مليما فتبرعت بها ، ولى طفل عمره سنة ونصف كانت أمه وفرت له خمسين مليما فأحضرتها فأصبح المجموع ٦٠٠ مليم فأرجوكم أن تتقبلوا منا هذا المبلغ القليل لتوصيله إلى أمين صندوق تمثال نهضة مصر ، وتتوسطوا فى قبوله ، ونكون لكم من الشاكرين .

وتلك امرأة مصرية تقول فى رسالتها .

إننى أرسل إليكم مع هذا خمسة وعشرين جنيها آملة أن يكون ذلك فاتحة اكتتاب كبير تقوم به سيداتنا العاملات حتى تبرهن المرأة المصرية مرة أخرى على أنها لاتتردد فى الاشتراك فى كل مايعود على مصر بالنفع والخير .

«حرم حسن الشريف»

وثمة قائمة تبرعات أخرى من . .

نحن المتبرعين بهذا (١ جنيه و ٦٥٠ مليما) فقراء كفر معوض بندر الزقازيق نتقدم إلى أغنياء الزقازيق طالبين منهم مشاركتنا فى الاكتتاب لتمثال نهضة مصر ، حتى نكون قد تساوينا بغيرنا من البلدان الأخرى ولهم الشكر مقدما . .

هكذا انهالت التبرعات من أجل إقامة التمثال . . لحظة نادرة تهب فيها الأمة المصرية ، ويبدو عنصر المشاركة كأقوى مايكون ، تذكرت ذلك وأنا أقرأ مئات الرسائل التى كان الأطفال والكبار يكتبونها إلى الجنود المصريين الذين لايعرفونهم معرفة شخصية لتصل إليهم فى خنادق الجبهة وتمنحهم دفئا وثقة .

ولاأظن أن معظم آثارنا قد بنيت إلا بهذه الطريقة ، التى اكتتب بها الشعب لإقامة تمثال نهضة مصر .

التنفيذ

تشكلت لجنة عليا لإقامة التمثال ، وبلغ مجموع التبرعات ستة آلاف وخمسمائة جنيه ، وطلبت اللجنة من الحكومة إقامة التمثال فى ميدان المحطة ، فى مدخل العاصمة ، وقرر مجلس الوزراء فى ٢٥ يونيو ١٩٢١ الموافقة على ذلك ، على أن يكون إنشاء القاعدة والتمثال تحت إشراف وزارة الأشغال ، ولكن اعتراف الحكومة الرسمى بالتمثال لم يحل دون عدة عقبات ، فالعائلة المالكة كانت ضد التمثال ، إذ كانت رغبتها تتلخص فى إقامة تمثال للخديو إسماعيل ، أو الملك فؤاد ، ومن هنا شنت حربا خفية ضد التمثال ، تمثلت فى العديد من العقبات ، كنفاذ الاعتمادات المخصصة لقطع أحجار الجرانيت من أسوان ونقلها ، ولكن المرحوم ويصا واصف استطاع بعد عرض الأمر على البرلمان أن يحصل على اعتماد آخر لمواجهة نفقات التمثال ، ثم تعطل العمل مرة أخرى بحجة إعادة النظر فى موقعه ، واقترح صالح عنان وكيل وزارة الأشغال إقامته فى ميدان قرة ميدان ،

أو عند حديقة الحيوان القديمة ، ورأى تشكيل لجنة من ذوى الذوق للنظر فى صلاحية التمثال ، وتعرض الفنان مختار لبعض من المضايقات البروقراطية ولكن التمثال كان قد أصبح رمزا لإرادة مصر ، واستطاعت هذه الإرادة أن تقهر رغبة القصر والحكومة ، وفى سنة ١٩٢٧ طلبت وزارة الأشغال من مختار أن يتم التمثال خلال ثلاثة عشر شهرا ، وكان أن أتمه مختار فى ستة شهور فقط .

الجرانيت والصلابة

لم يكن التمثال معبرا عن إرادة مصر فى التكوين الفنى فقط ، بل فى المادة التى صيغ منها أيضا ، لقد قرر مختار أن تكون المادة التى ينحت منها ، هى الجرانيت ، أصلب مايوجد من أنواع الحجارة ، لقد وقع اختياره عليه لأن قدماء المصريين كانوا يصنعون تماثيلهم منه ، أراد أن يربط الماضى بالحاضر ، وكأنه يعود إلى ألفى سنة إلى الوراء ويقطع الجرانيت من نفس الأمكنة التى كان الأجداد يقطعون منها الحجارة اللازمة لإقامة تماثيلهم ، تلك الأماكن التى لم تمتد إليها يد منذ آلاف السنين ، لقد عجز الرومان والإغريق والفرس عن تطويع مادة الجرانيت ، وأخيرا جاء مختار لينحت تمثاله من نفس الحجر الصلب الذى كان يستخدمه الأجداد ، وبلغ من صلابة الحجر أنه خصص عدة صناع بجوار مكان العمل لاهم لهم إلا صناعة (الأجنات) التى تتكسر يوميا أثناء عمل مختار ، لقد كان الحديد عاجزا عن الصمود فى مواجهة صلابة هذا الحجر ، لقد مدت خطوط حديدية ،وخصصت عربات خاصة لنقل أحجار الجرانيت من مقالعها فى أسوان وكان مقر عمل مختار فى نفس مكان إقامة التمثال ، أى فى ميدان محطة مصر ، والجرانيت فى شكله الأصلى حجر خشن الملمس ولكن تمثال نهضة مصر فى صورته النهائية ناعم الملمس ، يميل لونه إلى الاحمرار ، وهو يشبه التماثيل الفرعونية

القديمة ، واستمر مختار يعمل فيه باذلا جهدا خارقا حتى ظهر التمثال فى ٢ مايو سنة ١٩٢٨ للناس ، وكان عيدا قوميا كبيرا ، تجسدت فيه إرادة مصر ، فى ذلك التمثال الذى حوى أكثر من معنى . كانت للتمثال أصداء هائلة فى النفوس ومعنويات الأمة ، وكان له أصداء وانعكاسات على الأدب ، وعبر خليل مطران عن انفعاله بالتمثال فى قصيدة طويلة مطلعها :

أبلغ بما أفـــرغت فى تمثـــال

من مـــأرب غـــال ومـــعنى عـــال

فن بذات له الحـــيـــاة مـــثـــابرا

فى حـــومـــة الآلام والأعـــمـــال

وأنشد أحمد شوقى فى قصيدة مطلعها :

جـــعلت حـــلاها وتمثـــالهـــا

عـــيـــون القـــوافى وأمـــثـــالهـــا

وأرسلتـــهـــا فى ســـمـــاء الخـــيـــال

تجـــر علـــى النـــجـــم أذيـــالهـــا

وكتب جورج جراب أمين متحف رودان فى مقدمة كتالوج معرض مختار الذى أقامه بباريس سنة ١٩٣٠ ، مشيدا بتمثال نهضة مصر . .

إن هذا التمثال يعد فى نظرى من أقوى قطع النحت المعاصر ، وإن أبا الهول الذى أقمته فخورا ليذكرنى - وهذا ثناء - بأبى هول أمنحتب الثالث بمتحف القاهرة ، وهو يشق لك طريقا واسعا مما قطعته وأكثر جدارة بموهبتك الفذة . .

زخرفة.. ألف ليلة..

مدينة فاس ١٩٧٩ ..

أحد أيام ديسمبر ، أى منذ عشر سنوات تقريبا ، وقفت فى فناء مدرسة العطارين ، أتأمل النقوش التى تغطى الجدران ، قطع الزليج الدقيقة ، المختلفة ، التى تشكل وحدات زخرفية رائعة ، متصلة ،منفصلة ، لانهائية ، تبقى الناظراليها فى تأمل دائم ، أما المقرنصات الجصية ، والخشبية ، فتتراكم فى تجاور بديع ، لايلقى خصوصية كل منها .

يومها انبثق داخلى ، الخاطر : لو أننى أقدر على تحقيق ذلك فى النثر ، أكون حقا أنجزت أمرا فريدا ، إن على مستوى اللغة ، أو على مستوى التكوين ، وبالأخص ، المعمار الروائى ، ولأننى أومن أن الرواية هى فن كل الفنون ، لم يزل هذا دأبى ، وجوهر جهدى ، يدفعنى إلى ذلك الرغبة فى تحقيق الخصوصية ، من خلال عناصر مختلفة ، متصلة أوثق الصلة بالمضمون ، بمشاعرى ، برؤيتى للحياة ، والكون ، ومحاولتى النفاذ إلى كنه الصيرورة صيرورة الزمن ، والوقت .

ومع معايشتى لألف ليلة وليلة ، اكتشفت أن القصاص القديم حقق هذا بالفعل ، وأن الرؤية التى كانت تحكم الفنان العربى المسلم ، سواء كان خطاطا ، أو رساما ، هى نفس الرؤية التى كمنت فى عمل الراوى القديم المجهول الذى صاغ هذه الحكايات ، أو تلك الملاحم الكبرى ، مثل الهلالية ، وسيرة سيف بن ذى يزن ، وذات الهمة ، وعنترة ، واستمر فى التوقف عند ألف ليلة وليلة التى اعتبرها ذروة فن القص العربى ، وعندما أقول العربى ،

فإننى أعنى الميراث الثقافى والفنى الداخل فى عناصر تكوين الثقافة العربية ، والمنتمى إلى حقب تاريخية مختلفة ، وديانات متعددة وحضارات متعاقبة ، متجاورة ، ومؤثرات وافدة ، متفاعلة من ثقافات أخرى .

يقول الباحث التونسى الأستاذ على اللواتى : إن التجريد الزخرفى ، بدأ من تبسيط الأشكال النباتية ، بدأ هذا الفن انطلاقه فى العصر العباسى ، وتحول الفن الإسلامى فى جزء كبير منه إلى فن نقشى يجسد كلام الله ، ناشرا آياته فوق كل شيء يصنعه الإنسان ، كما أصبح فنا للزخرفة النباتية والهندسية ، زخرفة مطلوبة لذاتها ، لا لمجرد التزيين ، وهو أيضا فن خصب ومتنوع بشكل مذهل ، ويرمى هذا التزويق بتنوعه الخارق ، وإيقاعه المتواصل «ذهنيا» خارج المادة التى تحمله ، إلى إيجاد متعة منقطعة النظير ، تتصل بالتأمل فى الله ، المقتدر غير المحدود الذى يعجز الإنسان عن وصفه ، وذلك بعيدا عن أى شكل طبيعى معروف ومحدد ، يمكن أن يلهى الإنسان عن وجهه الكريم .

لقد أدت النصوص المقدسة والقائلة بتحريم التشبيه إلى إيجاد فن بالغ الخصوصية ، قائم بذاته ، ولايتعارض مع أحاديث النهى عن التصوير ، لقد لجأ الفنان المسلم إلى عدد من الأساليب التشكيلية التى ترمى إلى الابتعاد عن نقل الواقع كما هو إلى الصورة .

ويرى الباحث الأوربى ألكسندر بابا دوبولو ، أن الفنان المسلم تكيف مع مطالب النهى الدينى ، وأدى هذا إلى تصور خاص جدا للعمل الفنى فى الحضارة الإسلامية ، وهو أن هذا العمل ينبغى ألا يكون مرآة أمينة للعالم المرئى ، بل عالما خاصا من الأشكال والألوان يحكمه منطق تشكيلى داخلى ، ويؤكد بابا دوبولو فى بحثه الذى ناقشه فى جامعة السوربون وترجم مقدمته على اللواتى ، أن الفنان المسلم قد اخترع جمالية الفن الحديث قبل ستة أو سبعة قرون وأن جوهر كل فن وقانونه الأسمى هو أن يكون عالما مستقلا وأن لايخضع إلا لمنطقه الخاص .

عندما صاغ الفنان التشكيلى المسلم رؤيته تلك ، كان يستمد عناصرها من التراث الإنسانى القديم ، وإذا نظرنا إلى الاشكال الرئيسية فى فن الزخرفة العربى سنجد أصولها فى ثقافات العالم القديم .

المربع ، أصله يونانى ، ويرمز إلى العناصر الأساسية الأربعة التراب ، الماء ، الهواء ، والنيران .

المثلث فينحدر من العصر الفرعونى ، يعبر عن الصلة بين السماء والأرض ، بين البداية والنهاية التى تتلاشى فى نقطة من الفراغ . نقطة اتصال المادة بالروح أليس هذا مايوحى به بناء الأهرام ؟ وأعتقد أن المثلث الفرعونى هو الأصل التاريخى للنجمة السداسية التى أخذها الإسرائيليون واعتبروها رمزاً لهم .

أما الدائرة ، فأصلها مصرى وهندى ، ترمز إلى الشمس ، إلى أفق السماء ، إلى الوحدة ، إلى البداية والنهاية ، إلى الاتصال والانفصال فى كل نقطة من محيطها تبدأ وتنتهى أيضا . تماما كدورة الحياة . كالحياة التى تتضمن الموت ، والموت الذى تنبعث منه الحياة . إنها المحيط الذى يدور حول المركز .

فلنعتبر أن الحكاية التى تبدأ منها قصة شهر زاد نفسها هى مركز الدائرة ، وهى منطلق الخط المستمر ، اللانهائى ، الذى يحيط ويتخلل أيضا ماتحويه الليالى من حكايات .

داخل الدائرة يمكن أن يتم فى فراغه تشكيل المربع ، والمثلث وشبه المنحرف ، والمستطيل ، ثم تجزؤ المساحات الناشئة إلى مالا نهاية .

اما شكل اللولب . المستوحى من كرمة العنب فأصلة سومرى ويونانى .

أما المخمس فيونانى ، والمثمن ، فينسب إلى الخاتم السليمانى .

ثم تقابلنا بقية الأشكال من عقد ، وضفائر ، وأطباق نجمية ، وشبكات ، وتختلط المؤثرات المنحدرة من فنون العالم القديم ، منصهرة فى رؤية الفنان المسلم الجديدة ، التى حققت بالفعل الخصوصية . .

لايعنى ثبات هذه الأشكال جمود الفن الإسلامى الزخرفى ، ومضيه وفقا لقواعد محددة ، إنما كان هم الفنان وشغله الشاغل البحث عن تكوين جديد مبتكر يتولد عن تماس قواطع الزوايا ومزاوجة الأشكال الهندسية لتتوالد باستمرار فى حيوية وتدفق لا نهائيين . ويقابل هذا فى ألف ليلة الوحدة والتنوع ، فالعمل يحفل بمئات القصص التى تختلف شكلا ومضمونا . عوالم متتابعة ، تبدو متصلة لكنها مستقلة .

فى الرسم الزخرفى الإسلامى ، تتأمل الوحدة ، وفى اللحظة التى يخيل إليك أنها انتهت ، تفاجأ عند نقطة معينة فى الفراغ أن الوحدة التالية تبدأ ، تماما كقصص ألف ليلة وليلة . إذ توشك الحكاية على التمام ، على الاكتمال ، تبدو جملة وكأنها عارضة ، يضرب مثل وكأنه قيل مصادفة ، كلمات قليلة لكنها تؤدى إلى بداية حكاية جديدة ، والدافع يكون غالبا الحَكْى من أجل النجاة . شهر زاد تقص كل ليلة مايقرب من ثلاث سنوات متصلة حتى تنقذ نفسها ، وبنات جنسها ، التجار الثلاثة يحكى كل منهم ماجرى له ، مع الغزالة ، والكلبتين ، والبغلة ، ليعفى الجنى عن صاحبهم ، هكذا الأمر فى قصة الحمال والبنات الثلاثة . هذه القصة التى أدعو المتخصصين إلى دراستها ، وتحليل عناصرها ، ومقارنتها بالأشكال الزخرفية العربية ، مبدئيا سنجد أنها تحتوى على اثنتى عشرة حكاية متداخلة ، تشبه النجمة الزخرفية الإثنى عشرية ، لكن هذا التقسيم ليس نهائيا ، فلو أمعنا النظر سنجد أنه من الممكن تجزىء هذه القصص المتداخلة إلى أخرى وعندما توشك القصة المركزية المحيطة على الانتهاء ، تبدأ قصة التفاحات الثلاث ، ومنها تتفرع حكاية المرأة التى قتلت ظلما ، وحكاية الوزيرين نور الدين المصرى ، وبدر الدين البصرى ، ومن ثم حكاية حسن البصرى ، ثم

حكاية ابنه ، وحكاية زوجته ، ثم تبدأ قصة الأحدب الذى يتهم بقتله أربعة الواحد تلو الآخر ، لكل منهم حكايته ، آخرهم الزينى الذى يقص سبع قصص ، كل واحدة تتعلق بأحد إخوته ، وهكذا إلى مالا نهاية ، حتى وإن بدا ثمة خاتمة فإنها تتضمن بداية جديدة .

تمضى الخطوط فى فن الزخرفة العربى وفقا لنظام خفى . صارم لكنه تلقائى أيضا يتقاطع الخط بالخط عند نقطة معينة ، فكأنه تقابل المصائد ، وفى اللحظة التى تلتحم فيها النقطة بالنقطة ، يقع الفراق ، فتتخذ الخطوط وجهات شتى .

وخلال هذا التلاقى والتفرق تتوالد الأشكال المختلفة ، من مربعة مخمسة ومسدسة من هندسية وأخرى مورقة . إن الغاية من التكوين هنا هى التعبير عن الكل ، وليس إبراز شكل معين لذاته ، لكن هذا الكُلى أيضا يحتوى على الموجودات والتفاصيل الصغيرة الدقيقة ، وربما يفسر هذا التطور الإسلامى فى المنمنمات التى تزين المخطوطات القديمة ، حيث تتجاور المستويات ، ويتفرع كل منها عن الآخر ، فترى الواقع فى جملته ، وليس فى محدوديته ، وإن لم يغب عن الناظر أدق التفاصيل .

من خلال معايشتى لألف ليلة وليلة ، أقول بوجود صلة وثيقة بين فن العمارة الإسلامية ، وفن الزخرفة العربى صلة نتاج تكوين خاص ورؤية لعل إدراكها والوعى بها يسهم فى فهم عناصر القص العربى واستيعابها من أجل الوصول إلى أشكال خاصة تسهم فى إتاحة فرصة أكبر ومساحة أوسع للتعبير .

ماطرحته يمثل الخطوط العامة لاجتهادات شديدة الخصوصية تبلورت عندى أثناء معايشتى لهذا العمل الفذ الذى أزعم أن اسراره لم تتكشف بعد . ربما أصبت وربما أخطأت ، لكننى فى كل الأحوال أشير وأحاول لفت النظر . . ولكن لايتوقف الأمر عند الزخرفة ، بل أرى ثمة علاقة بين تصميم المدن وتصميم ألف ليلة .

مدينة ألف ليلة و ليلة..

أعايش ألف ليلة وليلة ولاأقرأها ، لا أقول قراءة وإنما معايشة ، هذا دأبى مع النصوص الأدبية العظمى ، إن فى أدبنا العربى أو الآداب الأخرى ، عرف معظمنا ألف ليلة وليلة منذ الطفولة ، سفر حكايات وأعاجيب ، ومع بدايات المراهقة كنا نطالع سطورا قليلة تحوى إشارات جنسية ، سطور جعلت الكتاب منبوذا إلى حد ما حتى بعد حذفها من الطبعات الحديثة ، بدأت فوضعت أمامى طبعات ثلاث رئيسية اجتهدت زمنا حتى اقتنيتها ، طبعة كلكتا ، طبعة بولاق ، وأخيرا . . طبعة الدكتور محسن مهدى ، بدأت من الأخيرة مع أنها صدرت منذ سنوات قليلة ، وأين . . فى بريل ، دار النشر الهولندية العتيقة التى أصدرت عددا من أهم المصادر العربية ، هذه الطبعة تحوى أقدم نصوص مكتوبة عن مخطوطات محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس ، وأخرى توزعت على العديد من البلدان ، وفى حدود علمى فمحاولة الدكتور محسن مهدى الأولى من نوعها لضبط وتحقيق أصول النص ، أما طبعة كلكتا فهى أول طبعة للكتاب(١٨١٤) ، أما طبعة بولاق (١٨٣٥) فهى أشهرها لأنها كاملة ، ولأنها اعتمدت أصلا خطيا واحدا ولست هنا فى مجال تقييم الطبعات الثلاث ، أو تقييم الجهد العلمى الرائع الذى قام به الدكتور محسن مهدى ، إنما أشير فقط إلى بعض الانطباعات الخاصة المتولدة نتيجة معايشتى لهذا النص العالمى ، الذى تأثر به الأجانب أكثر مما تأثرنا نحن به والنقطة التى تعنينى الآن ، هى انعكاس الفنون العربية والإسلامية على تصميم الكتاب وبنيته الداخلية ، بالتحديد العلاقة بين تصميم المدن العربية وفن الزخرفة العربى وبين تصميم ألف ليلة وليلة .

القاهرة القديمة ، فاس البالية بالمغرب ، مراكش ، صنعاء العتيقة ، البصرة مدن عربية عرفتها ، وعايشتها ، فى الأولى أمضيت جل عمرى ، وفى الأخريات تجولت وشاهدت وعاينت ، وفي عام ألف وتسعمائة وخمسة وثمانين ، ولكت قصبة تونس ، شارع رئيسى مؤدى عريض :

تماما مثل قصبة القاهرة التى كانت تصل بين بواباتها الرئيسية وقلعة الجبل ، هذه الطرق الفسيحة تتفرع منها خطط ، جمع خط أى طريق طويلة تحيط بناحية متكاملة ، وهذه الخطط تؤدى إلى بوابات كل منها مدخل إلى حارة ، والحارة داخلها مجموعة من الدروب والدروب تتفرع إلى أزقة ، أو زنقات كما تعرف فى المغرب ، وأحيانا تحتوى الزنقة على عطفة ، هكذا يتوالى تصميم المدينة العربية القديمة من الأفسح إلى الضيق ، فالأضيق ، طبعا هناك مركز دينى وهو المسجد الجامع ، ومركز دنيوى هو قصر الحاكم أو القلعة .هذا تصميم لم يأت من فراغ ، إنما هو نتاج حاجة اجتماعية ، مناخية ، ومعمارية وعسكرية ألم تؤدى متاهات قصبة الجزائر إلى جعلها مقرا للمقاومة ، صعب على الجند الأغراب اختراقها ؟ نفس الوضع واجهه نابليون فى القاهرة القديمة مما دفعه إلى محاولة إزالة أبواب الحارات . فى الطرق الكبرى تنتظم الأسواق ، هنا يجيء المجموع ، يجد الناس حاجاتهم ، ولكن بيوتهم هناك فى داخل الحارات والأزقة والدروب حيث الحيوات الخاصة ، حيث يتجزأ العالم الكبير إلى عوالم صغيرة ، أما هذا التصميم فيؤدى إلى حجب الرياح المثيرة للأتربة الحارة إلى كسر حدتها ، إلى ميل الظل على الظل ، ، الى الرحمة بالمارة ، والحد من التيارات الباردة فى الشتاء ، تصميم يبدأ من الكل ويتجزأ حتى يدق ويخيل إليك أنه سيتلاشى فيبدأ عندئذ من جديد .

إذن . . كيف يبدو الأمر فى مدينة ألف ليلة وليلة التى تحوى البلاد والمحيطات والعجائب والغرائب ، والمصائر والحيوات؟ !

المركز أو البؤرة هنا . . حكاية الأخوان الملكان ، الأول يرى امرأته تخونه مع عبد أسود . يهيج . يخرج قاصدا أخيه يسعى إلى إيجاد تفسير ماجرى له وهناك يرى الجوارى العشر ومعهن امرأة أخيه مع العبيد السود ، ومن يرى مصيبة غيره تهون عليه مصيبته ، يحكى لشقيقه ماجرى ، فيخرجان هائمين ، وفى البر الفسيح تبدأ حكاية العفريت الذى وضع معشوقته فى صندوق محكم ، والتى تنتهز فرصة نومه .

لتجبر شهريز على مواقعتها . وبعد أن رأى شهريار مارأى يعود إلى ملكه كارها النساء مقررا الزواج من المرأة ليلة واحدة فقط ، حتى تتطوع شهر زاد للزواج منه مضمرة الخطة والنية على إنقاذ بنات جنسها ، وإزاء إصرارها يحكى لها والدها حكاية الحمار والثور تصر على قرارها فيحكى لها حكاية أخرى يريد إنقاذها بالحكاية وهى تضمر النية نفسها أيضا تريد إنقاذ نفسها وبنات جنسها بالحكاية أيضا ، فهى تحكى لكى لاتموت ، وهنا سر توالى الليالى ، وليست هى فقط التى تفعل ذلك ولكن معظم الشخصيات التى تروى سيرتها يقدمون أيضا على الحكى حتى لايموتون ويتزوج شهريار من شهرزاد وتطلب هى من أختها دنيازاد أن تطلب منها قص بعض ماتعرفه هكذا تبدأ الليالى وهكذا تتم الحكاية المركز ، والتى هى أيضا بمثابة المدخل ، البوابة الرئيسية المؤدية ، أو السور المحيط ، الملتف ، وهذه البوابة ، أو هذا السور ليس كلا واحدا ، إنما يضم أجزاء عدة أيضا ولكنها أدق تؤدى فى مجموعها إلى الجزئى أيضا .

تبدأ الليالى فى أقدم نصوصها الخطية بحكاية التاجر الذى رمى نواة البلح فقتل جنيا بدون أن يقصد ، وظهور والد الجنى الذى يتوعده بالقتل ، فيطلب التاجر مهلة سنة حتى يعود إلى أهله ويسدد ديونه للناس ، وبعد سنة يرجع فعلا إلى نفس الموضع ويجلس منتظرا وهنا يقدم عليه ثلاثة شيوخ ، لكل منهم حكاية غريبة ، يرجو كل منهم الجنى أن يصغى إلى ماجرى له ، فإذا وجده غريبا يهب له ثلث دم التاجر ، وتتفرع أمامنا ثلاث حكايات ، حكاية الشيخ الأول وامرأته التى سحرته إلى غزالة ، والثانى وأخويه المسحورين كلبين ، والثالث وابنة عمه المسحورة إلى بغلة ، تؤدى الحكايات الثلاث المتفرعة إلى إنقاذ التاجر .

هكذا تنتهى خطة أو حارة لكنها ليست سداً ، إنما تؤدى إلى حارة أخرى ، ونقطة الوصل عبارة ترد على لسان شهر زاد وليس هذا بأعجب من قصة الصياد والعفريت ، و أين هذا مما سأحدثكم به الليلة المقبلة؟

تبدأ الحارة التى تضم حكاية الصياد الذى أخرج العفريت من القمقم ، فقرر العفريت أن يكافئه باختيار طريقة موته ، يتحايل عليه الصياد حتى يعيده الى القمقم ، ويرجوه العفريت الإخراج منه وهنا يتفرع درب من الحارة الرئيسية ، يحوى حكاية يرويها الصياد عن الملك يونان ، ولكن هذا الدرب يتفرع إلى آخر فيه حكاية التاجر والببغاء التى يرويها الملك يونان نفسه ، وهذا الدرب يؤدى الى رحبة صغيرة يخرج فيها العفريت من القمقم ، بعد أن يقرر مكافأة الصياد ، ثم تتفرع الرحبة إلى عدة دروب وأزقة متداخلة فالعفريت يقود الصياد إلى بركة السمك الملون ، ومنها يأخذ الصياد أربع سمكات إلى السلطان لكل سمكة حكاية ، هذا يقود إلى حكاية الشاب المسحور ثم إلى حكايته مع زوجته التى خانته ، ثم حكاية المدينة المسحورة التى تقع على بعد نصف نهار عند ذهاب الصياد بمفرده إليها ، ولكن عندما يصاحب السلطان ويقف على ماجرى فيها ، يكون الركب كله فى حاجة إلى سنة كاملة للعودة (لننظر هنا إلى تحطيم الزمن والمسافات المكانية ، ولكن هذا موضع آخر) .

ينتهى الخط الذى يحوى حكاية الصياد والعفريت ، هذا الخط الذى تفرعت منه حكايات شتى ، كل منها بمثابة حارة أو درب زقاق عطفة ، رحبة ، لتبدأ حكاية أخرى من أجمل وأعقد حكايات ألف ليلة وهى حكاية الحمال والثلاث بنات .

يلتقى الحمال بإحدى البنات فى السوق ، تقوده إلى البيت حيث شقيقتيها ، يشترطن عليه إلا يتكلم عما يشاهده ، ثم يصل القرندليان ،ثم يصل الخليفة هارون الرشيد ووزيره ، وهارون الرشيد شخصية تتكرر كثيرا فى حكايات ألف ليلة وليلة ، إن ظهورها يمثل أحد عوامل الوحدة فى هذه المدينة الهائلة ، أو النغم الذى يتكرر على مساحات معينة يؤكد وحدة العمل وتماسكه .

البنات يعرضن ، يضربن بعضهن ، ويجلدن الكلبتين السوداوين ، الخليفة لايطيق صبرا ، يريد أن يعرف حكايتهن ، يدفع بالحمال كى

يسأل ، البنات يغضبن ، يستدعين العبيد السود السبع يأمرن بقطع رقاب الضيوف ولكنهن يستفسرن عن سبب عودة القرندلية فتبدأ حكاية القرندلى الأول ، كيف فقد عينه على يد الوزير؟ ومنها تتفرع حكاية أخرى ، عن ابن عم القرندلى ثم تتوالى حكايات القرندلى الثانى ثم الثالث ، والتى يرد فيها ذكر جبل المغناطيس ، والقصر المعلق فى الهواء ، والجوارى الأربعين ، والباب التاسع والتسعين .

بعد انتهاء حكايات القرندلية الثلاثة ، تقص البنات الثلاث ماجرى لهن ، وتنتهى حكاية الحمال والثلاث بنات ولكنها لاتؤدى إلى جدار مسدود ، إنما تبدأ منها حكاية التفاحات الثلاث .

هكذا تتوالى الحكايات ، منها الرئيسى ، والفرعى ، كل حكاية تؤدى إلى الأخرى يبدو الأمر تلقائيا ، وكأنه بدون ترتيب ، أويخضع لتداعى تلقائى ، ولكننا إذا أمعنا النظر سنجد نظاما محكما صارما ، ربما لايفصح عن هندسة البناء وحركاته واتجاهاته للقارئ المتعجل ، أو الذى لايقرأ ألف ليلة وليلة قراءة عميقة جادة متعمقةغير متأهبة بنفس القدر الذى يتم به التأهب للتعامل مع نص أدبى نقل إلى لغتنا مما تعارفنا على تسميته بالأدب العالمى!

فى النص الذى حققه الدكتور محسن مهدى قصتان مستقلتان ، لايتفرعان من حكايات فرعية ، إنما يتصلان بالحكاية الإطار ، الحكاية الكبرى التى محورها شهرزاد نفسها ، إنها حكاية ابن بطار والجارية شمس النهار ، وحكاية أنيس الجليس ، ونور الدين بن خاقان ، إننى اعتبرهما بمثابة ضاحيتان لمدينة ألف ليلة وليلة الكبرى ضاحيتان منفصلتان لكنهما متصلتان .

ولكن علاقة النص الأدبى بالمدينة العتيقة ، لايمثل الوجه الوحيد للتفاعل والتشابه بين الفنون العربية المختلفة ، هناك فن الزخرفة وتكويناته ، ووحداته المتشعبة المنفصلة المتصلة ، ولهذا حديث آخر أبسط فيه بعضا من انطباعاتى المتولدة نتيجة معايشة نص أدبى رفيع ، أتصور أنه ذروة ماقدمته الإنسانية من فن الحكى والقص .

دار الطــراز



رغم أن مايفصلني عن الشاعر المصرى ابن سناء الملك حوالى ثمانية قرون ، إلا أننى دائم الصلة به عبر قراءة أشعاره الجميلة فى ديوانه المطبوع فى القاهرة عام تسعة وستين حققه وقدم له محمد إبراهيم نصر .

أشعار «ابن سناء الملك» أنيقة رقيقة نجد فيها السهل الممتنع وتفيض بالقدرة على فهم أسرار الحياة وكثيرا ماكنت أشعر بالعصر كله من خلالها . ولكن ثم ماجذبنى إلى ابن سناء الملك غير شعره ، إنه كتابه عن الموشحات ، والموشحات فن مازال حياً ، نستمتع به ونصغى إليه ، بدأ فى الأندلس ، ونقله ابن سناء الملك إلى المشرق هذا دور مجهول لشاعرنا الكبير ، وهو أول من كتب فيه وسمى مؤلفه النادر اسما جميلا يليق حقا بالموشحات .

«دار الطراز» العنوان موحى بالجمال والتوشيحات ، عنوان أندلسى ، رغم أن مؤلفه مشرقى ولكنه أديب ذواقة للجمال ، طبع الكتاب فى دمشق ، وقد بحثت عنه زمنا طويلا حتى فوجئت بنفسى فى مواجهة «دار الطراز» غلاف بنى اللون بسيط ، يحمل زخارف عربية . كان ذلك فى إحدى المكتبات المغربية بالدار البيضاء دار الطراز فى عمل الموشحات . تأليف القاضى السعيد أبى القاسم هبة الله بن جعفر ابن سناء الملك

تحقيق الدكتور جودت الركابى الطبعة الثالثة لم أنتظر عودتى إلى القاهرة ، إنما فرغت إلى نفسى فى الفندق بعد أن وضعت الكتاب

على مقربة ، أتأمله محتفيا به ، متأهبا له ، وسرعان ماولجت دار الطراز متشوقاً . .

صاحب الدار

من هــو ؟

يقول المحقق الدكتور جودت الركابى : هو أبو القاسم هبة الله بن القاضى الرشيد أبى الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك الملقب بالقاضى السعيد ، شاعر مفتن ، أول من أدخل فن الموشحات إلى الشرق .

ولد بالقاهرة أو ضواحيها حوالى سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥م) ، ونشأ وافر السعادة فى أسرة غنية ، تقلد منصب القضاء كأبيه وكان أحد الفضلاء والرؤساء النبلاء ، قرأ القرآن ، وأتقن الحديث ، ودرس اللغة والنحو على مشاهير عصره ، هكذا أتيح له أن يبرع فى العلوم الدينية واللغوية والأدبية ، غير أن أبرز ماميزه هو ميله إلى الشعر وحبه له ، خاصة فن الموشح القادم من الأندلس ، يقول ابن سناء الملك أنه لم يأخذ هذا الفن عن أستاذ أو شيخ ولم يتعلمه فى كتاب ، غير أن الدكتور الركابى يؤكد معرفته بآثار الشعراء الأندلسيين المتخصصين فى الموشح مثل الأعمى وابن بقى وعبادة والحصرى وغيرهم فى ذلك العصر كان تيار التأنق اللفظى سائداً بين الشعراء وبالتالى كان ابن سناء الملك معجبا بالشعراء الذين اهتموا باللفظ واللغة ، من القدماء أعجب بابن المعتز وأبى تمام ، ومنذ شبابه الباكر توثقت العلاقة بينه وبين القاضى الفاضل ، التقى به فى القاهرة وارتحل إليه فى دمشق ، وتبادل معه الرسائل ، وقد حفظ لنا قسم من هذه الرسائل فى كتاب وضعه ابن سناء الملك عنوانه «فصوص الفصول وعقود العقول» وهو مازال مخطوطاً فى المكتبة الأهلية بباريس : كان تأثير القاضى الفاضل عليه كبيرا ، وكان القاضى الفاضل على رأس الاتجاه المعنى باللفظ وأناقة اللغة ، ولاشك أن هذا مدخله إلى الاهتمام بالموشحات إضافة إلى تفرد الموهبة ورهافة الحس والذوق .

زمن الدار

إنه العصر الأيوبى . بالتحديد . . زمن صلاح الدين مؤسس الدولة والبطل الكبير ، اتصل الشاعر به ومدحه فى قصائد عديدة تعكس حبه له وتقديره ، لقد ذاد صلاح الدين عن الإسلام والعروبة وطهر بيت المقدس من الذين أرادوا العبث به ، هكذا يبدو شعره فى مديح الزعيم العظيم صادقاً ، دافئا ، خلواً من الصنعة .

وفى القاهرة التى عاش فيها كان الزمن الأيوبى زمنا رغداً ، مستقراً ، وكانت ليالى القاهرة حافلة بالسهر ، ومجالس الشعراء ، والمناظرات ، وكان ابن سناء المُلك ينشد الشعر على أنغام الموشحات .

واحتلت داره منزلة خاصة فى المدينة الكبيرة ، وفيها عقدت المنتديات والأمسيات ، وقد وصفها فى شعره ، يقول :

انظر إلى النظرة الناضرة

تزهر مثل الزهرة الزاهرة

أحسن مافى حسنها أنها الـ

دنيا وما ألهت عن الأخرة

فى هذه الدار كتب أشعاره التى وصلتنا فى ديوان كبير حققه وقدم له محمد إبراهيم نصر وصدر فى القاهرة سنة ١٩٦٩ ، وله مؤلفات أخرى منها روح الحيوان ، لخص فيه كتاب الجاحظ وكان مولعا به وبطريقته فى الكتابة وكان يحتفظ بنسخة دون عليها الجاحظ ملاحظاته بخطه .

الكتاب الثانى يضم مختارات من شعر ابن رشيق القيروانى ، وكتاب «مساعد الشوارد» وهذا الكتاب مفقود حتى الآن . أما فصوص الفصول وعقود العقول فتوجد منه نسخة فى باريس ويضم خطابات الشاعر إلى القاضى الفاضل والردود عليها . أما أهم ماوصلنا من كتبه بعد شعره فهذا المؤلف الفريد الذى أتوقف أمامه . أقصد «دار الطراز» .

محتويات الدار

فى المدخل يحدثنا ابن سناء المُلك فيقول :

وبعد فإن الموشحات مما ترك الأول للآخر ، وسبق بها المتأخر المتقدم ، وأجلب بها أهل المغرب على المشرق وغادر بها الشعراء من متردم ، مُلحة الدهر ، وبابل السحر وعنبر الشَحْر . وعود الهند وخمر القفص ، وتبر الغرب ومعيار الأفهام وميزان الأزهان ولباب الألباب ، تُلهى وتُطرب وتؤيس وتطمع وتخلب وتجلب ، وتفرغ وتشغل وتؤنس وتنفر ، هزل كله جد ، وجد كله هزل ، ونظم تشهد العين أنه نثر ، ونثر يشهد الذوق أنه نظم ، صار فى المغرب بها مشرقا لشروقها بأفقه وإشراقها فى جوه . .

ثم يحدثنا عن علاقته بالموشحات :

وكنت فى طليعة العمر وفى رعيل السن قد همْتُ بها عشقا ، وشغفت بها حبا وصاحبتها سماعا وعاشرتها حفظاً ، وأحطت بها علما واستخرجت خباياها واستطلعت خفاياها وقلبت ظهورها وبطونها وعانقت أبكارها وعونها وغصت على جواهرها المكنونة ، وتخطيت من أخبارها المعلومة إلى أسرارها المكتومة ولبثت فيها من عمرى سنين . .

ثم يبدأ فى إطلاعنا على محتويات دار الطراز ، وأولها تعريف وشرح لقواعد الموشح . وهو أول من قام بوضع كتاب مستقل فى أسرار هذا الفن .

هنا يقول الدكتور جودت الركابى فى مقدمته :

ويظهر أن جميع هؤلاء الموشحين الأندلسيين لم يبينوا لنا بصورة واضحة قواعد الموشح ، وإن كنا نرى هنا وهناك فى كتب الشعر والتراجم التى تتحدث عن الأندلسيين كالذخيرة مثلا بعض الإشارات إلى أصول هذا الفن ، ولعل ابن سناء الملك هو أول من قام بهذه المهمة فحاول فى هذا الكتاب الذى ننشره أن يحدد قواعد هذا الفن الشعرى ويبين خصائصه وطرق نظمه وأوزانه فكان بذلك الشاعر الأول المنظم لقواعد الموشح فى المشرق كما فى المغرب . .

فى مقدمة «دار الطراز» يحدثنا ابن سناء الملك عن قواعد الموشح ، وأنواعه وأوزانه وبدايته وقفلاته ، والحديث هنا فنى جدا يصعب تلخيصه لكنه يعكس إحاطة دقيقة وعميقة بهذا الفن الجميل ، ويختتم الشاعر مقدمته العلمية الفريدة بتلك السطور المؤثرة :

«مارأيت أحدا منهم جمع لهذه العدة شملا وكيف ماكان فموشحاتى تكون لتلك الموشحات كظلها وخيالها ، وأشهد أنها ناقصة عن قدر كمالها وها أنت تراها فى الورق . من الفرق ، متعلقة بأذيالها وماذكرتها إلا لأن دار الطراز كما تقدم يكون فيها الحريرى والمذهب والساذج والمعلم ، فذكرت من موشحاتى الحريرى بل الساذج ، وإن يكن مُعْلما فدحرج ، واعبر ولاتعرج» .

ثم يقول ابن سناء المُلك :

«واعذر أخاك فإنه لم يولد بالأندلس ، ولانشأ بالمغرب ، ولاسكن إشبيلية ولاأرسى على مُرسية ، ولاعبر على كناسية ، ولاسمع الأرغن ولالحق دولة المعتمد وابن صادح ولا لقى الأعمى وابن بقى ولا عباد ولا الحصرى (جميعهم شعراء تخصصوا فى الموشح) ولاوجد شيخاً أخذ عنه هذا العلم ، ولامُصنِّفا تعلم منه هذا الفن ، فإن رأيته قد نهض به طبعه ، وأخذ بيده ذهنه ، وأضاء له خاطره ، وهدته قريحته إلى الطريق ، ومشى فيها بلا دليل واستأنس بلا رفيق ، وجدَّ إلى أن وجد ، وطلب إلى أن غلب ، فلا تجحد حق ، واعرف له وزن فهمه ، ولُطْف ذهنه وحس ذوقه وحسن غوصه ، وبعد غوره ، وقدر همته ، وإن رأيت تعليمه لك نعمة ، فاعرف له قدر نعمته ، وإن رأيت خطأ فكن له ساترا ولصاحبه عاذرا ، أو رأيت صواباً فكن له شاهدا ، ولفاعله شاكراً . .

ثم ينتقل ابن سناء الملك إلى القسم الثانى من دار الطراز أو الأول بعد مقدمته ، وفيها يقدم الموشحات المطربية على ترتيب الأمثلة الموشح التام ، الموشح الأقرع قفله من جزءين ، الموشح المركب قفله من ثلاثة ، وخمسة ، وستة ، وثمانية ، ثم الموشح المختلف الأقفال ، ويستمر ابن سناء الملك فى استعراض دقيق لسائر أنواع الموشحات ويورد أمثلة لكل منها . وفى أشعار الموشحات سوف نكتشف أن كثيرا من الموشحات التى

تتردد فى أسماعنا الآن ، تلك التى تغنت بها فيروز ، أو شدت بها صباح فخرى - أو محمد عبد الوهاب وسيد درويش ، وطرق الموسيقى العربية فى العالم العربى ، إنما حفظها لنا سناء الملك ودونها ، مثل هذا الموشح الشهير الذى يقول مطلعه :

ياشقيق الروح من جسدى
أهوى بى منك أم لَمَمُ

أما القسم الثانى من «دار الطراز» فيضم الموشحات التى نظمها المؤلف نفسه ، ونلاحظ أنه صنفها طبقا للأنواع التى ذكرها فى القسم الأول الذى يضم النصوص الأندلسية ، فكأنه يثبت لنا قدرته على النظم فى أنواع الموشحات المختلفة بعد أن أثبت لنا علمه وإحاطته ، ومن أرق موشحاته فى دار الطراز اختار تلك الأبيات التى وردت فى موشح مركب قفله من أربعة أجزاء .

قد أصبح الدهر منه حال
كمعصم زانه السوار
ووجهه قد كسا الليالى
بنوره بهجة النهار
فراح فى خِلعة الجلال
يشف عن حُلّة الفخار
قل لجاريه فى المعالى
هيهات لن تلحق الغبار
ومن له فى السماء مثوى
فما لِخلق به لحاق
إلا إذا صيرت مطايا
له من البرق والبراق

خاتمة الدار

انتشرت موشحات ابن سناء الملك التى ضمنها دار الطراز ، وتغنى بها الشباب والشيوخ وذاع أمرها حتى فى المغرب ، يقول ابن أيبك الصفدى فى كتابه «توشيع التوشيح»

«من أهل الديار المصرية القاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك ، وهو حامل راية هذه الصناعة والناس عليه فيها عيال»

ويقول أبو الحسن على بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ هـ فى كتاب «المقتطف من أزاهير الطرف»

وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ماعانوه من الموشحات فأحسن ماوقع لهم من ذلك موشحة ابن سناء الملك المصرى وقد اشتهرت فى الشرق والغرب ومطلعها

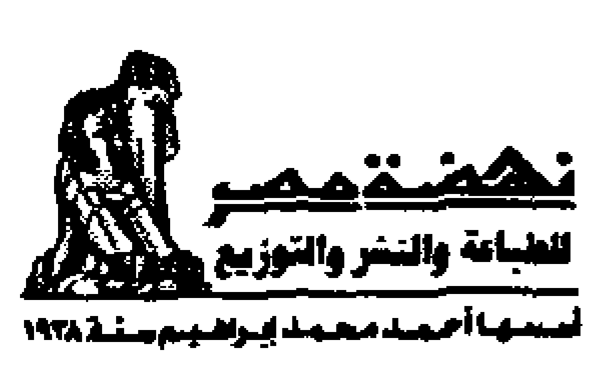
حبيبى ارفع حجاب النور ، عن العذار

يقطر بمسك على كافور ، فى جلنار

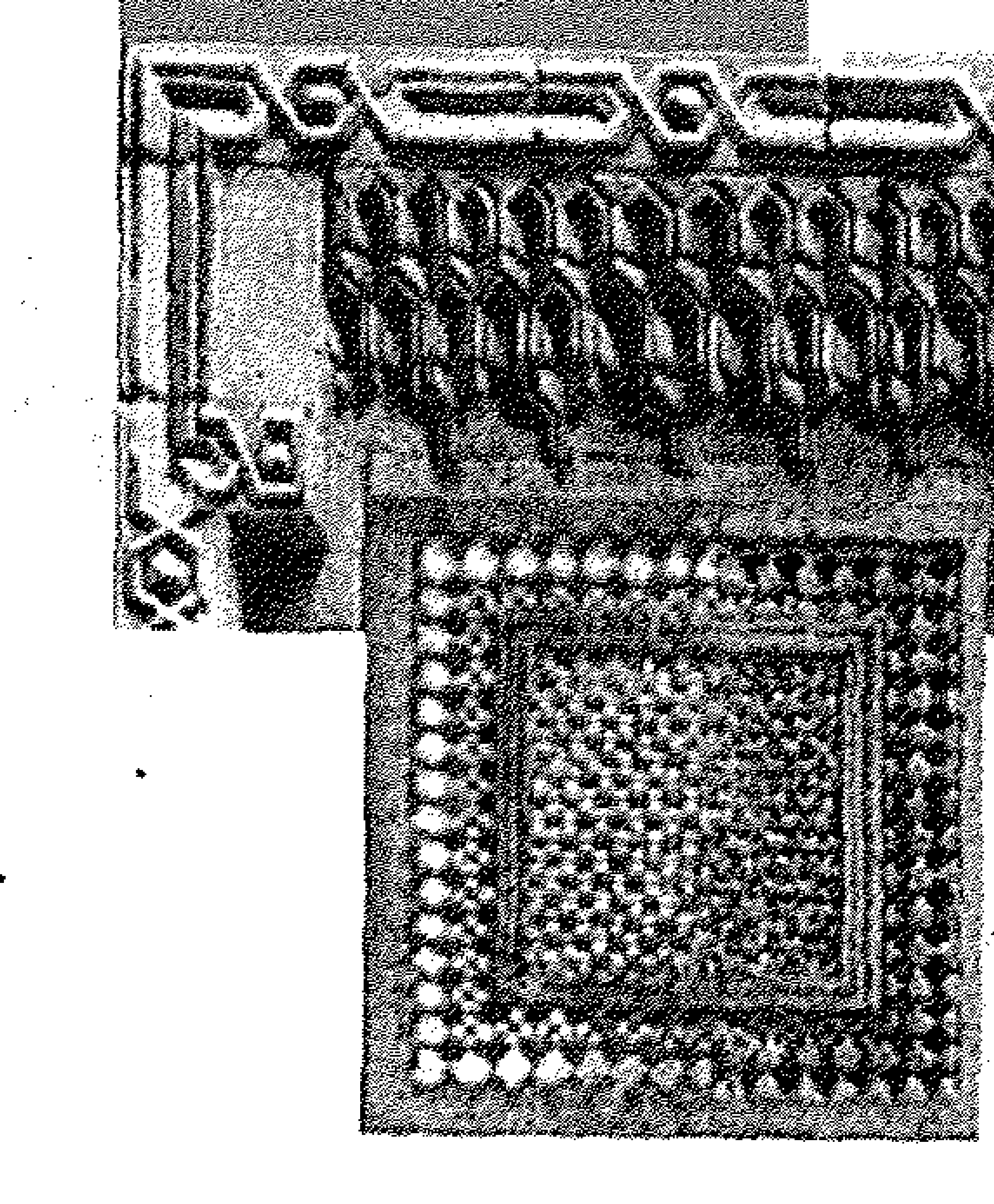
هكذا ، قدم ابن سناء الملك فى دار الطراز قواعد هذا الفن العريق لأول مرة ، وعرف بنصوصه المغربية فى المشرق ، وقدم مانظمه هو مفتتحا الطريق لمن أتى بعده من الشعراء كنصر الدين بن قلاقس والإسكندرى ، والأسعد بن حماتى وابن وزير والسراج الوراق ومظفر الأعمى ، وغيرهم ، ويبقى مؤلفه الفريد «دار الطراز» رقيقا بديعا فريدا فى التراث العربى . . تماما مثل نغمة جميلة تمس الوجدان فى موشح أصيل .

جمال الغيطانى

فهـــرس



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



ملامح القاهرة فى ١٠٠٠ سنة

عاش جمال الغيطانى معظم حياته فى القاهرة القديمة ، لم يكتف بذلك إنما رحل عبر أزمانها المختلفة ، وأمكنتها التى شهدت الكثير ، منذ سنوات طويلة يستعيد التاريخ ولا يعيده ، من خلال دقة المعلومة ، وحس مرهف بالتاريخ ، ورؤية أديب متفردة ، يتناول آثار المدينة وعادات أهلها ، وسمات الحياة فى عصرها المملوكى تحديداً . مقاهيها القديمة ، أسواقها العتيقة ، بيوتها الأثرية ، دروبها مآذنها ، أزياء القاهريين فى حقب مختلفة .

يتوقف عند الشخصيات الفذة التى عبرت فضاءاته وسلاطين ومشايخ وصناع وعابرى سبيل .

فى الكتاب تناول جديد لموضوعات قاهرية مهمة ، تم من مصادر التاريخ ومشاهدات الرحالة .

إنه كتاب يصون ذاكرة المدينة .

الناشر

